فكر علمي ... ثقافة تقدمية

الثقافة الجديدة

423-422
تموز 2021

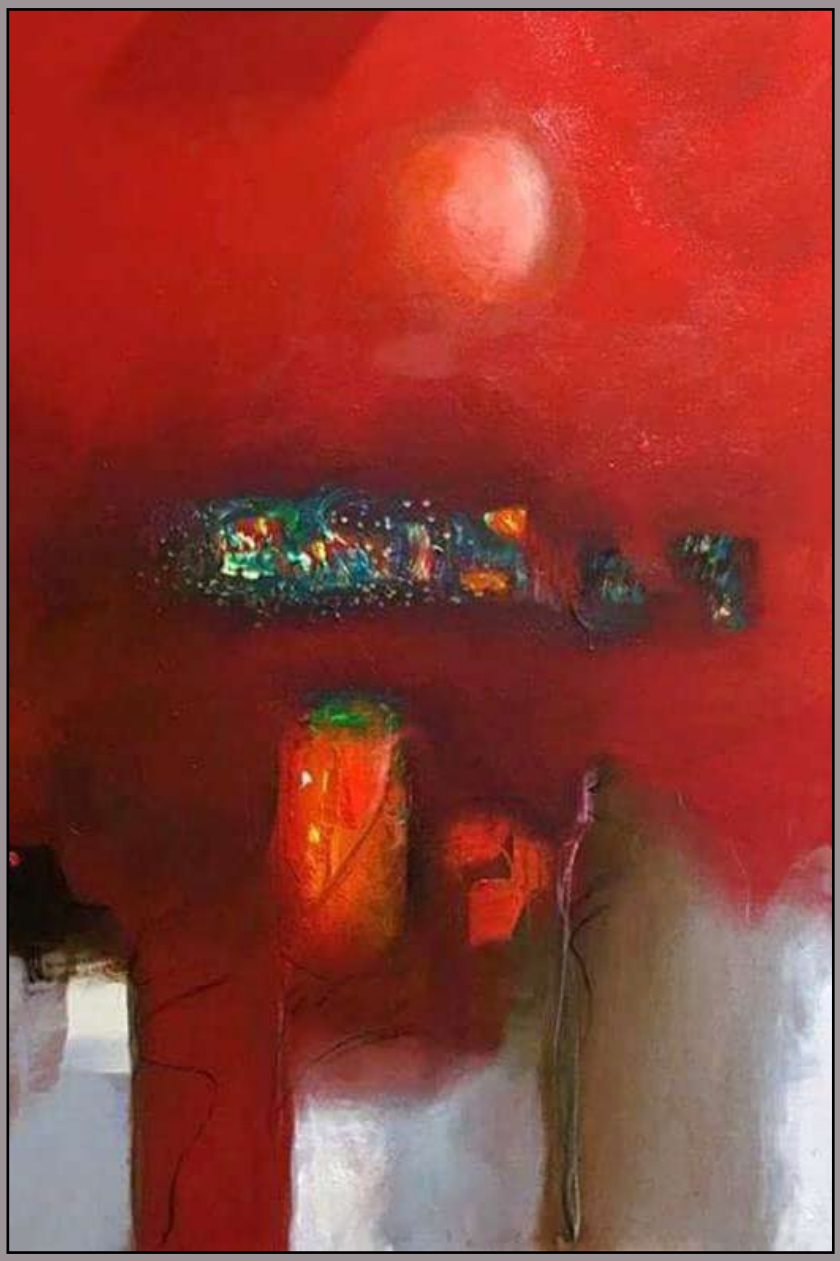

ندوة الثقافة الجديدة
"ازمة الدولة العراقية الحديثة"

مقالات
عبد علي الخفاف
سيف عدنان ارحيم القيسي
هاشم نعمة
سناء عبد القادر مصطفى
حيدر عبدالامير الغريباوي

نصوص قديمة
ايستيبان أونيسا

نصوص مترجمة
انغار سولتي

حوارات
حوارمع الدكتور عقيل الناصري

أدب وفن
حسب الله يحيى
قاسم عبد الأمير عجام
ملف الفنان د. بلاسم محمد
علي عبد الهادي المرهج
نجم حيدر
صالح الصحن
عاصم عبد الأمير
فاخر محمد
معتز عناد غزوان
قاسم محسن حسان
كريم سعدون
خالد الحلي
كولالة نوري
احمد المشتت
ميسر الخشاب
محمود سعيد
جبار صبري
مسلك ميمون
حبيب ظاهر عباس

الثقافة الجديدة

فكر علمي - ثقافة تقدمية
تأسست عام 1953

رئيس التحرير: د.صالح ياسر
محرر "أدب وفن": حسب الله يحيى

المواد المنشورة تعبّر عن آراء أصحابها

العدد: 422-423
تموز: 2021

يرجى ارسال مواد أدب وفن على العنوان الاتي:
hassab1944@yahoo.com

السعر داخل العراق: 2000 دينار للنسخة الواحدة
الاشتراك السنوي خارج العراق: للأفراد (50) دولاراً أو ما يعادلها، وللمؤسسات (100) دولار، أو ما يعادلها.
يحول المبلغ نقدا على الحساب الآتي:

بالدينار:	بالدولار:
مجلة الثقافة الجديدة	Althakafa Aljadida Magazine
مصرف المنصور للاستثمار – بغداد	Mansour Bank for Investment- Baghdad
رقم الحساب: 11153	Account No:30721
سويفت كود: MBIVIQBA	SWIFT CODE: MBIVIQBA

ايميل رئيس هيئة التحرير:
thakafajadida@hotmail.com
ايميل سكرتارية هيئة التحرير:
thakafajadida4u@gmail.com

عنوان الموقع على شبكة الانترنت:
http://www.althakafaaljadeda.com
عنوان المجلة: بغداد – ساحة الاندلس.
والرجاء إرسال المطبوعات الجديدة على هذا العنوان.
رقم الايداع: 781
رقم الاعتماد: 1288

ترجو هيئة التحرير من المساهمين في الكتابة الى المجلة مراعاة ما يأتي في ما يرسلون للنشر:
* أن تكون المقالة او الدراسة او الشعر ... الخ مستوفية شروط النشر من حيث وضوح التعبير وسلامة اللغة.
* ألا يتجاوز حجم المادة 4000 كلمة.
* ان تكون المادة معدة أصلاً للمجلة، لذا نعتذر عن نشر أية مادة تكون قد نشرت قبل ذلك في أماكن أخرى او على صفحات المواقع الالكترونية.
* يفضل ان تكون المادة مطبوعة على الكومبيوتر ومرسلة عبر البريد الالكتروني أو على قرص مدمج وارتباطاً بالتغيرات التي اعتمدتها هيئة التحرير في ما يتعلق بالتصميم الداخلي، نرجو أن ترسل مع المقال أو الدراسة نبذة مختصرة عن حياة الكاتب أو الكاتبة بحدود 50 كلمة إضافة الى صورة شخصية لنشرها مع المقال أو الدراسة.
* لا تعاد المادة غير المرشحة للنشر، وتتولى المجلة إعلام صاحبها بذلك.
* بالنسبة للمادة المرسلة عبر البريد الإلكتروني، تلتزم المجلة بإعلام كاتبها عن صلاحيتها للنشر وذلك خلال شهر واحد من تاريخ وصولها.
* للمجلة حق إعداد أو اختصار التعقيبات التي تردها.
* يجوز للباحث اعادة نشر بحثه المنشور في المجلة شريطة أن يشير الى المصدر عند اعادة النشر.

دار الرواد المزدهرة للطباعة والنشر والإعلان

محتويات العدد

5- كلمة العدد

ندوة الثقافة الجديدة

7- ندوة "ازمة الدولة العراقية الحديثة" شارك فيها الاساتذة: اياد العنبر، سعد عبد الرزاق،شيرزاد النجار، عامر حسن فياض،عبد الجبار احمد، علي عباس مراد،علي مهدي، رائد فهمي.

مقالات

46- ثورة 14 تموز الوطنية الطبقية وحركة رجال الدين الأحرار ..... عبد علي الخفاف
56- ثورة 14 تموز 1958... رؤية من الداخل ..... سيف عدنان ارحيم القيسي
67- اتجاهات الهجرة الطلابية من البلدان العربية وتحولاتها ..... هاشم نعمة
82- اجراءات روسيا لدعم الإقتصاد الوطني في مواجهة كورونا ..... سناء عبد القادر مصطفى
93- مدخل في دراسة مصادر تمويل المشاريع الصغيرة والمتوسطة ..... حيدر عبدالاميرالغريباوي

نصوص قديمة

106- الدين والسياسة... تأملات فيديل كاسترو حول الدين ..... ايستيبان أونيسا

نصوص مترجمة

112- السياسة الطبقية الثورية لروزا لوكسمبورغ :بقلم انغار سولتي ..... ترجمة رشيد غويلب

حوارات

132- حوار مع الدكتور عقيل الناصري ..... حاوره رئيس التحرير، الدكتور صالح ياسر

أدب وفـــــن

152- تموز.. ارث وطن ..... حسب الله يحيى
153- خطاب المقابر الجماعية ..... قاسم عبد الأمير عجام

ملف الفنان التشكيلي الراحل : د. بلاسم محمد

160- بلاسم محمد العاشق للحياة والرسم ..... علي عبد الهادي المرهج
165- بلاسم محمد: المكابدات الساخرة ..... نجم حيدر
169- التشكيل المرئي لدى بلاسم محمد ..... صالح الصحن
171- بلاسم محمد: رسوم تدون خرابنا ..... عاصم عبد الأمير
175- بلاسم محمد.. الفن مشروعاً للحياة ..... فاخر محمد
178- خطاب اللوحة عند بلاسم محمد ..... معتز عناد غزوان
181- فقدنا الكثير لكن الفارق أنك لا تعّوض..... قاسم محسن حسان
185- افتراض المكان في أعمال بلاسم محمد ..... كريم سعدون

*****

188- مرآتانِ لكوكبٍ لا يَرى ..... خالد الحلي
189- نصوص ..... كولالة نوري
193- ما معنى ان تكون عراقيا؟ ..... احمد المشتت
195- حلمِي وحلمك ..... ميسر الخشاب
196- الكليجة ..... محمود سعيد
206- اللغة، ومسرح غرفة الذات ..... جبار صبري
213- الزّمكانية في مجموعة "السنونو" للقاص حنون مجيد ..... مسلك ميمون
221- الفنان جعفر حسن.. الفرادة والتميَّز ..... حبيب ظاهر عباس
224- نعي الثقافة الجديدة بوفاة الشاعر سعدي يوسف

لوحتا غلافي العدد للفنان بلاسم محمد

احتجاجات الكهرباء.. أشد لهيباً من صيفها!

مرّة اخرى، تعود حرارة الصيف لتلهب بسياطها رؤوس العراقيين وأضلعهم واجسادهم. رجعت لتؤشر من جديد على التردي الشامل لمنظومتي الكهرباء والماء، وهي احد تعبيرات أزمة النظام السياسي المحاصصي. عادت لتضاعف من هموم الفقراء والكادحين والكسبة وصغار موظفي الدولة. هؤلاء الذين يرزحون اصلا تحت وطأة الصعوبات المعيشية والحياتية، التي فاقمتها الازمة الاقتصادية، والاجراءات الحكومية الى حد مريع.

وبالطبع، لا يمكن استيعاب حجم مأساة المواطن العراقي المتولدة عن ازمتي "الكهرباء والماء"، الا اذا وضعناها في سياقها الصحيح. على الاقل، بإدراجها مع باقي الازمات والمصائب التي يعانيها البلد من ازمة السكن، الى ازمة النقل والازدحامات، وازمات التعليم والبطالة. واذا اضفنا الى هذه المأساة التي لا تنتهي، فشل المنظومة الصحية الرسمية بالنهوض بالتزاماتها، خصوصا من جهة الوقوف في وجه وباء كورونا، ادركنا عظم الكارثة.. حيث اعلنت المصادر الحكومية المعنية رسميا، ان البلد دخل في الموجة الثالثة. وهي بحسب ذات المصادر الاشد فتكا. كل هذا في ظل نسبة متدنية جدا لمتلقي اللقاح.

لقد اججت حرارة الصيف اللاهبة والانقطاع المستمر وحتى شبه الدائم للكهرباء، غضب العراقيين، ودفعتهم من جديد الى الخروج باحتجاجات شعبية. وهي كعادتها ومهما كان حجمها، ليست احتجاجات بسيطة ولا عابرة. ولأنها تنذر بالكثير، فقد انتهت مرة اخرى بسقوط الضحايا وسفك الدماء. حيث ما زال الطابع المميز لتعامل الحكومة مع اي نشاط احتجاجي، وهو استخدام القسوة الشديدة والعنف السافر، وذلك بغية القضاء عليه او تحجيمه على الاقل.

لكن، ما تغافلت عنه القوى المتنفذة، الماسكة بالسلطة ان احتجاجات "الكهرباء" هذا العام تختلف عن احتجاجات الاعوام الماضية. فهي جاءت وجذوة انتفاضة تشرين لم تخبُ بعد. بالعكس ما زال اوارها متقدا. خصوصا وان الشروط والظروف التي ساهمت في اتقادها مازالت في تفاقم مستمر. كما ان جل مطالبها لم تتحقق حتى اللحظة. وفي مقدمتها ملف الكشف عن قتلة المتظاهرين. بالعكس من ذلك، الاكيد هو ان اعداد الشهداء ما زالت في تزايد.

الازمة تتفاقم.. والمواطنون من يتحمل أعباءها.. والحكومة تتفرج!

من جهة اخرى، تأتي احتجاجات صيف هذا العام في ظل بيئة مستجدة. تقع في مقدمتها ازمة اقتصادية متفاقمة، والتي يبدو ان اسعار النفط المرتفعة منذ اشهر لا توجه نحو ايجاد آليات سليمة من اجل تفكيكها. بالعكس، نجد ان خطابات واجراءات الحكومة المتلاحقة ما زالت تعمل على تحميل اعباء هذه الازمة على كاهل المواطنين. ان ذلك ساهم في تعميق عزلة القوى الحاكمة سياسيا

واجتماعيا، لتصبح عزلتها اشد وضوحا، مهما كانت الاساليب التي تنتهجها من اجل شراء الذمم بغية تقوية قاعدتها. يقابل كل ذلك، تنام ملموس في الوعي الاحتجاجي السياسي المنظم، ووضوح متزايد في تحديد الهدف السياسي الرئيسي من الاحتجاج، وهو ازالة منظومة المحاصصة، وقواها السياسية.

إن كل هذا يوضح ان الامكانيات التي توفرها احتجاجات هذا العام تعد اكثر سعة وانفتاحا نحو تغيير اكثر عمقا وشمولية من كل احتجاجات الاعوام الماضية.

الانتخابات "المبكرة".. بين مطرقة المشاركة وسندان المقاطعة

وفي خضم كل هذا، يبدو ان الاستعداد لإجراء الانتخابات "المبكرة"، ما زال تجري على قدم وساق. وهذه الاستعدادات مستمرة، حتى في ظل استمرار الفشل الحكومي الرسمي ليس فقط في ايفاء الحكومة بوعودها في الكشف عن قتلة المحتجين، بل وحتى في ظل انعدام قدرتها وربما رغبتها في الحيلولة دون سقوط المزيد من الشهداء. ناهيك طبعا عن فشلها في تنفيذ اي من وعودها الاخرى مثل تجفيف منابع الفساد، والسعي نحو حصر السلاح بيد الدولة. واذا اضفنا الى كل ما سبق، ان المنظومة الانتخابية العراقية بقيت غير مستقلة الى حد كبير عن القوى السياسية المتنفذة، نجد ان الحديث عن امكانية قيام انتخابات حرة ونزيهة، امسى كلاما لا قيمة له، الى حد كبير.

ودون الولوج في خضم جدليات المشاركة في الانتخابات او مقاطعتها، فكلتاهما ممارستان ديمقراطيتان. لكن الانتخابات تبقى واحدة من اهم اسس الديمقراطية، والالية الوحيدة من اجل التداول السلمي الديمقراطي للسلطة. وبالتالي، تعتبر احدى اهم رافعات التغيير. وبالسبب من كل ذلك فإن اي مسعى لقطع الطريق امام التغيير السلمي الديمقراطي عبر افراغ الانتخابات من محتواها وجوهرها الحقيقي، معناه فتح الابواب مشرعة نحو خيارات لا تحمد عقباها.

ان الانتخابات وان كانت فعلا من اهم رافعات التغيير السلمي، لكنها ليست رافعته الوحيدة. فالديمقراطية كانت وستبقى تعني حكم الشعب. فالشعب هو من سيقرر آلياته في انفاذ قراره.

تموز.. ستبقى القيامات متجددة

بالمقابل، في هذه العام، تمرّ علينا الذكرى المئوية الاولى لتأسيس الدولة العراقية الحديثة. واحياء لهذه المناسبة الوطنية الكبيرة، تأمل مجلة (الثقافة الجديدة) عقد سلسلة من النشاطات والفعاليات التي تتناول بها العديد من القضايا والاشكاليات التي رافقت تاريخ هذه الدولة منذ لحظة التأسيس وحتى الآن. ومن بينها الندوة التي عقدتها الكترونيا، ونشرت في هذا العدد.

من جهة اخرى، مع صدور هذا العدد في الاسواق، تكون القوى الوطنية والتقدمية والديمقراطية ومعها الملايين من ابناء شعبنا قد احتفلت بالذكرى الحادية والستين لثورة 14 تموز 1958 المجيدة، واعلان الجمهورية العراقية. والذي يمثل واحدا من اهم وابرز الاحداث التي شهدها تاريخ البلاد المعاصر؛ حيث دشن دخول العراق خلال سنوات قليلة مرحلة من التقدم الاجتماعي العاصف، لم تشهدها اي حقبة اخرى في تاريخه. ان هذه الثورة، وعلى الرغم من انها بدأت بتحرك عسكري، يذكر بالأعمال الانقلابية التقليدية إلا أن هذا التحرك كان مجرد الفتيل الذي أطلق النهوض الثوري لملايين العراقيين والعراقيات، الذين كانوا متحفزين ينتظرون الفرصة السانحة لفرض ارادتهم في التغيير السياسي والتحول الاجتماعي.

سيبقى تموز، ليس الحرارة التي تبخر الدماء في الاوردة فقط. انه صرخة ثورة... تموز قيامات متجددة.

ندوة (الثقافة الجديدة) الحوارية:

تحلُّ علينا هذا العام الذكرى المئوية الاولى لتأسيس الدولة العراقية الحديثة. وإحياءً لهذه المناسبة الوطنية الكبيرة، أقامت هيئة تحرير مجلة (الثقافة الجديدة) مساء يوم الجمعة الموافق 4/ حزيران/ 2021، وعبر تقنية الـ zoom ندوة حوارية حملت عنوان:

أزمة الدولة العراقية الحديثة
إشكاليات تأسيس، أم خطايا الممارسة؟

لتكون باكورة نشاطاتها التي تستذكر فيها هذا الحدث الكبير والمؤسس، حيث أدار اعمال الندوة الدكتور (سوران قحطان)، عضو هيئة تحرير المجلة، وقد ضيّفت نخبة راقية من الشخصيات الاكاديمية المعروفة. وهم كلٌ من الاساتذة:

(1) د. اياد العنبر
(2) د. سعد عبد الرزاق
(3) د. شيرزاد النجار
(4) د. عامر حسن فياض
(5) د. عبد الجبار احمد
(6) د. علي عباس مراد
(7) د. علي مهدي
(8) الأستاذ رائد فهمي

وبسبب سعة موضوع الندوة وتشعّبه، ولتنوع الطروحات والرؤى حول كل فقرة من فقراته، ارتأت هيئة تحرير (الثقافة الجديدة) ان ترفق مع ورقة الدعوة، المحاور الكبرى للندوة فقط. ولم تشفعها - كما جرى عليه التقليد الاصيل والمعروف للمجلة- بورقة عمل مختصرة، بل شاملة تمثل وجهة نظرها في الموضوع قيد البحث. وفي هذا المجال نود أن نشير الى ان كل محور من هذه المحاور يمثل بحد ذاته نواة لمواد بحثية ولنشاطات اكاديمية وتخصصية، ستحاول المجلة النهوض بها، واقامتها في أعدادها القادمة، ما امكنها ذلك.

محاور الندوة الكبرى:

- خصائص تشكّل الدولة الحديثة في بلدان الاطراف، علاقة الدولة والمجتمع، ضعف المجتمع المدني وغياب شبه تام للديمقراطية الحقيقية؛
- المضمون الاجتماعي في سيرورة الدولة العراقية الحديثة وطبيعة المصالح الحاكمة فيها؛
- اشكاليات تأسيس الدولة العراقية الحديثة، معضلات اعادة التأسيس 1958 و2003، غياب الديمقراطية؛
- الريع والدولة الحديثة، الدولة الريعية وعرقلة تطور المجتمع المدني والتحولات الديمقراطية؛
- الانتقال من دولة المكونات والمحاصصة إلى دولة المواطنة، الشروط والاشتراطات، البناء الاتحادي وجدل المركزية واللامركزية؛
- الدستور والقانون والمواطنة، من دولة ازدواجية القانون، مرورا بدولة "انا القانون"، الى دولة غياب القانون؛
- الدولة والسلاح: من عصور انفلات السلاح الى حقبة السلاح المنفلت، دور المؤسسة العسكرية الرسمية في العراق الحديث، الجماعات المسلحة بعد 2003؛
- تعدد السلطات و"الدولة العميقة": السلطة خارج نطاق الدولة، من المحسوبية وشبكة العلاقات الزبائنية الى العنف السافر؛
- الدولة واشكالية الهوية الوطنية العراقية، هوية جامعة ام هويات فرعية؟ جدلية الهوية الوطنية والسرديات الكبرى: القومية والدينية.

بدأ الدكتور (سوران قحطان) اعمال الندوة بالترحيب بالحضور المتميز، ثم قال: لقد عوّدت مجلة (الثقافة الجديدة) قراءها وجمهورها على القيام بالعديد من النشاطات، وفي مقدمتها عقد الطاولات الحوارية. وهذه المرة ايضا نعقد الندوة عبر الدائرة الالكترونية المغلقة وبرنامج الـzoom بسبب ظروف وباء كورونا اللعين.

في هذا العام تمر علينا الذكرى المئوية الاولى لتأسيس الدولة العراقية الحديثة، وذلك عبر قيام النظام الملكي وتنصيب فيصل الاول ملكا على العراق عام 1921. وبهذه المناسبة ستسعى مجلة (الثقافة الجديدة) الى عقد سلسلة من النشاطات والفعاليات التي تتناول بها العديد من القضايا والاشكاليات التي رافقت تاريخ هذه الدولة منذ لحظة التأسيس وحتى الان.

إنّ ندوتنا اليوم، تعد باكورة نشاطاتنا التي تخص هذا الحدث المهم. ونود ان نلفت انتباه حضراتكم الى ان نشاطاتنا هذه، وفي مقدمتها هذه الندوة لن تكون احتفائية ولا حتى استذكارية، وبعيدة عن السياسوية الفجة. وانما ستكون ذات طابع تاريخي تحليلي، نسعى من خلالها الى تعميق فهمنا ومعرفتنا بتاريخ العراق الحديث، بغية الاستفادة من دروسه وتجاربه.

ستتصدى الندوة لمناقشة موضوعة الدولة العراقية الحديثة وأزمتها. من خلال البحث في بعض تمظهرات هذه الازمة وتجلياتها المتنوعة، لكن الاهم انها تنطلق من أولوية تحديد كنه هذه الازمة، وذلك من خلال السعي الى معرفة اسبابها العميقة؛ فهل هي مجرد نتاج لخيارات وممارسات سياسية خاطئة، انتهجها السياسيون والقابضون السلطة في بعض اللحظات التاريخية الفارقة؟ ام هي ازمة جوهرية، تتعلق اساسا ببنية الدولة.

ان كلمة ''التأسيس'' التي وردت في عنوان هذه الندوة، لا ترتبط فقط بلحظة تشكيل وتأسيس الدولة العراقية الحديثة، ولا بمرات ما يمكن تسميته ''اعادة التأسيس'' في اعوام 1958 و2003، بل هي ترتبط بـ''الاساس''، بالبنية الداخلية للدولة العراقية.

بوجود هذه الكوكبة من الشخصيات الاكاديمية المهمة، يحدونا الامل في ان تساهم المناقشات والآراء والرؤى التي ستطرحونها في الاجابة على الاسئلة التي طرحتها محاور ورقة الدعوة التي ارسلت لحضراتكم، بما يمكننا من ان نكون على معرفة اكثر بطبيعة الدولة العراقية الحديثة.

ونود تذكيركم بأن بعض القضايا التي سنتناولها اليوم او تلك التي لا نستطيع تغطيتها، ستفرد لها المجلة، كما اسلفت، نشاطات مستقبلية.

العراق من عصور انفلات السلاح الى حقبة السلاح المنفلت

الثقافة الجديدة: ارتبطت جدلية الدولة والسلاح بتاريخ العراق الحديث؛ حيث انتقل العراق من عصور انفلات السلاح الى حقبة السلاح المنفلت. وطالما كانت عصور انفلات السلاح الرسمي طويلة، نجد نذرها في العهد الملكي، وصولا الى

تسلم العسكر للسلطة. لكن بعد 2003 كان الوضع مختلفا؛ حيث دخلت علاقة الدولة بالسلاح مرحلة جديدة. ويبدو اننا شهود على حقبة لا نعرف نهايتها. يعد السلاح المنفلت احد ابرز عناوينها، خصوصا بسبب ارتباطه بما يمكن تسميته الدولة العميقة.

هل من تعليقات اضافية، خصوصا حول الآليات الاسلم لارتباط المؤسسة العسكرية بباقي مؤسسات الدولة.

د. إياد العنبر: قبل الشروع في القضية الاساسية للموضوع الذي تحدثت به، علينا ان ننطلق من كون العراق دولة حديثة، تنتمي الى دول العالم الثالث، التي ما زالت تعاني مشاكل التأسيس او ترافقها مشاكل التأسيس. وهي دولة غير مستقرة ومتسلطة ومتضخمة. ومتضخمة بمعنى التضخم المرضي لمؤسسات الدولة وغيرها من دون ان يكون لها اي جدوى. كما انها اصبحت دولة ريعية ومستقلة نسبيا او كليا، اذا صح هذا الوصف، عن مجتمعها.

انا استحضر هنا ما لخصه الدكتور فالح عبد الجبار في كتاب "العمامة والافندي"، عن أزمة الدولة في العراق، والتي يحددها بمجموعة نقاط اهمها باختصار انها ظاهرة يافعة ما زالت تعود الى عشرينيات القرن الماضي، وتفتقر الى العمق التاريخي والمؤسسات المتجذرة، وهي دولة اقليمية ووحدة جغرافية لا تضم شعبا كأمة، وانما هي دولة تبحث عن كيان امة. ولذلك كانت مشكلة الأيديولوجيات ومشكلة الهويات الفرعية والتي هي الآن متصاعدة. وهي دولة تنعزل فيها نسبيا علاقات قوى السلطة عن مجتمعها نفسه، فهي تفضل دعم العسكر الخارجي او تفضل المصادر المادية كريع النفط او المساعدات وغيرها. تمارس سلطة اقتصادية بوصفها مالكا للأرض او بوصفها اداة ضبط وتدوير للاقتصاد، وبصفتها مالكة ومنتجة وتتحكم بمجمل الثروات الوطنية. دولة تتسم بنيتها المؤسسية بعلوية السلطة التنفيذية، تحتكر فيها زمام السلطة طبقة سياسية صغيرة تنحدر من الطبقات الاجتماعية القديمة او هناك خلطة من طبقات لا اعلم هل يمكن وصفها بالوسطى او التقليدية، وهل يمكن وصفها بأنها نوع من المدينة الهجينة تهجنت فيها محافظات العراق جميعا تقريبا بعد التسعينات والثمانينات. الآن لدينا سلطة هجينة ما بين الطبقات التي تنتمي الى مجتمع تقليدي، لكنها تحاول ان تقدم نفسها بعناوين دينية، وعناوين تقليدية دينية هي ما زالت تتحكم، العشائر ما زالت موجودة وتتحكم. يبدو ان المشكلات هي نفسها.

في خصوص السؤال، في الحقيقة أصل الموضوع ان هناك مشكلة حقيقية منذ تأسيس الدولة العراقية تتعلق بضبط الامن. فالجميع يعلم من المختصين بتاريخ العراق ان هناك مشكلة واجهت تأسيس الجيش العراقي، وواجهت تمردات العشائر، وهذا بحد ذاته بمعنى أن هناك كما شخّص الملك فيصل بقوله ان السلاح الموجود لدى الجيش العراقي ليس له مضاهاة مقابل سلاح العشائر. هذه التركة الثقيلة وغيرها استمرت. ان هناك اشكاليات حقيقية، لكن كانت هناك محاولات لحوكمة الامن، قد تكون مضطربة او قد تكون هناك محاولة لاستعمال السلاح وغيرها في زعزعة الاستقرار السياسي في العهد الملكي، كما استخدمت العشائر ضد الجيش لغاية فترة انقلاب بكر صدقي.

فيما بعد في الفترات الجمهورية كانت هناك محاولات حزبية لتقديم نفسها كجماعات مسلحة، كما كانت هناك جهود من قبل الحكومات او الرئاسات أو الانظمة بأن تمركز الامن لكنها في نفس الوقت، تعمل على خلق مؤسسات رديفة للمؤسسات الامنية، والتي نسميها حاليا المؤسسات الموازية او القوة الموازية، لكن هذه المرة القوة الموازية تحمل السلاح. على سبيل المثال البعض يتحدث عن الحرس القومي، ايضا جماعات حزب البعث، والجميع يعرف ان في فترة حزب البعث السابقة هناك ميليشيا كانت تابعة الى حزب البعث العربي الاشتراكي، والتي كان يرتبط قرارها بهيئة الحزب، وهي قد تكون رديفة في الحقيقة، وليس بالضرورة ان تكون مهمة، لكن هناك مشكلة في وقت ان هيكلة المؤسسات الامنية وحصر السلاح كان يضاهيه تشجيع على ان تكون هناك مؤسسات رديفة بعناوين تسوق على انها شعبية واخرى تسوق على أنها جماهيرية لكنها بالأساس عناوين مسلحة، كانت تؤسس لجماعات رديفة تابعة للدولة.

ما حدث بعد 2003 في الحقيقة كانت هناك مفارقة. هذه المفارقة ان القوى التي أتت لا اريد ان اكرر انها مسؤولة عن انهيار الجيش، وعن قرار بريمر وغيرها، فهذا اصبح بحكم المتفق عليه، لكن بالأساس ان القوى الاساسية التي جاءت بعد 2003 لم يكن لديها مشروع سياسي لا بناء دولة، ولا بناء أمة. وعلى هذا الاساس هي لا تدرك تماما ماذا يعني الجيش. البعض بارهاصات الماضي يعتبره جيش صدام، وهذا الجيش ممكن ان يشكل خطرا على تجربة النظام السياسي الجديد، والبعض يحاول ان يصفي حساباته، كما حدث من احاديث الكثير من الساسة الكرد في تلك الفترة، والبعض يعتبره عماد النظام السياسي. هذه الاشكاليات كان هناك جيش منحل، أعيد تشكيله مرة اخرى، لكنه كان الحلقة الاضعف من دون رؤية، ومن دون تنسيق ومن دون مشروع جديد لبناء الدولة. على هذا الاساس كان هناك في نفس الوقت جماعات مسلحة وهي ترافق عمليات الانتقال الديمقراطي الاخرى، او الانتقال من نظام الى آخر اذا كان نظاما سياسيا هشا تقريبا، أو

دولة هشة كما يحدث في العراق. الدولة الهشة التي تفقد تماما في الدرجة الاولى زمام السيطرة على ادارة الملف الامني. هذا المرتكز الاول ناهيك عن القضايا الاخرى المرتبطة بمعايير هشاشتها. في العراق لدينا الآن مشكلة السلاح. هذا السلاح مرتبط بجماعات تعمل وفق منطق ازدواجي. مرةً تكون هي نتاج ارهاصات داخلية وازمات داخلية وتنشأ من انشطار او تكاثر جماعات أم كانت تقدم نفسها على انها تحمل مشروع مقاومة او تحمل مشروعا مسلحا لمواجهة القوات الامريكية وغيرها من العناوين، لكن فيما بعد تحولت الى انشطارات. هذه الانشطارات كانت بسبب عوامل خارجية. قد يكون الراعي او المؤسس لمثل هكذا جماعات، هو الذي عمل على انشطارها لإضعاف الجماعات الأم، ومن ثم حدث نوع من الاشكالية. بما ان الاقتصاد ريعي، فقد تحولت هذه الجماعات الى أنها تتغذى على منافع الاقتصاد الريعي، وسيطرتها عليه، كما يوصف الدكتور رائد فهمي الفساد في العراق بأنه الصراع على تقاسم الاقتصاد الريعي، فدخلت منظومة الفساد بعنوان جماعات مسلحة، وتريد أن تثبت نفسها بعناوين سياسية، ودخلت العملية السياسية. المشكلة الاساسية هنا هي انها لم تبق جماعات تحمل السلاح سواء كان من الممكن ان تتعامل معها بأنها جماعات خارج الدولة، ولا يمكن ان تتعامل معها بطريقة صريحة انها جماعات موازية للدولة، فهي تتعامل بخطاب متناقض. هذه الازمة اعتقد انها الآن من أولويات الاشكاليات التي تواجه مشروع اعادة بناء الدولة بعد 2003. قد يكون من غير المنطقي ان نتحدث بعد 18 سنة لكنها حقيقة حسب تجربة الالمان من تغيير نظام هتلر من عام 1945 لغاية الستينات والثورة الطلابية، حتى بدأ انهاء ارهاصات النظام السابق: النظام الشمولي. قد نكون الآن وضمن سياق احتجاجات تشرين ووسائل التواصل الاجتماعي، تطرح هذه الاسئلة التي طرحها دكتورٍ سوران وهي اسئلة منطقية، وانا حقيقةً اعمل على محاولة تفكيك هذا الموضوع من خلال اسئلة اساسية: هل المشكلة الحقيقية تحتاج بالدرجة الاولى لان ترتبط بعقد سياسي جديد، كما يروج بعض السياسيين، وتكون هذه اولوياته. ام يكون لمبادرة الحكومة بإعادة تمركز الوضع الامني وتهجين الامن، أما القبول بهذا الامر الواقع وفق سياسات جديدة يتم الاتفاق عليها حتى تذوب في مؤسسات الدولة، او بقاء منطق الجماعات الموازية او الدولة الموازية، الذي يبقي العملية على كف عفريت، أما ان نعيد تماما ما حدث في تجربة الخضراء وغيرها من الاستعراضات العسكرية الاسبوع الماضي التي استمرت اكثر من مرة والتلويح باستخدام السلاح وغيرها. هذه القضية الاساسية يبدو ان طرحها بحد ذاته هو نوع من التفكير بالقضايا التي لا تفكر بها الطبقة السياسية، لكن نطرحها نحن لأننا غير متورطين ومتلوثين بمصالح الطبقة السياسية، ولأن سعينا نحو بناء دولة.

الديمقراطية لا تختزل بالانتخابات فقط

الثقافة الجديدة: ارتبطت الديمقراطية بالدولة الحديثة. باعتبارها عملية غير ناجزة او عملية انجاز كانت وما مازالت وستبقى قائمة.

وسواء كانت الديمقراطية بمعناها الضيق لوصف نظام حكم حيث الشعب هو مصدر السيادة والسلطة، اي يحكم نفسه عن طريق ممثلين عنه، وعبر تداول سلمي للسلطة، او بالمعنى الواسع، أي بمعنى يصف ثقافة مجتمع سياسية واجتماعية واخلاقية، تتجلى فيها مبادئ وقيم الحرية، وتقبل الآخر وتداول السلطة وأساليب وآليات انفاذها بصورة راسخة. فالقضية كانت ومازالت ترتكز على مشاركة المواطنين بصنع القرار النهائي، سواء كان القرار سياسيا أو اجتماعيا أو ثقافيا أو اقتصاديا.

وسؤالنا الى د. سعد، ترى ما هو الدور الذي لعبته الديمقراطية ببناء الدولة العراقية الحديثة، منذ التأسيس الاول؟ وعلى وجه الخصوص في مرحلة ما بعد 2003؟ خصوصا اذا ادركنا ان الديمقراطية خلال هذه الـ 100 عام غالبا ما تمت مماهاتها بالعملية الانتخابية فقط.

وهل كان من الممكن الجمع بين الديمقراطية والـ: اقطاع، حكم العسكر، الحزب الواحد، او الدولة العميقة؟

د. سعد عبد الرزاق: سأبدأ من تأسيس الدولة العراقية عام 1921؛ إذ احتل البريطانيون البصرة نهاية عام 1914، ودخلوا بغداد عام 1917 كما هو معروف. في البداية كانت تهمهم البصرة كثيرا حتى انهم ارادوا تحويلها الى مستعمرة مرتبطة بالهند. ووصل بهم الحال بالتالي الى فكرة تحويل العراق الى مستعمرة تابعة. لكن دخول امريكا للحرب عند انسحاب روسيا السوفياتية بعد ثورة اكتوبر، وبتأثير من الرئيس الأمريكي وودرو ولسون، والذي كان معجبا بفكرة حق الامم بتقرير مصيرها تحول العراق من مستعمرة مباشرة الى انتداب. تزامنت هذه المرحلة في الحقيقة مع الموجة الاولى للديمقراطية في العالم، التي حدثت بعد الحرب العالمية الأولى. علماً ان الديمقراطية لم تكن مرغوبة من قبل الكثير من النظم حتى الأوروبية منها. أصابت الموجة الاولى للديمقراطية العراق، وحظي بها بالانتداب الذي اصبح بالتالي احد اشكال الاستعمار غير المباشر من قبل بريطانيا. وكانت فكرة الديمقراطية في ذلك الحين لا تتعدى الانتخابات التمثيلية، ان ينتخب الناس ممثليهم عن طريق الانتخابات. اما مضمون هذه الديمقراطية فلم يجر التأكيد عليها. وفي بداية العشرينيات حصل العراق على وعي سياسي واجتماعي تأسست على اثره احزاب في المناطق الحضرية، خاصة في بغداد.

علما ان الفرق بين سكان الريف والحضر كان هائلاً، فلم يكن سكان الحضر يتجاوزن نسبة 25% من السكان على عكس ما هو في الوقت الحالي، الذي فاق عدد سكان الحضر الـ 70% من سكان العراق.

بعد الموجة الثانية للديمقراطية التي جاءت بعد الحرب العالمية الثانية، جرى السماح لبعض الاحزاب بان تصبح علنية كالحزب الوطني الديمقراطي والاستقلال، لكن هذه الفترة لم تطل كثيراً بفعل الحرب الباردة. ولم يكن اهتمام بريطانيا في هذه الفترة بتحويل العراق الى نظام اقطاعي او شبه اقطاعي، لكنهم اضطروا لذلك بسبب العصيان القبائلي الدائم في المناطق الريفية، فحصل رؤساء القبائل على ملكية الأرض، وتحولوا الى كبار الملاك. وهكذا أصبح لدينا نظام شبه ديمقراطي في المدن وشبه اقطاعي في الريف. وعرفت المدن وجود بعض الأحزاب واجراء انتخابات دورية، لكنها بقيت دون المستوى المطلوب من خلال تدخل السلطات الحكومية فيها، كما ظهرت طبقة وسطى مستقلة عن الدولة، لعبت دوراً ايجابياً في تبلور الوعي والأفكار. وازداد قمع النظام الملكي للأفكار والاتجاهات الوطنية المعادية لبريطانيا، خاصة الشيوعية منها.

وجاء العهد الجمهوري من خلال ثورة 14 تموز 1958 محملاً بنيات وأماني كبيرة للغاية، فمنها تحقيق حكم الشعب وبناء نظام ديمقراطي عادل، وبالرغم من الاصلاحات الواسعة وتحقيق الكثير من الخدمات للمواطنين، إلا ان الصراع السياسي الواسع الذي نشب منذ بداية الثورة، شتت كل هذه الامور، وادى الى نهايات كارثية. وكما هو معلوم فقد تحول العراق في عقد السبعينات الى دولة ريعية كبيرة، ومن ثم استبدادية وشمولية ما جعل تطبيق الديمقراطية من الأمور المستحيلة، فلم تلق الموجة الثالثة والأخيرة للديمقراطية صدى لها في العراق، تلك التي جاءت بعد عام 1974 عندما تحررت البرتغال واسبانيا من أنظمتها الدكتاتورية.

في الحقيقة، ان نماذج الديمقراطية عديدة جدا، سأتكلم بشكل سريع عن ثلاثة نماذج، لها علاقة بالتطبيق الديمقراطي ما بعد عام 2003.

النموذج الاول هو النموذج "الولسني" او "الانتخابي"، الذي يستند الى ان الشعب قادر على اختيار ممثليه بنفسه من خلال الانتخابات، من دون الدخول في مضمون هذا الاختيار من حيث تحقيقه للعدالة والحرية. وهكذا فكثير من البلدان التي لديها انتخابات ما زالت تمارس التسلط والديكتاتورية؛ فالانتخابات لوحدها لا تعني بعد بأن البلدان التي تمارسها اصبحت ديمقراطية. فالديمقراطية الانتخابية ممكن ان تكون جيدة وناجحة، إذا وجدت الظروف المناسبة لممارستها.

النوع الثاني ما يسمى بالديمقراطية الليبرالية، هي ديمقراطية تمثيلية اضافة الى وجود حريات وطبقة متوسطة وحقوق انسان كاملة وتساوي الجميع امام القانون، وتنمية مادية وبشرية وغيرها.

النوع الثالث هو الديمقراطية التوافقية، التي هي احد اشكال النظم الديمقراطية للمجتمعات المنقسمة على نفسها، بحيث يجري توافق بين رأي الأغلبية والاقلية، ويعتبرها البعض من اسوأ انواع الديمقراطيات، وذلك لضعفها، ولدينا في العراق مثال عنها بعد ان تحول نظام الحكم الى محاصصة بين الذين يمارسون السلطة. وللديمقراطية الليبرالية -حسب بعض

المفكرين- عدة مستويات، تبدأ بتقبل الناس لفكرة النظام الديمقراطي، ومن ثم يتوطد هذا النظام من خلال المؤسسات والدساتير والأنظمة والاحزاب السياسية، يجري بعدها التركيز على المجتمع المدني بهياكله الاجتماعية كجماعات المصالح ووسائل الاعلام المستقلة وجماعات الحقوق المدنية، الموجودة خارج نطاق سيطرة الدولة، ويشمل المستوى الأخير بنية الأسرة والدين والقيم الأخلاقية والوعي العرقي والمدنية والتقاليد التاريخية وغيرها.

أريد في البدء ان اركز هنا على انه لا يمكن بناء الديمقراطية إذا لم تكن هناك دولة، وكلما كانت الدولة قوية، كلما كان النظام الديمقراطي متيناً. فالنظام السياسي الذي جاء بعد الاحتلال الامريكي في 2003، كان بقالبه العام ديمقراطياً، وفي الواقع ديمقراطياً ومتفائلاً للغاية، لأنه حاول الفصل بين السلطات الثلاث، وضمان حرية التعبير والاجتماع، وتأسيس الاحزاب، ومراقبة الدولة من خلال مؤسسات مستقلة، وتمكين المواطن من انتخاب حكامه عبر انتخابات حرة ونزيهة. كل ذلك من دون وجود مؤسسات تعزز تطبيق مثل هذه المهام. لقد اثبتت التجربة العراقية أن اختزال الديمقراطية بالانتخابات كانت ممارسة خاطئة، فالديمقراطية والانتخابات ليستا الشيء نفسه تماماً، فالانتخابات هي ببساطة الآلية المناسبة لتنفيذ الديمقراطية. كان ينبغي من اجل تحقيق مثل هذه المهام اعطاء فرصة لمرحلة انتقالية طويلة نسبياً، تتكفل بإصلاح كافة الخروقات والسلبيات التي خلفها النظام السابق، وتوفير الامن، والخدمات للمواطن، ومحاربة الارهاب الذي نجح في التالي في شل العملية السياسية برمتها. لم تكن مؤسسات الدولة مهيأة لمواكبة التغيير الديمقراطي وسلطة القضاء التي هي من اهم سلطات الدولة، كانت حكراً على حزب البعث خلال النظام السابق، ادت بالتالي الى تعطيل القضاء واستقلاليته ومن ثم تحولت الى مؤسسة تابعة لسلطة رئيس الوزراء. وحمل الدستور منذ اقراره في عام 2005 اخطاء وتناقضات عميقة، تعذر العمل على تعديله، ومع كل المثالب جرى تجاوزه بشكل سافر. وحصل غياب متعمد لكل انواع المساءلة والمحاسبة لأجهزة الدولة ومسؤوليها، وزاد الفساد كما هو معروف للجميع. وباختصار لا يمكن بناء دولة ديمقراطية ما لم يكن لدينا دولة في البداية، التي ينبغي ان يكون لها احتكار فعال لكل وسائل العنف داخل اطار حدودها، وان تساوي بين المواطنين بالعدل، وتنهي وجود المليشيات وامراء الحرب وغيرها.

علينا ان لا نضع اللوم على الدولة فقط، فالمواطن اثبت من خلال ممارسته للانتخاب، بانه لا ينتخب حسب البرنامج السياسي للحزب او القائمة الانتخابية، بل ينتخب القائمة القريبة لطائفته، وربما ان الحراك الاحتجاجي الاخير انتج وعياً ايجابياً ورافضاً لمثل هذه الممارسات. ونتيجة لتمركز الطوائف في بعض المحافظات، حصل تقسيم جغرافي انتخابي، فالأكراد منعزلون في المحافظات الشمالية والسنة في الغربية، والشيعة في الجنوبية. وثبتت الحكومات التوافقية مفهوم الدولة العميقة التي اصبحت فيها السرقات مبرمجة وخيالية.

أريد في الختام، ان اجيب على السؤال: هل هناك أمل في اصلاح الدولة العراقية؟ العراق دولة فاشلة، وافضل طريقة للاصلاح تبدأ بالتخلص من كل مظاهر الدولة الفاشلة

المتسمة بالضعف في إنجاز مهامها الادارية والتنظيمية اللازمة لضبط الناس والموارد. وأن تتمكن الدولة من احتكار الاستخدام الشرعي للعنف، من خلال التخلص من كل الجماعات المسلحة التي تسير وفق أجندات خاصة بها، وأن لا تتحول أراضي البلاد إلى ملجأ للعناصر الخطرة كأمراء الحرب والجماعات الإرهابية. وأن تقوم بمحاربة الفاسدين وإدانتهم، وتخفيف الصراعات الداخلية، وتوفير الأمن والسلامة للمواطن. والاهتمام بتقديم أقصى الحدود للخدمات العامة الأساسية، وعدم الاكتفاء بالحد الأدنى. وينبغي إعادة تقويم مؤسسات الدولة الأساسية: التنفيذية والتشريعية والقضائية، بحيث تعمل بالشكل الاحترافي المستقل، وتحفيز طاقات الجهاز البيروقراطي والقوات المسلحة والأمنية. وأخيرا أن تتمكن الدولة من بسط نفوذها على أرضها وعلى شعبها، وحماية حدودها الوطنية.

لكن، الغريب، أن كل هذه الأمور ليست مخفية على أحد، وحكام البلاد أفضل من يعرفها، لكنهم غير مستعدين للتغيير، فالدولة "العميقة" التي صنعوها خلال السنوات الماضية، كافية لحمايتهم من المحاسبة والمساءلة، وتجني لهم ثروات لا طائل لها. وهكذا فإن الانتخابات المبكرة لن تحل مشكلة البلاد، إذ ان المطلوب تجديد كامل هياكل الدولة: السلطات التنفيذية والتشريعية والقضائية، وهذا من غير الممكن تحقيقه من خلال الانتخابات المبكرة لوحدها، خاصة وان التحضيرات الأولية للإنتخابات القادمة تشير الى بقاء نفس القوى التي تسيطر على الدولة حالياً. وأخيرا، لا يبدو في الأفق أن التغيير قادم، وسيكون البديل في الغالب مكلفا للغاية.

ظاهرة الاذلال رافقت تأسيس الدولة

الثقافة الجديدة: ارتباطا بالمداخلة السابقة. بالنسبة للعراق الحديث، وخلال 100 عام الاخيرة، باي معنى نستطيع الحديث عن مرتكزات بناء الدولة الحديثة من جهة علاقة المجتمع السياسي بالمجتمع المدني، خصوصا قضيتي احتكار السيادة والهيمنة، وايضا ارتباطهما بالشرعية؟

وهل من الصحيح القول ان تاريخ الصراعات والنضالات السياسية والاجتماعية منذ لحظة التأسيس يرتبط بصورة رئيسية بهذا الشكل او ذاك بقضايا ازمة التمثيل السياسي الحقيقي؟

وهذا يقودنا الى تساؤل اخير: برأيك د. شيرزاد ما هي اشتراطات ومستلزمات الانتقال من دولة المكونات والمحاصصة إلى دولة المواطنة، الشروط والاشتراطات؟

د. شيرزاد النجار: أنا انظر الى الموضوع نظرة اخرى. واذ اعود الى لحظات تأسيس هذه الدولة، هذه الدولة ارتبطت بحالة نسميها في علم السياسة حالة الاذلال. ظاهرة الاذلال رافقت تأسيس الدولة العراقية، هذه الدولة بنيت على الشكل الاتي: احتلال مباشر، الانتداب والارتباط بمعاهدات مذلة مع بريطانيا ثم مع حلف بغداد، لذلك هذه المسألة سيكولوجياً اثرت على كيفية بناء هذه الدولة، أصحاب السلطة السياسية لم يكونوا احرارا في كيفية بناء هذه الدولة وكانوا مضطرين لسماع اقوال او تصريحات او سياسات بريطانيا من خلال المندوب السامي او من خلال مسز بيل وآخرين من الذين هم من وضعوا اللبنة الاساسية لهذه الدولة، لذلك لم يكن هناك ارتباط ما بين المجتمع السياسي والمجتمع المدني في

العراق. بمعنى ان هذه الدولة تشكلت بدون ارادة المواطنين وهناك في التأريخ العراق انتفاضات ضد هذه السلطة السياسية وضد هذه الدولة. اذن الهيمنة لم تكن هيمنة شعبية انما هيمنة اجنبية، هيمنة من قبل قوى استعمارية. اذن بدأت هذه الدولة بصراعات مع المجتمع في كيفية تثبيت اركان هذه الدولة. وفي الحقيقة اذا نجحت فان هذا النجاح كان قاصرا جدا، ولم يتمكن اصحاب السلطة السياسية من تثبيت اركان هذه الدولة، فهذه الدولة جوبهت بتمردات وانتفاضات واحتجاجات، والاستجابة من قبل هذه السلطة كان بمزيد من القمع وعدم فسح المجال للاحزاب السياسية بالعمل، ما عدا فترة قصيرة جدا بعد الحرب العالمية الثانية، والتي اشار لها الدكتور سعد. وفي عام 1954 اغلقت جميع الصحف وجميع الاحزاب، وبدأنا مرحلة جديدة من التسلطية، مرتبطة بحلف بغداد وبالصراع بين الاتحاد السوفيتي والمعسكر الاشتراكي والدول الغربية. اذن هناك خلل في كيفية تأسيس هذه الدولة وكانت مذلة من قبل الدول الاستعمارية وادت الى ازمة في التمثيل السياسي، هل كانت السلطة السياسية تمثل ارادة الشعب؟ نتذكر الانتخابات في العهد الملكي. طبعا لغاية 1952 الانتخابات كانت لدورتين. يعني انتخابات غير مباشرة، بعد ذلك اصبحت مباشرة، لكن معظم المندوبين او اعضاء البرلمان كان يأتي عن طريق التزكية، ما عدا دورة واحدة عام 1954، 11 عضوا وطنيا انتخبوا، ولم يستطيعوا اكمال الدورة. عقدت جلسة واحدة وحل هذا البرلمان. اذن هناك ازمة في مسألة الربط ما بين الشعب وبين السلطة السياسية، وهذا ما أدى الى فقدان الشرعية بالنسبة للنظام السياسي آنذاك. في العهد الجمهوري جابهنا ايضا مسألة الاذلال من قبل قوى الاستعمار، الضغوطات التي مورست خصوصا على الجمهورية الاولى، كانت ضغوطات جدا خطيرة وجدا عميقة وقوية. رأينا في مفاوضات النفط ورأينا في مسألة خروج العراق من حلف بغداد الى آخره من هذه المسائل. كانت هناك ضغوطات تشبه حالة الاذلال في العهد الملكي، وادى هذا الشيء الى انهيار الجمهورية الاولى في 8 شباط 1963، بعد ذلك بدأت ايضا ضغوطات غير مباشرة من نوع اخر الى ان وصلنا الى 2003 ، طبعا لدينا حروب ودخل عنصر جديد في حالة الاذلال، وهذا العنصر هو الامم المتحدة بقراراتها المجحفة بحق الشعب العراقي والحصار الاقتصادي، وبانهيار العملة العراقية وانهيار قيمة الرواتب للمواطنين. كل هذا أدى الى مسألة هي ان هذه الدولة اصبحت مذلة من قبل قوى الاستعمار حتى من قبل الامم المتحدة، بعد 2003 استمرت هذه الحالة من خلال الصراع بين قوتين مهمتين: الولايات المتحدة الامريكية وايران. وهذه الحالة مستمرة لغاية الآن، رافقتها بعض الظواهر ”الديمقراطية“ الانتخابات، مثل هذه الانتخابات

لدى بعض المفكرين السياسيين مرفوضة، لأن الاتجاه في الفكر السياسي هو اتجاه ضد الانتخابات. نحتاج اذن الى نوع من اعادة الثقة واعطاء فرصة كاملة للمواطنين بإبداء آرائهم والمشاركة الحقيقية في الانتخابات. اذن نحن في مفترق طرق في العراق امام السير نحو الشيء الذي يتمناه الشعب من المسائل الديمقراطية والانتقال الديمقراطي وما تتمناه السلطة السياسية في الاستمرار في الحكم على هذه الشاكلة. هذه الشاكلة ستؤدي الى نتائج جد وخيمة لهذه الدولة. وفي الحقيقة نحن ليس لدينا مرحلة نسميها بالانتقال الديمقراطي، لا توجد ديمقراطية في العراق بالمعنى الحقيقي للكلمة، بل توجد هناك ظواهر ممكن تسميتها بشيء شكلي للديمقراطية، لكن الديمقراطية الحقيقية لا يمكن مشاهدتها في مجرى الحوادث السياسية في العراق. وفي الحقيقة ان الديمقراطية تحتاج الى شيئين مهمين جدا، العديد من المفكرين وعلماء السياسة اشاروا لها: الشرط الاول هو الشرط التعليمي والشرط الثاني هو الشرط الاقتصادي، الشرط التعليمي بمعنى ان لا يمكن ان تأتي بالديمقراطية وتطبقها على شعب أمي او نسبة الامية فيه عالية، والآن في العراق نسبة الامية جدا عالية، وتصل الى اكثر من 40%، والشرط الاقتصادي انه في الدولة الريعية، المواطنون لا يساهمون في تحمل الوضع الاقتصادي، في العراق لا يدفعون الضريبة لا يشاركون في موارد الدولة ... الخ. اذن شروط الديمقراطية اذا لم تكن مفقودة فهي ضعيفة جدا في العراق، لذلك عندما نتحدث عن الديمقراطية في العراق اعتقد اننا نتكلم بشيء من المثالية. وفي الحقيقة لا توجد ديمقراطية حقيقية في العراق.

مستلزمات بناء الدولة الحديثة

الثقافة الجديدة: النظريات السياسية المعاصرة قدمت عددا من المتطلبات والمستلزمات الضرورية أو الاساسية من اجل بناء الدولة الحديثة. تساؤلنا للدكتور عامر هو عن مدى تطابق بعض هذه المستلزمات مع سيرورة بناء الدولة العراقية الحديثة، خصوصا باعتبار العراق من بلدان الاطراف؟

هذا بالتأكيد يشمل الظروف التي كانت قائمة مرحلة التشكل الاولى عام 1921، وكذلك ظروف "اعادة التأسيس" - ان جاز الحديث - اللاحقة في اعوام 1958 و2003.

د. عامر حسن فياض: في الحقيقة سأبدأ من نهاية كلام الدكتور سعد عن الدولة الفاشلة ونهاية كلام الدكتور شيرزاد عن الدولة المذلة. انا اقول اننا ووفق منظور سسيولوجي اجتماعي سياسي لعملية البناء، نحن نتحدث عن مئة عام من مرحلة لا هي دولة فاشلة ولا هي مرحلة دولة مذلة، بل هي مرحلة ما قبل الدولة، كنا ومازلنا نعيش مرحلة ما قبل الدولة وواقع الحال السياسي الآن يشير الى ان العلامات الفارقة الاساسية سياسيا تحصل ضمن اطار كيان او كيانات اسمها العراق وليس ضمن اطار دولة. وهذه العلامات الفارقة تتمثل سياسيا بما يأتي: وجود جماعات وقوى سياسية متنفذة وقوية بالسلاح وغنية بالمال وهذه القوى حسنتها الوحيدة لنفسها انها منظمة وتعرف ما لا تريد وما تريد هذه هي العلامة الاولى. العلامة الثانية ان هناك قوى سياسية احتجاجية هي فقيرة وليست غنية وهي ليست منظمة بل

مبعثرة، هذا هو المشهد السياسي الحالي في العراق. وعن عملية بناء الدول علينا ان ننتبه اولا الى ان عملية بناء الدولة هي مسار وليس قرارا. ثانيا ان عملية بناء الدولة هي عملية تأريخيا تحتاج الى صبر وهي ليست كما يقول صحفي مكسيكي اسمه اوكتافيو باز هي ليست نسكافيه سهلة الصنع، عملية تاريخية ليست مستعجلة وليست سهلة الصناعة. ثالثا كل عملية بناء تتحكم فيها قوانين وجدليات ثلاثة لأي وحدة سياسية يراد لها ان تبنى، وبالذات على شكل دولة، حيث تتحكم بها ثلاث جدليات؛ الجدلية الاولى هي جدلية التنازع ما بين الداخل والخارج. الجدلية الثانية هي جدلية التنازع ما بين التجزئة والتوحيد. والثالثة هي جدلية التنازع ما بين الهوية السياسية والهويات غير السياسية ضمن اطار اي كيان يراد ان يتحول الى دولة. دعونا نطبق هذه الجدليات الثلاث على تجربة البناء العشرينية وتجربة اعادة البناء للدولة ما بعد 2003، نلاحظ ان جدلية الداخل والخارج في الدولة العشرينية كان هناك تنازع ما بين الرغبة البريطانية والرغبة العراقية، ومن الخطأ ان نقول بأن الدولة العشرينية تشكلت فقط وفق الرغبة الخارجية، بل كانت هناك رغبة داخلية لبناء الدولة، لكن هل كانت هي الغالبة؟ هل كانت هي الاضعف؟ هذه مسألة كثير من الكتب تحدثت على ان دولة العراق بنيت وفق رغبة بريطانية صرفة، وهذا حكم فيه شيء من الخطأ. وبإعادة البناء بعد عام 2003 فإن هذه الجدلية وهذا القانون استحضر نفسه ايضا؛ نلاحظ بعد عام 2003 كان هناك حضور لجدلية الداخل والخارج، اذا اخذنا بنظر الاعتبار الرغبة الامريكية والرغبة العراقية، هذا القانون قائم حتى الآن، فكيف تبنى الدولة العراقية: هل وفق رغبة الخارج ام وفق رغبة الداخل؟ هذه عملية جدل مازالت قائمة. الجدلية الثانية التجزئة والتوحيد نحن نعلم بالدولة العشرينية بالتأكيد عندما اريد لها ان تتشكل اثيرت قضايا واذكر على سبيل المثال قضية الموصل هل هي للعراق ام لتركيا. هذه دخلت في اطار التجزئة، وهناك رغبة تقابلها ومعادلة بمعنى تعادل مضاد ان العراق يحتاج ان تكون الموصل جزءا منه، لمن يسأل هل هذا القانون فعال؟ بالتأكيد فعال ولكن بأثواب وصيغ اخرى؛ فموضوعة الدعوة الى الفدرلة على سبيل المثال هي دعوة تقترب من دائرة الانفصال، او انها تقترب من دائرة الاتحاد. هذا جدل مازال قائما ونعرف بأن هناك دعوات ايضا لم تصدر من ديمقراطيين، لكي تكون فيدرالية حقيقية بل صدرت من غير الديمقراطيين للدعوة الى الفدرلة، وهذه بالنتيجة عندما تصدر الدعوة للفدرلة من غير الديمقراطيين تذهب بالعراق الى ان

يكون مجموعة دول او كيانات وليس دولة واحدة. القانون الثالث هو التنازع ما بين الهوية السياسية والهويات غير السياسية؛ نحن نعرف ان اي دولة يراد لها ان تتشكل لا بد وان تأخذ بنظر الاعتبار ان تكون لها هوية، واتحدث بالتشديد على الهوية السياسية. في كل الوحدات السياسية ذات التنوع القومي والديني والمذهبي، عندما تشكل الدولة تحدث هناك منافسة شديدة وقد تكون دموية على ان تكون الهوية السياسية الدولة هي واحدة من هذه التنوعات. العراق عاش هذا التنوع، وعاش مشكلة التنازع ما بين اي هوية للعراق: هل هي عربية وفي العراق اكراد وتركمان. هل هي اسلامية وفي العراق مسلمون ومسيحيون. هل هي شيعية وفي العراق سنة. هل هي سنية وفي العراق شيعة.

هذا القانون مازال قائما حتى هذا اليوم. وهذه القوانين التي مازالت قائمة هي التي تجعل من العراق منذ العشرينات وحتى الان يعيش مرحلة ما قبل الدولة، بعد 2003 نحن نلاحظ العقبات الكثيرة التي تقف في طريق بناء الدولة، واختصرها بأن هناك عبث بالمال العام ومصداقيته الفساد وعبث بالامن العام ومصداقيته الارهاب والجريمة المنظمة. هناك عجز في الخدمات، هناك عقم في الانتاج وخصوبة بالاستهلاك. هناك عوز في التشريعات الخاصة بتأسيس الدولة. هناك عرج في المعرفة. هناك عوق في المؤسسات. كل هذه عقبات في طريق الدولة، المشكلة التي ستكون قائمة في مسار بناء الدولة في العراق، تتعلق بأن عناصر البناء ما زالت غير ناضجة وغير مكتملة. عناصر البناء تتمثل بفرد وبجماعات وبسلطة سياسية، بقدر تعلق الامر بالفرد هناك بركة من الافراد، ولكن اي توصيف للافراد في العراق لدينا اربعة توصيفات للفرد في العراق: هناك الفرد التابع وهناك الفرد من الرعايا وهناك الفرد من الزبائنية وهناك الفرد المواطن. انا اعتقد ان الخارطة الاجتماعية للافراد في العراق تبين لنا بان الكثرة بالافراد تتمثل في الاتباع، وفي الرعايا وفي الزبائنية، والقلة تتمثل بالمواطنية والمواطن. بالنسبة للجماعات، اي دولة تبنى بجماعات الجماعات في العراق وفق الخارطة الاجتماعية السياسية، موزعة ما بين عشائر وما بين مذاهب وما بين قوميات وما بين عوائل وما بين مجموعات انتماؤها وولاؤها مناطقي جغرافي. مثل هذه الجماعات التقليدية لا يمكن من خلالها بناء الدولة ونحتاج الى جماعات غير تقليدية. هذه الجماعات تتمثل بمؤسسات المجتمع المدني واحزاب سياسية. نلاحظ الغلبة في العنصر الاساسي لبناء الدولة الحديثة للجماعات التقليدية وليست للجماعات الحديثة. بالنسبة للسلطة وهي العنصر الثالث، السلطة السياسية لا بد وان تكون سلطة شرعية والشرعية ما عادت تقوم على اساس سلطة منتخبة فقط بل سلطة منتخبة وانجازية في نفس الوقت. بينما اذا كانت لدينا سلطة منتخبة فبالانجازية نلاحظ ان هناك خللا، وهذا يثلم الشرعية ويدعو الى انفجار الاحتجاجات.

سأذهب اخيرا الى مسألة الخروج من مأزق ما قبل الدولتية، نحن نحتاج كما قلت في الصورة التي رسمتها في البداية، نحتاج عندما تكون هناك قوى متنفذة منظمة وقوية وغنية في نفس الوقت وسلوكها خاطئ

بل سلوكها فاسد، هذه القوى لا يمكن من خلالها بناء الدولة، مقابلها قوى احتجاجية سلوكها ومطالبها قد تكون صحيحة، لكنها ليست غنية وليست قوية وليست منظمة هي مبعثرة، هل نتكئ على القوى المبعثرة غير القوية غير الغنية لبناء الدولة؟ ام نتكئ على القوى المتنفذة؟ انا اعتقد وحتى اكون واقعيا نحن نحتاج ليس الى بديل الغائي، فلا القوى المتنفذة تستطيع ان تلغي القوى الاحتجاجية، ولا القوى الاحتجاجية تستطيع ان تلغي القوى المتنفذة. انا اقول المعادلة واقعيا من اجل تأمين خروج متزن ومتوازن، تحتاج من القوى الاحتجاجية لان تنظم نفسها وتغادر بعثرتها وتستطيع بسلوكها الصحيح ومطالباتها الصحيحة حتى لو بآلية الاحتجاجات ان تقوّم السلوك الفاسد والخاطئ للقوى المتنفذة. هذه المسألة بتصوري وبواقعية تحتاج الى مخرج وليس هناك مخرج سوى الانتخابات. الاحتجاجات بلا جدوى، بلا تنظيم، لا تصل بنا الى مخرج صحيح. الانقلابات لا تبني دولة وبالذات دولة ديمقراطية والاتكاء على الاجنبي هو الاخر لا يبني دولة. اذن واقعيا ليس امامنا مخرج سوى الانتخابات في بيئة آمنة نسبيا، وعبر مراقبة انتخابات تعمل الحكومة عليها من خلال حصر السلاح بيد الدولة قدر الامكان والبدء بخطوات جادة لمحاسبة الفاسدين الكبار واعتماد المراقبة الداخلية والخارجية من مؤسسات ذات مصداقية للعملية الانتخابية بكل مراحلها من الدعاية الانتخابية وصولا الى اعلان النتائج، مرورا بإجراءات التصويت وفرز الاصوات وحماية الصناديق الانتخابية.

شكل الدولة.. جدل المركزية واللامركزية

الثقافة الجديدة: إن احد ابرز نتاجات النظام السياسي بعد 2003 هو تحول العراق من دولة بسيطة الى دولة مركبة/ اتحادية. حيث أقرت الاتحادية وثبتت رسميا في اولى مواد دستور عام 2005.

في ورقتك السياسية (الفيدرالية واللامركزية في العراق - 2013) اشرت الى ما نصه "الدعوة لتطبيق اللامركزية الادارية والسياسية كنهج لإدارة الدولة لن تكون كافية لوحدها لبناء اسس الديمقراطية.." .

برايك د.عبد الجبار متى ينتهي الجدل حول شكل الدولة سواء على الاساس المركزي او اللامركزي، سواء في موضوعة الفيدرالية او في اعطاء صلاحيات كبيرة للمحافظات؟

وكيف يمكن ان يتحول هذا الجدل الآن بعد مرور 100 عام على تأسيس الدولة العراقية الى مساعي فعلية لبناء دولة القانون والمواطنة؟

د. عبد الجبار احمد: بدايةً يوجد سؤال مركزي يخص العراق، لماذا هناك اخفاق في بناء الدولة وادارة الدولة في العراق؟ هناك مشكلة في بناء الدولة وفي ادارة الدولة، فلماذا هذا الاخفاق؟ ثانيا من الذي يبني هذه الدولة وكيف يديرها؟

هناك ثلاثة اتجاهات على مستوى المنظومة: هل الاحتلال والاستعمار يبني دولة؟ ثانيا هل الاستبداد يبني دولة؟ والخيار الثالث هل الديمقراطية تبني دولة؟

حينما نتحدث عن العراق ينبغي ان نعزل ما يحدث في العراق عن الحالات والظواهر الاخرى في الدول المتقدمة. بمعنى اننا في العراق ليس لدينا تحديد للمفاهيم، واذا قلنا

نعم نقبل ان الاحتلال يبني الدولة سيكون الشاهد لنا اليابان والمانيا وان العامل الخارجي يبني دولة سيكون الشاهد كوسوفو وجنوب السودان وتيمور الشرقية. لكن في رأيي المتواضع الدولة لا تبنى عن طريق الاحتلال وابرز مثال على ذلك هو ما حصل في العراق.

واذا اجبنا على السؤالين، ان الاحتلال لا يبني الدولة كما ان الاستبداد ايضا لا يبني دولة. اذن المتبقي لنا هو ان نبحث عن الخيار الديمقراطي في بناء الدولة. ومن اجل دراسة وضع العراق يجب ان نعزل منظومة الديمقراطية فيه عن منظومة الدولة والديمقراطية في مناطق اخرى من العالم. فنحن نتحدث ان ما يحصل في العراق لا يمثل فقط دولة تابعة او دولة مذلة او دولة فاشلة او هي ما قبل الدولة كما تفضل الاساتذة. اقول هي دولة لا تشبه كل الدول. فيها من الانماط الهجينة وهذا ما يُصعّب مسار بناء الدولة.

أما في ما يتعلق بالدولة البسيطة والدولة المركبة، فالدولة البسيطة في تعريفها هي وحدة الادارة والسلطة. أما الدولة المركبة فهي ثنائية السلطة والادارة. في بداية تأسيس الدولة العراقية لم يتم التطرق الى موضوع الفيدرالية، ونتحدث على مستوى الجانب الرسمي من وقت مبكر، كانت هناك توجهات مركزية في ادارة الاقضية والنواحي ولربما في وقت متأخر كان هناك طرح قانون في محاولة للولوج الى اللامركزية، انتهت دائرة اللامركزية في العراق في عام 1958، وصلنا الى حقب عسكرية متتالية جميعها لم تتحدث عن الفيدرالية.

السؤال هنا بما يخص الدولة البسيطة والمركبة: هل لدينا ثقافة سياسية في العراق تستطيع ان تميز بين مضامين الدولة البسيطة والدولة المركبة؟ الجواب هو بالنفي. ثلاثة رؤساء وزراء تختلف مفاهيمهم عن ادارة اللامركزية الادارية ومجالس المحافظات، وكل واحد منهم حسب رأيه الشخصي. بمعنى ان هناك خللا في بنية الثقافة السياسية للنخب التي تحكم العراق. فيما يخص الفيدرالية، فهي نمط عالمي معتمد، وكان يفترض لو كان هناك بحث حقيقي عن بناء دولة في العراق كان يفترض ان نتقبل موضوع الفيدرالية منذ تأسيس الدولة في بدايتها. لكن عموما حتى هذه الساعة النخب السياسية تتحدث عن مركز ليس اتحاديا، وتتحدث عن حكومة مركزية وليس حكومة اتحادية. وهذا يعكس ان هناك خللا في النظرة للفيدرالية. وبدلا من ان تكون الفيدرالية على انها تقاسم للسلطة وثنائيات في السلطة وثنائية الادارة، ينظر لها بكونها تقسيم للسلطة وتقسيم للإدارة وتقسيم للدولة. هذا يعني ان هناك خللا في بنية الثقافة السياسية.

ما اريد التوصل إليه هو ما يلي: اذا اردنا ان نبني دولة في العراق ينبغي البحث عن

المعادلة التالية: أولا لابد ان تكون هناك جغرافية مسالمة للعراق. العراق هو دولة فيدرالية لكن الدول المجاورة جميعها ليست فيدرالية، فكيف ستتقبل موضوع الفيدرالية حتى التي تتحدث عن نمط ديمقراطي سياسي. اذن الجغرافية للعراق هي ليست ملائمة لبناء دولة جديدة.

ثانيا، النخب السياسية البعض يسميهم طبقة سياسية، وأنا اختلف هم ليسوا بالطبقة السياسية لان مصطلح الطبقة مصطلح راق. هم شرائح وربما فئات قد انتهجت او تمنطقت باللعبة السياسية، اقول النخب السياسية في العراق، وانا اتحدث عن التي تقبض على السلطة، والتي اصبحت سلطة سياسية واقتصادية وهم يمثلون قوى ما قبل الدولة. والموضوع ليس صراع ما بين قوى الدولة واللادولة. انهم لا يصلحون لبناء الدولة فكيف لإدارتها.

ثالثا، نحتاج لتراكم الخبرات والوقت، الخبرات والوقت ضرورية. في بداية تأسيس الولايات المتحدة الامريكية كان هناك صراع بين نخبتين؛ النخبة الاولى تعتقد انه لابد ان يكون المركز الاتحادي في واشنطن قويا، ونخب اخرى تعتقد لا بد ان تكون للولايات قوة، لكن تم حل هذا الموضوع بتسويات سياسية شرعية وليس بمنطوق اخر كما يحصل في العراق.

النقطة الرابعة الضرورية لبناء الدولة، هي تتمحور حول تساؤل: هل لدينا مؤسسات وطنية ترتبط بفكرة المواطنة؟ انا اشك في ذلك، كل الحكومات وكل النخب السياسية القابضة على السلطة تتحدث عن المواطنة، لكن هي تعيش في اطار التكوين والمكون وحتى في المكون هناك مشكلة في أزمة التمثيل، بمعنى قد يعتقد البعض ان الذي يحكم في السلطة هو مكون سني ومكون شيعي ومكون مسيحي ومكون كردي، لربما هذا صحيح للأقليات لكن بالنسبة للاغلبيات نرى ان هناك ازمة في التمثيل السياسي، والذي لا يعبر عن القواعد المجتمعية.

من جهة اخرى، اود ان اشير بسرعة متحدثا عن علاقة الفيدرالية بالحكومة على مستوى المفاهيم المستخدمة: في العراق توجد حركات وتوجهات مختلفة مثل تلك التي ينطلق منها رؤساء الوزراء، الذين يستخدمون عبارات ومصطلحات مفاهيم تعبر عن محاولة تقوية السلطة، ويكتفون بذلك، لكن لا ينتهجون نهجا يحولهم من تقوية السلطة كإعداد تمهيدي لتقوية الدولة. مثال ذلك اليوم رئاسة الوزراء تتحدث عن قوى الدولة وان الدولة قوية او نسعى لتقوية الدولة، هو في حقيقة الحال مازال في اطار تشكيل الحكومة وتقويتها.

لذلك لا بد ان ننظر بموضوع الدولة البسيطة والدولة المركبة نظرة ليست عقائدية، وانما نظرة موضوعية تقول ما يلي: ان مصطلح الدولة هو تنظيم سياسي حديث ليس فيه اقطاعيات ولا زعامات ولا اثنيات لكن فيه مواطنة. ان الدولة بالمعنى الحديث هي الاحتكار المشروع للقوة واي وجود لأي ممارسة للقوة خارج اطار المركز الذي يحتكر المشروع هو يعبر عن قوى ما قبل الدولة. والسلطة الاقتصادية في العراق، اذا اردنا بناء دولة السلطة الاقتصادية اصبح هناك هدر للمال وهدر للثروة الاقتصادية، في حين انك اذا اردت بناء دولة حقيقية لا بد ان يكون هناك توزيع عادل لعوائد الثروة.

حتى هذه الساعة، بعد 18 عاما من

التجربة، نجد العلاقة ما بين المركز الاتحادي واقليم كردستان تحكمها النوازع الشخصية ولا تحكمها النوازع الموضوعية للفدرلة الموجودة في العالم. واعتقد موضوع الرواتب وتعطيلها ما بين الاقليم والحكومة الاتحادية مثال على ذلك، موضوع الاحزاب في بداية التجربة الامريكية كان ايضا هناك تخوف من المظاهر الحزبية باعتبارها ستحدث انشقاقا في المجتمع. والعسكر في العراق وغير العراق كانوا يخشون من الاحزاب. لكن علينا ان نتحدث بصراحة كأصحاب اختصاص هل ان الظاهرة الحزبية في العراق تعبر عن المكنون الحقيقي للأحزاب باستثناء مجموعة احزاب ومنها الحزب الشيوعي العراقي، الحزب الديمقراطي، الاتحاد الوطني، لربما فيها منظومات فكرية، مؤتمر عام ونظام داخلي، لكن ما خلا ذلك كل الاحزاب السياسية اما حديثة النشأة وبعضها انشئ قبل شهر من الآن، فكيف نستطيع ان نتحدث عن زعامات حزبية تستطيع ان تبني الدولة، من الذي يبني الدولة؟ في رأيي المتواضع اضم رأيي وصوتي الى الدكتور شيرزاد، انا متشائم جدا، لربما الآن هناك من يحاول ان يتحدث عن حصر السلاح بيد الدولة، ولكن حينما تغيب الدولة، بيد من سينحصر السلاح؟ ثانيا، كورونا اوجدت لنا مصطلح التباعد الاجتماعي لكن نخبنا السياسية قد اوجدت اقصاء اجتماعيا منذ 18 عاما فكيف نستطيع ان نتحدث عن تواصل اجتماعي، مقومات الدولة القومية التي نحلم بها هي دولة المواطنة وليست دولة المكونات وليست دولة الزعامات الحزبية هي دولة مواطنة فيها التواصل وفيها التبادل وفيها الحوار مع الآخر. أما اذا بقينا على مستوى مركزة القرار السياسي، ولعل مجالس المحافظات هي ابسط مثال على ذلك، مجالس المحافظات تطرح ثقافة سياسية اجتماعية والترويج له، ولكن فجأة يتم الغاؤها والغاء تجربتها وتتحول مهامها الى رئيس الوزراء في تعيين المحافظ، وهذا ايضا فيه مشكلة في تطبيقات اللامركزية الادارية.

أما موضوع الفيدرالية فإن نجاح تجربة اقليم كردستان وللأسف الشديد يفترض ان تكون هي تجربة تكرر على مستوى الثقافة العربية الاسلامية العالمية، ولكن بمجرد ان تسمع تجربة فيدرالية ناجحة قد يعتقد البعض بأنها تجربة تقود للانفصال. الفيدرالية خياران: خيار للاستقلال وخيار للاتحاد، وانت كحكومة اذا قويت عناصر الاتحاد ستجد دولة عراقية تؤسس على نمط صحيح. أما اذا اقصيت الاخر فستجد هناك حتما نوازع للانفصال او الابتعاد عن المركز.

الدولة الحديثة والهوية الوطنية الجامعة

الثقافة الجديدة: اقترن تشكل الدول الحديثة ببزوغ الهوية الوطنية الجامعة لأبنائها. وبعيدا عن الولوج كثيرا في الجدل النظري والسياسي حول اولوية الدولة والهوية، فإن عددا غير قليل من الباحثين والكتاب ينطلقون من كون ثورة العشرين والاحداث التي رافقتها تعد الحدث المؤسس لبزوغ الهوية الوطنية العراقية. طبعا دون ان نتغافل بالتأكيد عن مساعي الملك فيصل الاول وقسم من فريقه.

وسواء في فترة نشوئها وتشكلها الاولى، ام في المرات اللاحقة، سعت النخب الحاكمة الى اعادة بناء الهوية الوطنية وهندستها،

وبالتالي نجد ان هذه الهوية دخلت صراعات متنوعة ومتعددة تركت اثآرها العميقة على ملامحها العامة. حيث انها باشرت على المستوى النظري والسياسي، نزاعا مفتوحا مع السرديات الكبرى السائدة: الدينية والمذهبية والقومية.

هل من تعليقات اضافية من قبلكم د.علي تساهم في اضاءة هذه القضايا؟

د.علي عباس مراد : ستكون مداخلتي عن موضوع الهوية، واستهلها بالقول إن من المستحيل إنكار المكانة والقيمة التاريخية لثورة العشرين في العراق الحديث، لكنني اعتقد أنها كانت تنطلق من منطلق هوية اسلامية تقاتل ضد محتل اجنبي غير مسلم، احتل البلاد وفرض ارادته عليها واسقط دولة الخلافة العثمانية، ولم تكن تنطلق من منطلق هوية وطنية عراقية، لأن العراق ككيان سياسي لم يكن تشكل وظهر الى الوجود حتى ذلك الحين، بل لعل تلك الثورة كانت أحد أسباب تشكله وظهوره فيما بعد

وبقدر تعلق الامر بموضوع الهوية فسأحاول مقاربته من مدخل تاريخي يلاحظ أن ما تُطلق عليه الان تسمية العراق لم يكن دولة مستقلة ومحددة ابتداء من تاريخ تشكيل دولة الخلافة الاسلامية ودخول العراق تحت مظلتها كإقليم إسلامي اعتبارا من عام 634م واستمرارا الى عام 1258م وهي حقبة طويلة امتدت 630 عاما، تواصلت حتى سقطت دولة الخلافة الاسلامية أمام الغزو المغولي للعراق والمنطقة بأسرها، ثم بدأت الحقبة التاريخية الثانية وامتدت من عام 1517 الى 1917 وهذه حقبة طويلة أخرى امتدت 400 عام كان الاقليم العراقي فيها تحت مظلة الخلافة العثمانية ذات الهوية الدينية الاسلامية. وعليه فان الهوية الوطنية العراقية لم تظهر ويبدأ الحديث عنها إلا بعد قيام الدولة الوطنية في العراق اعتبارا من عام 1921، وهي دولة كانت وما تزال تتعرض للكثير من الانتقادات التي اعتقد أن فيها الكثير من الظلم والتعسف، لان نشأة هذه الدولة وتوجهاتها وسياساتها، كانت محكومة بظروف داخلية وخارجية منعتها من تحقيق الكثير من الانجازات، ولا ينفي هذا معاناتها من أخطاء وإعاقات كثيرة بكثرة ما تعرضت له من الاتهامات بالولاء للآخر على الرغم من صعوبة العثور واقعيا على دولة ليست لديها ولاءات أو تحالفات، ومن ينكر ذلك عليه أن يتذكر أن الدولة العراقية ارتبطت بعد عام 2003 بتحالفات واتفاقات استراتيجية حتى مع دولة الاحتلال وهي حالة توجد أمثلة كثيرة معاصرة عليها في دول عديدة أخرى ترتبط كلها بهذه الدولة الكبرى أو تلك.

إن تجربة الهوية بالنسبة لنا نحن في العراق تبدو تجربة حديثة الى حد كبير، واذا كنا نحاول مقارنتها بتجربة بناء الهوية الوطنية في دول الغرب، فعلينا أن نتذكر أن

هذه الهوية لم تبن بمفهوم واضح للهوية ولا وعي كامل بهذه الهوية ولا ببرامج بناء لهذه الهوية، فقد بنت اوربا أولا السلطة أو السلطة السيدة كما يسميها المفكر الفرنسي "جان بودان"، وهذه السلطة عملت قرونا عديدة وابتداء من عام 1100م وحتى اليوم على بناء فكرتي الوطنية والمواطنة اللتين كانتا وما تزالان تمثلان الاساس فيها لبناء الهوية ولكن من دون ان يكون مفهوم الهوية مطروحا ولا ظاهرا للعيان بوضوح ودقة. ولم يبدأ طرح موضوح الهوية في الغرب عامة وفي الولايات المتحدة خاصة إلا في عقد الستينيات من القرن الماضي بداعي الاستجابةً لحركة الحقوق المدنية التي قادها القس الامريكي الافريقي "مارتن لوثر كنج"، التي استدعت التفكير في مسألة الهوية والهويات الفرعية والهوية الوطنية الامريكية، ثم بدأ المفكرون الغربيون يكتبون عنها وهم ينظرون الى دول العالم الثالث الحديثة النشأة بعد الحرب العالمية الاولى ثم الثانية باعتبارها دولا تحتاج الى بناء الهوية الوطنية فيها، ويعني هذا المنظور أن دول الغرب عندما كونت هوياتها الوطنية، لم تكونها بادراك مسبق وواضح ولا برامج مصممة ومخططة آنيا ومستقبليا لبناء الهوية، ولكن الانتماء للوطن والنظام السياسي وسلطته الواحدة والسيدة هو من كان يعمل على خلق هذا التكوين الهوياتي وتطويره وتعميقه وتوسيع نطاقه بشكل تدريجي.

الدولة الفرنسية على سبيل المثال، استمر فيها النظام الملكي منذ حوالي القرن الخامس للميلاد وحتى قيام الثورة الفرنسية عام 1789، وهذه هي الثورة الوحيدة التي حدثت فيها، نعم غيرت النظام فيها كليا وجذريا، لكنها بقيت محافظة على الشخصية الفرنسية، وحدث أمر مماثل في حالة بريطانيا ذات الكيان السياسي المستقل ابتداء من عام 650م تقريبا، ولم تحدث فيها إلا ثورة واحدة هي ثورة البروتستانت البيوريتان بين أعوام 1645-1649 واعدم فيها الملك تشارلز الاول، ثم عاد إليها النظام الملكي عام 1660م وما زال مستمرا حتى اليوم، واسبانيا دولة مستقرة ذات هوية مميزة منذ توحيدها عام 1512 حسب وزارة الخارجية الامريكية.. كل هذه الهويات المميزة والمبكرة ساعدت على نشوئها عوامل متعددة، وحدة الاقليم الاساس لفرنسا وانتماء سكانها الى المجموعة الغاليّة المنتمي إلى قبائل الفرانكو القادمة من شمال اوربا، وحدة الاقليم الاساس لانكلترا ومجموعة الانكلوسكسون المستقرة فيها، وحدة الاقليم الاسباني الاساس وانتماء سكانه إلى المجموعة الوندالية، هذه كلها كانت مجموعات اقوامية عرقية تمتلك كل واحدة منها هوية لغوية خاصة ما خلق لديها شعورا بالتميز والاختلاف عن المحيط الخارجي، لذلك دول فرنسا وبريطانيا واسبانيا، دول قديمة وهويتها ترسخت تدريجيا وتكونت تدريجيا مع بناء السلطة والانتقال من بناء السلطة ثم نزع الطابع الشخصي عنها وجعلها مؤسسة وهيئة اعتبارية ما حولها الى انظمة دولتية ذات هويات وطنية متميزة. وكانت آخر الدول التي تشكلت في اوربا ايطاليا وسبقتها المانيا التي بقيت ولايات مجزئة حتى تولى بسمارك رئاسة الوزراء فيها. ويمكن أن نستنتج من ذلك أن الهوية ليست معطى طبيعيا بل عملية صناعة وبناء، ونحن في العراق نحتاج الى بناء هوية وطنية جامعة وموحدة لاننا مكونات متعددة، ولكن

هذه الحاجة لم تظهر بهذه الحدّة والوضوح على سبيل المثال في مصر التي طالما كانت دولة مستقلة قائمة بذاتها، ساعدتها الحدود الصحراوية والحدود البحرية على أن تبقى محافظة على هويتها، وحتى عندما كانت تحت مظلة دول الخلافة واخرها الدولة العثمانية، بقيت مصر مستقلة وتشكلت فيها دولة مستمرة متواصلة الى اليوم اعتبارا من عام 1805م عندما اختارت الشخصيات المصرية الكبيرة محمد علي باشا ليكون الخديوي، وتستمر عائلته في الحكم حتى قيام الثورة عام 1952م، ولكن الحال مختلف في العراق ذي التكوين الاجتماعي المتعدد والمتنوع. الملك فيصل وحكومته والسياسيون الذين تعاونوا معه في محاولة بناء الهوية الوطنية العراقية، كان لديهم وعي بهذا الاختلاف وهذا التعدد والتنوع، لكن المشروع لم يكتمل وتعرض للتعطيل وتعرضت نتائجه للتدمير، ولعل السبب الاساس في ذلك معاناتنا من مشكلة (التناوب السياسي المتكرر)، إذ لم يستقر لدينا الحال في العراق منذ عام 1921م، أطول مدة بقي فيها حكم في العراق هو من 1921 الى 1958، كل البناء الذي تحقق في هذه المرحلة تعرض للتدمير اعتبارا من 1958، ولم تتواصل عملية اعادة البناء، وتكررت مرة اخرى عملية الهدم وإعادة البناء عام 1963، ولم تستمر وتكرر مرة اخرى الهدم وإعادة البناء بين أعوام 2003 - 1968، حيث تكررت مرة اخرى عملية الهدم ولكن دون ان يظهر حتى الآن مشروع محدد ولا حتى رغبة واضحة في إعادة البناء. وتسببت حالة عدم الاستقرار السياسي في العراق في تناوب صعود وهبوط الهويات الفرعية نتيجة الفشل في تذويب الجماعات الفرعية في بناء وطني واحد، كان يحتاج إلى وجود سلطة مستقرة ومستديمة متواصلة، وبرنامج سياسي حكومي واحد وواضح ومتواصل، ورؤية واحدة لنوعية الانتماء الهوياتي لمجموعات ذكرها الدكتور عامر، عندما قال نحن في بلد فيه عرب واكراد وتركمان ومجموعات قومية اخرى، وأضيف أننا بلد فيه مسلمون ومسيحيون وصابئة وايزيدية وشبك، وفيه سنة وشيعة يتوزع عليهم المسلمون العرب والكورد والتركمان. البناء السياسي والتأسيس الدستوري الجديد بعد 2003 لم يحاول أن يرفع هذه الهويات الفرعية الى مستوى المواطنة وانتماء المواطنة، بل فعل العكس واعادها الى مستوى المكونات، وهو ما دعمته وفعلته ظروف ضعف السلطة التي سمحت للمكونات بان تمتلك ارادات خاصة وقدرة على امتلاك السلاح الذي اصبح منفلتا. لذلك فإن مشروع بناء الهوية في العراق يجب ان يبدأ ببناء السلطة الواحدة التي تمتلك رؤية واحدة لوطن واحد وسياسة واحدة ومواطنة ذات منظور واحد، لكي تتمكن بعد ذلك من البدء بمشروع بناء الهوية الوطنية الواحدة الذي يحتاج الى عمل مشترك ومنسق بين مؤسستين مهمتين هما (المؤسسة التربوية والمؤسسة الاعلامية) اللتان تعانيان اليوم في العراق مشكلة أن كل واحدة تعزف نغما مختلفا عن الذي تعزفه المؤسسة الاخرى، فالمؤسسة التربوية لا تعرف حتى الآن ماذا تريد، عراق مواطنة ؟ أم عراق مكونات؟ والمؤسسات الاعلامية بفضل الوسائل الحديثة وكثرة القنوات كل واحدة منها تروج هوية من نوع مختلف والناس الذين يبحثون أولا واساسا عن الامن والرزق، يلجأون

إلى الهوية التي توفر لهم ذلك عندما تعجز الهوية الوطنية عن توفيره، واعتقد انهم محقون في ذلك، وهذه هي الفكرة التي استقر عليها رأي فقهاء السياسة الغربيين الكبار والقائلة إن الناس يدخلون مع بعضهم في عقد اجتماعي هدفه انشاء سلطة تحقق للإنسان الامن على حياته وعلى ممتلكاته وتوفر له أسباب الرزق، فاذا لم تكن هناك هذه السلطة فأنك تبحث عمن يحميك وتنتمي الى هويته، لذلك الآن المشكلة قبل الهوية تكمن في بناء السلطة ونزع الهوية الشخصية والمكوناتية عنها والتوجه نحو المواطنة التي تبنى عليها الهوية تدريجيا.

العلاقة بين الاستقرار السياسي وبناء دولة المؤسسات والوضع الدستوري والقانوني

الثقافة الجديدة: طوال العقود المنصرمة منذ تأسيس الدولة العراقية الحديثة، ومنذ صدور (القانون الاساسي) عام 1925، ارتبط الوضع الدستوري والقانوني وبناء دولة المؤسسات بالاستقرار السياسي في البلاد.

من جهة، تشكلت الدولة العراقية الحديثة ظاهريا وفق السياقات الدستورية الحديثة، لكن الواقع يتناقض مع ذلك تماما خصوصا في العهود الجمهورية المختلفة. خصوصا في قضية تقاسم السلطات.

د. علي: برأيك ما هي اسباب ارتباك العلاقة بين السلطة والقانون في العراق؟ هل هي ازمة تأسيس ام مشاكل متعلقة بالممارسة السياسية وصراعات المصالح؟

د. علي مهدي: شكلت الدول الحديثة القائمة وفق الدساتير المكتوبة التي نظمت

عمل توزيع السلطات وكذلك الحقوق والحريات للمواطنين وهذه الدول الحديثة هي نتاج الثورة الفرنسية عام 1989، التي هي تعبير عن تطلع البرجوازية لانتزاع السلطة من الطبقة الاقطاعية وتحرير الفلاحين من الارض للحاجة الماسة لهم كمواطنين احرار في المعامل والمصانع التي انتشرت في العديد من المدن بعد الاطاحة بالملكيات المطلقة ووضع اللبنات للدولة الحديثة التي اعتمدت السيادة للشعب والديمقراطية اساسا للحكم وقد كان ذلك بفضل عدد من رجالات الفكر في اشاعة التنوير والحداثة باعتماد نظرية العقد الاجتماعي بين الحكام والمحكومين وكذلك مبادئ الفصل بين السلطات وعدم تركيزها بيد سلطة واحدة أكانت هيئة أم شخصا، لان وحسب تعبير احدهم ان السلطة مفسدة اذا لم تراقبها سلطة اخرى ويمكن تلخيص مواقف هؤلاء المفكرين بالمبدأ الاتي، ان لا سيادة بدون نظام نيابي ولا ديمقراطية بدون فصل بين السلطات.

وان الفصل بين السلطات يعني تقسيم السلطة في الدولة الى ثلاث تشريعية وتنفيذية

وقضائية، وان الدستور المكتوب ينظم العلاقة بين هذه السلطات ويحدد صلاحيات كل منها، بما لا يدع تجاوز أي سلطة لحدود السلطات الاخرى وعدم جواز احتواء أي سلطة السلطات الأخرى، وأن الفصل بين السلطات حماية للحرية ومنع للاستبداد، لأن مبدأ الفصل بين السلطات محاربة للاستبداد والسلطات المطلقة، وفيه ضمان حقوق الأفراد والحريات، أن تركيز السلطات في هيئة واحدة يؤدي بلا جدال الى الاستبداد وتوزيعه الى هيئات متعددة، وهذا يحول دون الاستبداد، فالسلطة توقف السلطة عن طريق ما تملكه كل منها ازاء الاخرى من وسائل رقابية.

وعلى اساس هذه السلطات يتم تحديد معالم اي نظام نيابي، فإذا كان الفصل مطلقا ورجحان كفة السلطة التنفيذية على حساب السلطة التشريعية اعتبر هذا النظام رئاسيا، وإذا كان الفصل بين السلطات يتسم بالتوازن والتعاون والرقابة المتبادلة كان هذا النظام برلمانيا، وان حجر الزاوية في أي نظام برلماني هو سحب الثقة من الوزارة من قبل البرلمان والوزارة لها قدرة على حل البرلمان، ودائما تكون صلاحيات رئيس الدولة محدودة والسلطة الحقيقية بيد الوزارة، وعلى هذا الاساس تم تشكيل أغلب النظم السياسية في العالم التي بلغت شعوبها مرحلة معينة من التطور الاجتماعي والاقتصادي حيث سادت العلاقات الرأسمالية والقيم الليبرالية ودائما النظم الديمقراطية الناجحة هي التي تحقق مردودا اقتصاديا جيدا وهي التي تحاول تنمية الثروات بين الشعب، وتحاول أن تزيد من الفائض الاقتصادي الذي من الممكن ان تكون الحصة الكبيرة للطبقة الرأسمالية لكن بالتأكيد الطبقات الاخرى ستستفيد منه، وبذلك يستمر النظام ويستفيد اغلب الأفراد.

لقد اعتمدت الدول المنتصرة في الحرب العالمية الأولى سياسة الانتداب وادارة شؤون أراضي الدولة العثمانية بعد تقسيمها الى عدد من الدول، وفق معاهدة سايكس بيكو، وقد كان العراق احدى هذه الدول، الذي وقع تحت الانتداب البريطاني بقرار مؤتمر الحلفاء في نيسان 1921 في سان ريمو، وفي ذلك الوقت يتسم العراق بالاقتصاد الزراعي وتركيب اجتماعي اقطاعي وبرجوازية تجارية مصرفية ولا تحتل قاعدة اجتماعية اصيلة.

حاولت بريطانيا ان تنقل نظامها البرلماني الى العراق، و لها الدور الكبير في صياغة القانون الأساسي اي الدستور عام 1925، وإدراج بعض الصياغات التي أخلت بمضمون النظام البرلماني وهذا ما عرضه للفشل الأكيد.

ومن الجدير بالذكر عاش العراقيون في ظل الدولة العثمانية في سنواتها الأخيرة أجواء النظام الدستوري المقيد الذي تم إقراره في سنة 1876، والعمل به سنة وخمسة اشهر، وتم تعليقه من قبل السلطان عبد الحميد، وبعد الانقلاب العسكري في تموز 1908، تم اجبار السلطان عبد الحميد على إعادة العمل بموجب الدستور المعلق، وقد شارك العراقيون في انتخابات سنتي 1908 و 1912، وكانت حصتهم 18 مقعدا في (مجلس المبعوثان) أي مجلس النواب، بما معنى النظام البرلماني الذي جاء به الانكليز هو ليس بجديد على العراقيين، انما كانت هناك ممارسات محدودة في هذا الجانب.

إن دستور 1925 وزع الهيئات الى ثلاث

جهات ، رئيس الدولة والوزارة والبرلمان، لكن المشكلة الكبيرة في القانون الاساسي هي ان اغلب الصلاحيات الكبيرة كانت بيد رئيس الدولة وهو الملك. كان الانكليز يريدون مسخ النظام البرلماني واعطاء صلاحيات كبيرة لرئيس الدولة ورغبتهم ان يكون الملك اداة طيعة بيدهم حتى يفرضون الاجندة التي يحتاجون لها داخل مملكة العراق في ذلك الوقت، فكان رئيس الدولة هو من يختار رئيس الوزراء والوزراء وتعيينهم بغض النظر عن طبيعة ترتيب مجلس النواب، كما نعرف جميعا ان طبيعة النظم البرلمانية، يتم اختيار الذي يمثل الأكثرية عند اختيارهم لرئيس الوزراء، وايضا شيء اخر يتميز به البرلمان العراقي، وهو إقالة رئيس الوزراء من قبل الملك. هذه الإقالة لم تكن موجودة في القانون الأساسي عند إقراره سنة 1925 وتمت إضافتها في سنة 1943، بعد رفض رئيس الوزراء رشيد على الكيلاني، بعد طلب من رئيس الدولة، وتم إدراج هذا التعديل الدستوري بحيث اصبح رئيس الدولة الملك هو من يقيل رئيس الوزراء، وهذا الامر خارج عن اطر النظم البرلمانية عموما، ايضا الملك كان هو من يتحكم بقرارات مجلس الوزراء، هذه القرارات يجب ان تخضع لمصادقته، وحتى مشاريع القرارات التي يحاول مجلس الوزراء ارسالها الى مجلس الامة دائما يجب ان يصادق عليها الملك، ولهذا تشعر ان الوزارة بشكل كامل تابعة الى الملك، فلهذا من الصعب ان نقول لدينا النظام البرلماني الذي يتكون من ركنين أساسيين وهما: العلاقة المتبادلة بين السلطتين التشريعية والتنفيذية، والركن الآخر وجود ثنائية السلطة من رئيس الدولة والوزارة.

بخصوص صلاحيات الملك التشريعية، فرئيس الدولة وفق دستور 1925 لديه صلاحية تعيين كل أعضاء مجلس الأعيان الذي هو الغرفة الثانية لمجلس الأمة، وهذا يشكل اختلالا كبيرا في المجلس التشريعي، وايضا كان للملك صلاحية في التصديق على كل مشروعات القوانين التي يصادق عليها مجلس الامة، ولهذا ان الملك هو المشرع الكبير في فترة دستور 1925، وأيضا كان له حق الاعتراض على القانون، وهذه صلاحية إضافية الى رئيس الدولة، وكذلك له حق حل مجلس النواب.

شيء اخر مهم في هذا النظام البرلماني الذي يسميه البعض (البرلمانية الهاشمية) هو اصدار المراسيم بموافقة مجلس الوزراء، دائما كل النظم البرلمانية ليس من حق رئيس الدولة او حتى الوزارة أن تصدر قرارات او مراسيم بقوة القانون، لكن كان ذلك في النظام الملكي الذي تم تشكيله في سنة 1930 في فرنسا، ومن ثم تمت استعارته إلى دستور فايمر لسنة 1919 في ألمانيا، وبعدها أخذها النظام المصري عند قيادة جمال عبد الناصر في تجربته البرلمانية، والدستور الفرنسي لسنة 1958 في فترة ديغول، التي تقتضي للسلطة التنفيذية عند حالة الضرورة أن يصدر قرارات او مراسيم بقوة القانون على حساب السلطة التشريعية المعنية في الأصل بإصدار القوانين، وهذا اختلال كبير، مع العلم ان مدة انعقاد مجلس النواب أربعة أشهر وممكن أن تمدد إلى ستة أشهر في السنة، ودائما اغلب القوانين التي تصدر في فترة النظام الملكي تصدر من خلال الملك، ولهذا هناك اختلال كبير في هذا الجانب، مع العلم ان لدينا في النظام الملكي 16 مجلسا

نيابيا منتخبا، وان مجلسا واحدا فقط اكمل دورته، وكان لدينا في تلك الفترة تقريبا 53 وزارة خلال مدة 33 سنة، ومر علينا اربع رؤساء دولة وكان لدينا انقلاب عسكري وكان لدينا ثورة مايس لسنة 1941، وأيضا كان لدينا الحركة المسلحة في منطقة برزان لسنة 1943.

أنا سأجيب على سؤالكم هل كان هناك استقرار؟ لا لم يكن هناك استقرار، لكن يمكننا ان نقول بدأت تتشكل بصمات الدولة العراقية من خلال هذا البناء منذ 1921 حتى 1958، بدأت تتشكل ملامح الدولة العراقية والهوية العراقية، لكن اهم ما يعيب عليها من ناحية تقسيم السلطات هو اختلال التوازن ما بين السلطات لصالح الملك على حساب الوزارة، وعلى حساب مجلس النواب، ايضا الوزارة لم تكن تحتل مركز الثقل في النظام البرلماني في العهد الملكي، وان من المعروف أن حجر الزاوية في كل النظم البرلمانية هو التوازن ما بين الوزارة والبرلمان، عموما كان هناك نظام برلماني من الجانب النظري، ورغم هذه المآخذ عليه لكن عمليا لم يكن نظاما برلمانيا بحكم التدخل الكبير من قبل رئيس الدولة الذي جمع السلطات التشريعية والتنفيذية بيده، وهذا يعود الى اسباب الظروف السياسية التي عاشها العراق من سيطرة أجنبية. الكثير من قرارات الملك هي من ضغوطات المستعمر في ذلك الوقت، حيث الملك لم يكن حرا في هذا الجانب والسيادة كانت ناقصة وكذلك بالنسبة للممارسات الدستورية، فضلا عن انه لم تتَح فرصة جيدة ومناسبة لإقامة أحزاب سياسية تقوم على أسس ديمقراطية، لكن رغم كل هذه المآخذ، تشكلت اسس لنظام ليبرالي اذا ما استمر هذا الجانب واذا ما استمرت العملية بشكلها الطبيعي. لكن عموما حدثت الانتكاسة الكبيرة في الفصل بين السلطات وتقسيم السلطات، في عهد الجمهوريات، دستور 58 ودستور 63 ودستور 64 ودستور 68 ودستور 70، حيث ان ما جمع هذه الدساتير مع بعض هو تركيز السلطات بيد مجلس الوزراء او القائد العام للقوات المسلحة الذي كان هو عبد الكريم قاسم، او كان المجلس الوطني لقيادة الثورة ما بعد 8 شباط 1963، او كان رئيس الجمهورية مع الوزارة والتي كانت بيد رئيس الجمهورية وفق دستور 1964، او في دستوري 1968، 1970 حيث كانت كل السلطات عمليا بيد مجلس قيادة الثورة والتي تحولت في النهاية الى دولة ذات طابع شخصي بيد رئيس الدولة في ذلك الوقت.

والحق يقال كانت هناك دعوات حقيقية من قبل البعض في قضية تركيز السلطات من قبل الأحزاب والقوى والشخصيات للحد من الحكم الفردي بالأخص في سنة 1958، كانت الدعوة لانتخابات جمعية تأسيسية لتشريع دستور وكان من أهم الشخصيات في هذا الجانب هو الفقيه الدستوري الدكتور عبد الله البستاني في كتابه "مساهمة في إعداد الدستور وقانون الانتخاب"، والذي كتبه عندما كان في السجن وكان يدعو إلى دستور برلماني على وفق الدستور الفرنسي لسنة 1946، والدستور السوري لسنة 1950، كان يتجلى في النظام البرلماني التقليدي، لكن مع الاسف هذه الاوضاع لم تكن مشجعة في هذا الجانب، ودخلنا في فترة تركيز السلطات التي كانت على حساب ضعف المستوى الثقافي واضمحلال الثقافة الدستورية، وعدم توزيع السلطات ما بين هياكل الدولة، فكان الثمن

غاليا، وانا اعتقد تجلياتها ماثلة حتى الآن، القسم يقول قضية الاذلال وقضية الفشل. انا اعتقد ان احد اسبابها الاساسية هو فترة تركيز السلطة بالرغم من بعض النجاحات ذات الطابع الاجتماعي لكن بدون وجود تقسيم للسلطة، هذه الانجازات الاجتماعية سرعان ما تُفقد. وانا اعتقد كل الانجازات التي تحققت من ثورة 1985 وما بعد عام 1970 عندما ارتفعت أسعار النفط كل هذا اختفى، لأننا لم تكن لدينا تقسيم للسلطات، سلطات تدافع عمّا تم تحقيقه عموما.

بعد الاحتلال كان هناك الكثير من المفكرين والكتاب، يعتقد ان احد أسباب فترة تحول الجمهوريات إلى شكل من أشكال الديكتاتورية والاستبداد، يكمن في تركيز السلطة، فكانت الفكرة المطروحة في عملية تفتيت للسلطة، توزيع للسلطة على مستويين، التوزيع الأول هو تحويل الدولة العراقية من دولة بسيطة الى دولة اتحادية، ويكون تشكيل العراق من عاصمة وأقاليم ومحافظات لا مركزية وادارة محلية، أثبتت الحياة انه كلما تكون الدولة مركزية تكون هناك ارضية مناسبة لنشوء الاستبداد والدكتاتورية. الشيء الآخر هو تقسيم السلطات الى ثلاث، السلطة التشريعية والتنفيذية والقضائية تمارس اختصاصاتها ومهماتها على أساس الفصل ما بين السلطات، مع الاسف الدستور العراقي لم يدرج قضية الرقابة المتبادلة في ما بينهما، لدينا فصل بين السلطات يسمى الفصل الجامد والفصل المرن. الجامد وهو الموجود الآن في الولايات المتحدة الامريكية في النظم الرئاسية، والفصل المرن هو الذي يعتمد العلاقة المرنة والتعاون المتبادل ما بين السلطة التشريعية والسلطة التنفيذية، دستور 2005 وزع السلطات الى رئيس الجمهورية والوزارة ومجلس النواب. رئيس الجمهورية، كأي نظام برلماني وفقا للأسس التقليدية كان قادرا على ان يحد من السلطات المعتاد عليها لبعض الانظمة ذات الطابع الشكلي، لكن لديه سلطات تشريعية لها حق ان تقدم مشروع قانون. رئيس الوزراء لديه حرية الاختيار ما لم يكن هناك ممثل كتلة اكبر، حتى هناك اتهامات من قبل فقهاء الدستور في العراق يعتبرون بعض السلطات لرئيس الجمهورية هو بمثابة نظام رئاسي. انا اعتقد ان هناك مبالغة بذلك، لكن المشرع الدستوري العراقي راعى الديمقراطية التوافقية في العراق، راعى وجود ثلاثة مكونات اساسية في الشعب العراقي، فأعطى كل مكون رئاسة هيئة من خلال اتفاق غير مكتوب، وهذا خروج عن اسس النظام البرلماني التقليدي. الشيء الجيد ان رئيس الجمهورية ينتخب من البرلمان وليس من الشعب الذي يتناسب مع صلاحياته المحدودة، لدينا الوزارة تمتلك صلاحيات كثيرة، وهي المسؤولة عن إدارة شؤون الدولة في هذا الجانب، وهذا نفس السياقات الموجودة في النظم البرلمانية، لكن المشكلة في صلاحية الوزارة تجاه مجلس النواب، وهي احدى سلبيات النظام البرلماني الآن في العراق ونظام التوازن بين السلطات في العراق. وهذا اختلال ايضا، كما كان في النظام الملكي كان الاختلال لصالح رئيس الدولة على حساب الوزارة ومجلس النواب. في هذا الدستور الاختلال لصالح مجلس النواب على حساب الوزارة. لدينا الآن في العراق، من حق مجلس النواب ان يسحب الثقة من الوزارة لكن ليس من حق الوزارة ان تُحل مجلس النواب، وهذا خلل

كبير في النظام البرلماني العراقي، حتى ان قسما من الفقهاء يعتبرون النظام البرلماني هو اقرب الى النظام المجلسي، والنظام المجلسي هو يكون تركيز للسلطات لصالح مجلس النواب، وان الوزارة وليدة مجلس النواب، وليس لها وجود اعتباري. الاختلال في النظام البرلماني في العراق هو الميل الكبير لمجلس النواب على حساب الوزارة، ومع الاسف المشرع العراقي اعطى مجلس النواب صلاحيات غير موجودة في النظم البرلمانية المعتاد عليها.

أما بخصوص القضاء فمنذ تشكيل الدولة العراقية في سنة 1921، هو تابع للسلطة التنفيذية حتى 2003 ، لذا اعتقد الان بعد 80 سنة، ونطالب بسلطة قضائية مستقلة بمعنى الكلمة اعتقد أن ذلك، يحتاج إلى وقت مناسب، وحتى في التكوين النفسي للقاضي بعد هذه المدة الطويلة، يعتبر نفسه تابعا إلى الآن للوزارة، لأنها هي من كانت، تقوم بتعيينه وهي من تقوم بنقله وهي من تحيله على التقاعد وهي تعاقبه، الآن الوضع اختلف وذلك يحتاج الى صيرورة ويحتاج الى تراكم لنكون بالفعل لدينا سلطة قضائية.

عموما وبشكل عام هذه هي معالم تقسيم السلطة من النظام الملكي حتى الوقت الحاضر، هل تشكيل هذه الدولة كان باستعاضة؟ انا اعتقد الخلل ليس بالتشكيل كل دول العالم وخاصة دول العالم الثالث، كانت نتاج الحروب ونتاج توزيع الأراضي ما بين الدول الفائزة، اعتقد بمرور الزمن، هذه الدولة اكتسبت شخصيتها المعنوية وحاولت تجاوز المستعمر، وانا كما أظن أن انقلاب بكر صدقي سنة 1936 كان واضحا وثورة مايس لسنة 1941 كانت واضحة، صحيح لدينا استعمار لكن بنفس الوقت الروح الوطنية موجودة، كما ذكرها الدكتور علي، أنا اعتقد تشكلت، وان ثورة مايس إضافة إلى ثورة العشرين هي بمثابة تعبير عن تشكيل الهوية العراقية، وان ثورة مايس بغض النظر عن مآلاتها هي تعبير عن هوية عراقية أمام المستعمر الموجود، وثورة 14 تموز 1958 والجماهير التي خرجت للترحيب بها، هذا ايضا تعبير عن الهوية، أول ثورة من زاخو إلى الفاو كان كل الشعب فرحا بها لكن مآلها شيء آخر، وأعتقد أن أحد أسباب النتائج غير المرجوة هو الخلل في تقسيم السلطات في الدولة.

خصائص واشتراطات بناء الدولة الحديثة في دول الاطراف

الثقافة الجديدة: إن المقاربات والآراء السابقة حول الديمقراطية والهوية الوطنية وشكل الدولة وعلاقة السلطة بالقانون والدستور وايضا وعلاقة المجتمع المدني بالمجتمع السياسي بحاجة الى تأطير نظري اجتماعي اقتصادي.

فخصائص واشتراطات بناء الدولة الحديثة في دول الاطراف تختلف عن تلك التي توفرت عند تشكلها في بلدان المركز الرأسمالية. فالمضامين الاجتماعية للدولة تختلف فيما بينها وذلك عبر مراحل التشكل والتطور. كما ان علاقة التشكل التي تربط الدولة بالمجتمع تكون في الكثير من الاحيان عكسية. ومن جهة ثانية نجد ان المجتمع المدني كان وما يزال يعاني ضعفا مزمنا، خصوصا لجهة عدم قدرته على فك ارتباطاته بالمجتمع السياسي.

بناءً على ما تقدم، ترى ما هي اهم خصائص وظروف بناء وتشكل الدولة العراقية عبر الفترات والمراحل المختلفة سواء في 1921 او 1958 او 1968 او بعد 2003؟ وكيف تغيرت المضامين الاجتماعية للدول عبر هذه المراحل المختلفة؟

الاستاذ رائد فهمي: في حال دول الأطراف والدولة الحديثة التي انشأتها الدول الكولونيالية، كبريطانيا، في البلدان الخاضعة لسيطرتها، هناك عدم توافق ما بين البناء الفوقي، الذي تعتبر الدولة والمنظومة القانونية جزءا منه، والبناء التحتي المتمثل بمستوى التطور الاقتصادي وأنماط الإنتاج السائدة والعلاقات الاجتماعية المرتبطة بها. والمقصود بعدم التوافق البنيوي، ان الدولة الحديثة في العراق التي تم تأسيسها عام 1921، لا ينسجم شكلها أساسا مع الواقع الاجتماعي والاقتصادي للعراق حينئذ، ولا مع الثقافة السائدة ومنظومتها القيمية والمعرفية.

فإذا اردنا ان نتعمق نقول ان شكل الدولة هذا هو امتداد للقاعدة المادية الموجودة في البلدان الغربية المتقدمة وخصوصا في بريطانيا. بمعنى هناك شكل للدولة وبنائها القانوني والمؤسسي الحديث الذي انبثق وتطور من رحم النظام الرأسمالي المتقدم كما في بريطانيا، تم اعتماده في تأسيس وبناء دولة الأطراف كالعراق. لذا يوجد نوع من الانفصام منذ التأسيس ما بين المجتمع والدولة، إذ لم تنبثق الدولة من رحم المجتمع العراقي وتوازنات قواه الاجتماعية حينذاك. فالدولة الحديثة في العراق هي من حيث الشكل والبناء هي نتاج تطور الرأسمالية في اوروبا وامريكا وغيرها من البلدان الرأسمالية المتطورة، وقد مهد لنشوء هذه الدولة بصيغتها الدستورية الديمقراطية ومنظومتها القانونية والإدارية، تطور الرأسمالية وهيمنة علاقاتها وتفكك وزوال أنماط الإنتاج ما قبل الرأسمالية، وتحرر الفرد من ارتباطه بمالك الأرض في ظل نظامي القنانة والاقطاع، وبالتالي الاستقلال عن كل المعوقات التي تفرضها العلاقات ما قبل الرأسمالية على حرية الفرد وقراره. فمع تطور الرأسمالية تحرر الفرد تدريجيا من كل القيود والانتماءات الاخرى المقيدة لحريته، كالتي تفرضها العلاقات الاجتماعية للأنظمة ما قبل الرأسمالية التي تخضع فيها إرادة الفرد للإرادة الجمعية للجماعة كالطائفة أو العشيرة. وبهذا المعنى يكون الفرد حرا.

ومن جانب آخر، تتمتع الدولة في النظام الرأسمالي المتطور بدرجة من الاستقلالية النسبية، لأن مسؤوليتها ومهمتها تكمن في المطاف الأخير في حماية المصالح الطبقية للرأسمالية وتنظيم العلاقة ما بين القوى والتكتلات والمصالح في اطار طبقة الرأسماليين أنفسهم وما بينهم وبين القوى المجتمعية الأخرى.

فالدولة الحديثة تفترض إذن وجود فرد حر متحرر من القيود الاجتماعية للعلاقات ما قبل الرأسمالية، قادر على أن يقرر خياراته بحرية. ويمكن القول بكل موضوعية أن هذه الشروط لم تكن متوفرة منذ مئة عام، وحتى هذا اليوم لم تتوفر كليا.

ولأجل تحديد دور الدولة الاقتصادي والاجتماعي والفئات والشرائح الاجتماعية التي تصب سياساتها في خدمتها، إضافة إلى القوى والشخصيات والجماعات التي استحوذت على المواقع في الدولة، علينا تتبع مساره في الدولة العراقية الحديثة ومضامين سياساتها وأيضا عن أسباب عدم نجاحها في تحقيق الاستقرار.

المرحوم د. فالح عبد الجبار يشير في معرض تحليله لعمليتي بناء الدولة والأمة في العراق إلى مقولة "العراق دولة تبحث عن أمة". بمعنى ان المجتمع العراقي مجتمع يتألف من تشكيلات مختلفة اجتماعية واقتصادية، ومن قوميات وطوائف عديدة جدا، وجماعات ثقافية متنوعة، ولا توجد جماعة من الجماعات لها من القوة والتأثير لكي تهيمن وتبسط سيطرتها ونفوذها على الآخرين، بحيث تنعكس هذه المصالح وهذا النفوذ في بناء الدولة. كما حدث مع هيمنة طبقة الرأسماليين في تطور البلدان الرأسمالية المتقدمة، وبالتالي تحايثت وتعايشت الأنماط الإنتاجية الاجتماعية الاقتصادية ما قبل الرأسمالية مع الرأسمالية الجنينية الناشئة وشكل دولتها المتقدم، الذي فرض من الخارج في ظل موازين قوى سياسية واجتماعية متغيرة.

فعلى الدولة التي تنشأ في مثل هذه الأوضاع وذات قاعدة اجتماعية هشة وغير منسجمة، ادارة الصراعات ما بين الفئات والجماعات المختلفة، التقليدية منها والحديثة، ومحاولة ضبطها والتنسيق فيما بينها وتأمين شكل من الاشكال التوازن في مراعاة مصالح كل منها، وهو شرط ضروري لإدامة الدولة.

ما الذي يميز الدولة الطرفية عن الدولة في البلدان الرأسمالية المتطورة؟

هناك فروقات ما بين الدولة الطرفية وما بين الدولة الرأسمالية او الدولة البرجوازية المستقرة. فالدولة في ظل الأنظمة الرأسمالية المتطورة، كانت، وما تزال، تدير صراعات ما بين مجاميع رأسمالية وما بين اقطاب ومصالح مختلفة، إلاّ أنه توجد طبقة برجوازية مهيمنة قادرة على ان توفر قاعدة اجتماعية راسخة للدولة، ماديا وفكريا وثقافيا تمكنها من صياغة مصالحها ببنية ثقافية، تبدو وكأن مصالحها هي مصالح المجتمع كله. وهذا ما نعيشه اليوم، اليوم عندما نتحدث عن الدولة، لا نحددها بكونها الدولة التي تعتبر في جوهرها جزءا من البناء الفوقي لبنية المجتمع الذي يسود فيه نمط الإنتاج الرأسمالي، انما نصفها ونتحدث عنها كالشكل المطلق للدولة. ويسري ذلك على الكثير من المفاهيم، ولا سيما في الاقتصاد، وكأنها مفاهيم علمية مطلقة ذات مضامين غير محددة أو مشروطة تاريخيا.

وفي الدولة العراقية الحديثة، التي يمكن اعتبارها دولة طرفية، تختلف طريقة الترابط ما بين الدولة وما بين التكوينات والجماعات الاجتماعية؛ إذ تتخذ العلاقة أو الرابطة شكل تمفصل ما بين الدولة

وهذه التكوينات، وهذا يعني بالملموس، أن على الدولة كي تبني لنفسها قاعدة اجتماعية تحقق لها الاستقرار، والمقصود الدولة العراقية التي شرعت بتأسيسها قوة الاحتلال البريطانية، ان تقيم روابط بملاك الأراضي، وبشريحة المهنيين وبالضباط الشرفيين وبالعشائر وبفئات التجار، ويجب ان تكون لديها امتدادات وروابط مع كل هذه المكونات الاجتماعية والاقتصادية في البلد. وخلافا لما حصل تاريخيا في البلدان الرأسمالية المتطورة، فإن نمو وتطور عملية بناء الدولة لا يتم بطريقة عضوية بحيث تؤدي بالتدريج إلى تفكيك وتحطيم العلاقات ما قبل الرأسمالية، ويتحقق تجانس على الصعيد الاقتصادي والاجتماعي، ينعكس على بنية الدولة، ففي العراق، وفي العديد من البلدان النامية، فإن نمو وتطور الرأسمالية الوطنية لا يتم عبر التفكيك التام للعلاقات ما قبل الرأسمالية، وإنما عبر اندماج عناصر من التشكيلات ما قبل الرأسمالية في بنيتها، لذا لا توجد رأسمالية وطنية ذات بنية نقية مستقلة تماما عن البنى ما قبل الرأسمالية. ولذلك نرى ان جميعها تتعايش من دون اقصاء والغاء وتفكيك تام لتلك العلاقات، فتبقى تسير سويةً وتؤثر على طبيعة البنية التحتية غير المتجانسة للمجتمع وعلى الصراعات المستديمة، ولا يفضي مسار التطور إلى تشكل اي قاعدة متجانسة لبناء فوقي مستقر.

وعندما نتحدث عن بناء الديمقراطية بكامل شروطها ومواصفاتها، ونشير الى ان الديمقراطية مشروطة بتطور مجتمع مدني قابل ان يكون الحاضنة لهذا المشروع، وأن يكون هناك فصل بين المجتمع السياسي والمجتمع المدني، فإن كل هذه المفاهيم تحتاج لتحديد أدق عندما نسقطها على مجتمع مثل المجتمع العراقي. ففي مجتمعنا لا تزال عناصر تشكل البنية الطبقية غير مكتملة، فهناك جماعات وفئات تنمو وتتطور لكنها لم ترتق بعد لتصبح طبقة من حيث استقرار مصالحها وتبلور وعي طبقي وإنما هي ما تزال في حالة صيرورة، كما توجد حالة صراع ومساومات وتنازعات ما بين هذه الفئات، بالتالي يمكن القول أن لدينا نواتات للمجتمع المدني في الحواضر، ولا يزال المجتمع الاهلي اقوى من المجتمع المدني، ولا نملك حاليا آلية او سيرورة تطور داخلي، تضمن لنا ان هذا المجتمع المدني سيتعزز.

ومن القضايا المهمة لفهم تطور الدولة واشكالياتها في العراق، أن سيرورة تطور هذه الدولة لم يصاحبها تطور تراكمي يفضي إلى تعزيز العلاقات الرأسمالية والقضاء على العلاقات ما قبل الرأسمالية على الصعد الاجتماعية والاقتصادية والمؤسسية، ما ترتب عليه وجود حالة مشوهة وهجينة لطبيعة النظام الاقتصادي والاجتماعي السائد. فان بناء الدولة عملية تاريخية محفوفة بالصراعات. وبالتالي فإن التطور الذي يذهب باتجاه بناء الامة وتعزيز بناء الدولة، لا يأتي بالمطاف الأخير إلاّ عبر مصالح وليس مجرد توفر قناعات فكرية، أي قوى اجتماعية وسياسية تجد مصلحتها منسجمة مع عملية بناء الدولة.

لكننا نلاحظ اليوم أن الكثير من القوى النافذة اجتماعيا وسياسيا ليس لها مصلحة في ان تكون الدولة موحدة او في بناء دولة مؤسسات، ولا حتى في تحقيق التوازن بين

السلطات، ومثل ذلك عدم تشريع قانون المجلس الاتحادي. اذن علينا ان ننظر ونتساءل ما هي شروط حسم هذه الصراعات نحو بناء هذه الدولة، دولة المواطنة، الدولة المدنية، الدولة الديمقراطية؟ ومن هي القوى الاجتماعية والسياسية المعبرة عنها والتي قادرة لاحقا على ان توفر القاعدة المادية والحامل لهذا المشروع؟ واذا كانت هذه القوى موجودة فما هي شروط فاعليتها؟ ننتقل الى الحيز السياسي: لماذا يدور الان صراع كبير على الدولة؟ ففي هذه البلدان يمكن القول أن الدولة تصوغ المجتمع وليس العكس.

فعندما بدأ بناء الدولة وتنصيب الملك فيصل، شرع وحكومته والمستشارون البريطانيون بتشكيل مؤسسات الدولة بالارتباط مع بناء قاعدة اجتماعية لها. ولأجل ذلك، جرى توظيف وتوجيه سياسات الدولة والتحكم بالموارد المتأتية من الضرائب والرسوم والاعانات في البداية، ولاحقا العوائد النفطية لترجيح نمو وتطور هذه الشريحة الاجتماعية أو هذه الفئة او تلك، هذه المنطقة أو تلك. ويشير ذلك الى أن النمو والتطور الاقتصادي لا يتم بشكل أساس وفق محركات وعمليات اقتصادية ذاتية بمعزل عن الدولة. ونظرا لكون الدولة اكبر فاعل اجتماعي واقتصادي في هذه البلدان، فلا يمكن الحديث عن تطور رأسمالية ولا عن تحقيق نمو اقتصادي بدون دور الدولة. اي ان الدولة في البلدان الطرفية بشكل عام تكون موضوعيا وبنيويا فاعلا مقررا على صعيد دورها الاقتصادي والاجتماعي، اضافة الى دورها السياسي. تأسيسا على ذلك، يبدو الحديث في ظروف العراق، عن الدولة الراعية والدولة الحارسة وابعادها عن التدخل في الاقتصاد كلاما مقطوعا عن الواقع. فالدولة يمكن ان تخرج من بعض المفاصل الاقتصادية، لكن لا يمكن بنيويا الاستعاضة عن الدولة لعدم وجود رأسمالية وطنية قادرة على ذلك، بل نشهد على العكس أن كل الفئات والشرائح الاجتماعية تتوجه إلى الدولة للحصول على الدعم.

وعند مراجعة سياسات الدولة في مختلف الفترات التاريخية، نستطيع تحديد الفئات والجماعات والقوى الاجتماعية المستفيدة منها بالنسبة الأعلى. ففي فترة النفوذ البريطاني، اشرنا إلى الفئات والشرائح التي كان لها النفوذ الأكبر في الدولة، وفي تحديد توجهاتها لخدمة مصالحها، والى جانب ذلك، كان من أهداف السياسة الاقتصادية توثيق ارتباط ودمج الاقتصاد العراقي بالاقتصاد العالمي من خلال الانفتاح على الأسواق العالمية، ولاحقا، أصبح ضمان تدفق النفط اهم مفصل في سياسة الدولة. وحتى بعد التحرر من النفوذ الاستعماري، لم يحدث قطع للعلاقة ما بين الاقتصاد العراقي والاقتصاد العالمي، وإنما تغير التوجه نحو تحسين شروط التبادل والتعاقد مع الشركات الأجنبية وفقا للمصلحة الوطنية، كما تغيرت بنية المبادلات التجارية والسلعية مع الخارج.

ففي زمن الملكية، كانت خدمة مصالح كبار التجار ومصالح كبار ملاك الارض لها الحصة الأكبر في السياسات المعتمدة. وما بعد ثورة تموز، ازداد دور البرجوازية الوطنية وسعي الدولة إلى حماية وتحفيز وتطور الرأسمالية الوطنية، لكن من دون

اضعاف العلاقة أو القطيعة مع السوق الرأسمالية العالمية.

إنّ الاقتصاد العراقي لا يمكن ان ينفصل عن السوق الرأسمالية العالمية بحكم تركيبته واعتماده المتزايد على النفط. فكان لا بد ان يكون هناك شكل من اشكال الرأسمالية تتوافق بين الخارج والداخل، وفي حال عدم توفر مثل هذا التوافق والتمفصل مع الأسواق الرأسمالية العالمية، تنظم المؤامرات وتمارس الضغوطات على الأنظمة كما حدث مع التجربة الناصرية وفي العراق بعد ذروة 14 تموز، ولاحقا في فترة حكم البعث.

فدرالية الدولة ولا مركزيتها

أكثر من جهة داخلية وخارجية لا تريد للعراق أن يكون دولة مركزية قوية لعدة لأسباب؛ خارجيا، هناك خشية لدى دول الجوار والقوى الكبرى المهيمنة على القرار الدولي، عززتها المغامرات العسكرية للنظام الدكتاتوري، من وجود دولة مركزية قوية في العراق، قادرة على حشد مواردها، وترى أنها يمكن أن تشكل تهديدا للأمن الدولي والإقليمي ولمصالحه، مثل ما شكله نظام البعث الدكتاتوري ومغامراته العسكرية. وتتقاسم هذه المخاوف، ومن منطلقات مختلفة، القيادات السياسية الكردستانية والقوى والأحزاب "الشيعية" التي اعتبرت الممثل السياسي للمكون الشيعي.

الفدرالية، من وجهة نظرنا، نظام يستجيب للواقع العراقي وخاصة لواقعه القومي المتعدد، إلاّ أن في تفسير المواد الدستورية المتعلقة بتنظيم العلاقة بين الحكومة الاتحادية والإقليم، وفي تطبيقها العملي، جرى الإخلال بالتوازن المطلوب ما بين السلطة الاتحادية وسلطة الإقليم كما لم يلتزم الطرفان بالنصوص الدستورية. وفي المحصلة جرى التمدد في ممارسة بعض صلاحيات الإقليم وضعف من الدولة الاتحادية في ممارسة كامل صلاحياتها الحصرية وتلكؤ وعدم تهيئة واعداد لتحويل بعض الصلاحيات والمسؤوليات إلى المحافظات في إطار اللامركزية، ونجم عن ذلك أزمات متكررة وضعف عام على صعد الحكومة الاتحادية وحكومة الإقليم والحكومات المحلية في المحافظات. ويعود هذا الاخلال في تطبيق الفدرالية في جانب أساسي منه إلى وجود رغبة سياسية معلنة ومضمرة في بناء سياسي أكثر مركزية، تعبر عنه المطالبة بتغيير النظام السياسي البرلماني إلى رئاسي، والانتخاب المباشر للمحافظين.

من حيث المبدأ وفي ضوء التجارب التاريخية لعملية التنمية في بلدان مثل العراق، هناك حاجة وضرورة لمركزية أكبر، في اطار الدولة الديمقراطية الاتحادية، من أجل ان يستكمل بناء الدولة وتتعزز قدرتها على حشد الموارد لتنفيذ الخطط والبرامج الاقتصادية والاجتماعية التنموية. وخلال العقود الأخيرة ما قبل 2003، سادت رأسمالية الدولة المركزية الاستبدادية، وحققت قدرا من التنمية دمرتها لاحقا بالحروب المتتالية.

ما هي طبيعة الوضع ما بعد 2003؟

من الاحكام الشائعة في التحليلات بأن ليس للنظام الاقتصادي العراقي هوية. قد يكون هذا صحيحا من ناحية غياب فلسفة او

رؤية فكرية ومنهج موحد للدولة ينعكس على مؤسساتها ومنظومتها التشريعية وسياستها الاقتصادية، لكن في الجوهر وعلى صعيد الواقع الاقتصادي الفعلي، فإن العراق سائر على طريق التطور الرأسمالي، لكن ما هي الملامح الخاصة لهذه الرأسمالية؟ ومن هي القوى الاجتماعية التي قيد النمو والتبلور لتشكل لاحقا طبقة رأسمالية؟

الفترة التي أعقبت الاحتلال والتغيير والممتدة من 2003 حتى الان، كان المحور الأساسي للتطورات هو الصراع ما بين أطراف قوى المحاصصة وممثلي المكونات للاستحواذ على أكبر حصة من الريع بطريقة شرعية عبر الامتيازات المفرطة، وغير الشرعية من خلال الفساد العميم. فتراكمت الثروات الخاصة لدى الفئات والشرائح الحاكمة والمتنفذة لمختلف القوى المتحاصصة والمتشاركة في السلطة، وزبائنها وشركائها وامتداداتهم العشائرية والاسرية، وشكلت هذه العملية التراكم الرأسمالي الاولي. وكان الصراع على السلطة شديدا ومتواصلا، لأن السلطة هي التي تحمل المغانم. وحاليا يستمر الصراع على السلطة للأسباب ذاتها، ولكن الآن تكونت فئات اجتماعية تمتلك ثروات خاصة كبيرة وذات مصالح بفضل ارتباطها بصورة مباشرة أو غير مباشرة بمنظومة المحاصصة الحاكمة. لذلك يكتسب الصراع الآن مضامين جديدة تتعلق بمصالح أصحاب هذه الثروات الخاصة الذين يبحثون عن شروط وبيئة افضل لان ينمو الرأسمال الخاص، كما يطلب من الدولة أن توفر له مؤسسات مستقرة تضمن الحماية لأموالهم وممتلكاتهم، وتوجد بيئة سياسية وأمنية وتشريعية وإدارية مناسبة مشجعة لاستثمار أموالهم وتوسع انشطتهم الاقتصادية. وتعبر (الورقة البيضاء) ذات التوجه الإصلاحي الليبرالي المستمد من وصفة صندوق النقد الدولي، والتي تحقق شبه إجماع عليها من قبل الأحزاب والقوى المتنفذة، عن هذه الوجهة، إلاّ أن هذه الوجهة لا تحظى بتأييد القوى والفئات والجماعات المختلفة المرتبطة بالاقتصاد غير الشرعي والتي تمتلك اذرعا وتشكيلات مسلحة وعناصر قوة توظفها لفرض الاتاوات واحتكار بعض النشاطات والخدمات وللاستيلاء على الممتلكات وسرقة المال العام وانتزاع امتيازات عن طريق ممثليها في السلطة وبالطرق غير المشروعة. فمصالحهم لا تنسجم مع بناء الدولة، لذا نشهد صراعا ما بين الجماعات حديثي الثروة، وآخر بينهم مجتمعين وبين الغالبية الشعبية المكتوية بالفقر والحرمان والبطالة وغياب الخدمات الأساسية، ويمكن الاستدلال على هذه المستويات المختلفة للصراع من خلال تمظهراتها السياسية.

ويمكن أن نخلص على أساس كل ما تقدم، إلى أنه لا يمكن ان نتحدث عن دولة تنعم فيها بالاستقرار ما لم تكن لها قاعدة اجتماعية راسخة، ويصعب تحقيق ذلك من دون توزيع للدخل والثروة ينطوي على قسط معقول من العدالة ودولة تؤمن مستوى مقبولا اجتماعيا من العيش الكريم لأوسع فئات المجتمع.

إن الدولة ما بعد 2003 سعت من خلال سياسات الحكومات المتعاقبة الى بناء قاعدة اجتماعية مستقرة لها عن طريق وظائف الدولة، إذ ارتفعت اعداد الموظفين إلى

حوالي 4 ملايين موظف، ويتضاعف عدد الذين يحصلون على رواتب من الدولة إذا ما حسبنا المتقاعدين والمتعاقدين في الشركات المملوكة للدولة وذوي الشهداء والسجناء السياسيين وغيرها من الفئات. وتشكل هذه الفئات مع عوائلهم النسبة الأكبر من المجتمع العراقي. ولكن استقرار أوضاع هذه الفئات ليس ثابتا؛ إذ يرتبط بتقلبات سوق النفط العالمية وانعكاساتها على الموازنة العامة كما شهدنا مؤخرا. كما بدا اكثر فأكثر وضوحا فشل سياسات الدولة ونهجها في استيعاب الاعداد المتزايدة من الشباب في سن العمل والشرائح الاجتماعية الاخرى، وفي توفير الخدمات وتأمين ابسط متطلبات العيش الكريم، ما ولّد سخطا شعبيا ومتناميا.

في الخلاصة، ان هذه الدولة انتجت شريحة من "القطط السمان" موزعة على كل الاطياف الإثنية والدينية والطائفية المكونة للمنظومة الحاكمة. وقد حصل تدريجيا تمايز بمصالحهم عن مصالح المكونات التي من المفترض ان يمثلوها وعن مصالح الشعب عموما. فهؤلاء لا مصلحة لهم في بناء دولة القانون والمؤسسات الديمقراطية، كما توجد جهات مرتبطة بأجندات خارجية ليس لها مصلحة أيضا في بناء هذه الدولة، إضافة الى القوى التي توصف "باللادولة". اذن هذا الصراع كيف يمكن ان يفضي الى مآلات إيجابية؟

فباستكمال عملية بناء الدولة وتصويبها بعيدا عن نهج المحاصصة ودولة المكونات نحو دولة المواطنة المدنية الديمقراطية القادرة على تحقيق التنمية وقدر اكبر من العدالة الاجتماعية مرهون بمآلات الصراعات السياسية والاجتماعية التي اشرنا إليها، والتي يحتل فيها تصاعد الضغط الشعبي المنظم موقعا حاسما. مكافحة الفساد هذا تشكل عنصر ضغط مهما ممكن الاستفادة منه لو جرى تفعيل العامل الداخلي، كما ينبغي وتوحيد الارادة وترتيب الاولويات السياسية وتحقيق اجماع عليها.

*****

وبعد انتهاء المداخلات الرئيسية، عقّب عدد من الاساتذة على بعض القضايا التي ذكرت في معرض الحديث. وكان اول المعقبين الدكتور عامر حسن فياض. والذي بدأ حديثه قائلا:

في الحقيقة ان ملاحظات الاخوة المساهمين في الندوة، تفتح شهية العقل للتفكير. وفي الحقيقة لدي ثلاث ملاحظات. وسأنطلق اولا من ما تفضل به الدكتور علي مهدي. حيث لاحظت خطاب كراهية لتركز السلطة. كلنا نكره موضوعة تركز السلطة. ولكن عندما نتحدث عن عملية بناء الدولة ووفق التجارب، نلاحظ كما تفضل الدكتور سعد، ان الدولة تحتاج الى ان تكون المحتكر الشرعي للعنف والقوة. وانا اعتقد لكي تبنى الدولة من غير الممكن ان تكون السلطة مفتتة لابد وان تكون السلطة ممركزة هذه عملية البناء.

الملاحظة الثانية، لو تحدثنا عن تجارب الدول الراسخة حاليا التي تحدث عنها الدكتور علي مثل فرنسا والمانيا وحتى الولايات المتحدة الامريكية نلاحظ بأن هذه الدول لم تتشكل ضمن اطار سلطة غير ممركزة، اجتازت بالسلطة الممركزة ـ وهذه مسألة مهمة ـ مرحلة اسميها مرحلة ما

قبل التحول الديمقراطي. هذه المرحلة هي مرحلة الدولة الدستورية القوية التي أسماها الدكتور علي دولة سلطة السيادة. لا يمكن الانتقال الى مرحلة التحول الديمقراطي دون وجود هذه المرحلة. هذه المرحلة لا تعني بأن وجودها يؤدي اوتوماتيكيا الى دولة حديثة مدنية ديمقراطية، ولكن عدم وجودها هو الاخر لا يؤدي الى دولة مدنية حديثة وراسخة.

الملاحظة الثالثة ومن نفس المنطلق الدكتور رائد تحدث عن التشكيل الوضعي وليس التشكيل الموضوعي. انا اعتقد كل الدول الراسخة تشكلت تشكيلا وضعيا، بمعنى هناك ارادة لتشكيلها. هناك حامل اجتماعي للدولة الحديثة يتمثل بالطبقة الوسطى وهناك حامل اقتصادي يتمثل باقتصاد مستقر ومتوازن، ويوجد حامل ثقافي يتمثل بثقافة تتغلب فيها النزعة الفردية والنزعة العقلانية والنزعة العلمانية. لذلك لا مفرّ أمام المؤسسيين الا بالاعتماد على حامل وضعي والذي هو الحامل السياسي متمثل بنظام سياسي هو القادر على أن يخلق الحوامل الثلاثة الاخرى لبناء الدولة.

وبعد ذلك قدّم د. علي مهدي عدداً من الملاحظات قائلا:

أود الحديث أولا عن الديمقراطية التوافقية التي تطرق لها الدكتور سعد. الديمقراطية التوافقية هي دائما في البلدان غير المتجانسة والدول المنقسمة سياسيا، التي تأتي دائما بعد حروب أو بعد نظم شمولية أو نظم دكتاتورية، وتمر بحالة انتقالية وهي ليست حالة دائمة. تقريبا الدستور العراقي يجمع في الكثير من بنوده مضمون الديمقراطية التوافقية، والديمقراطية التوافقية بعناصرها الأربعة: الائتلاف الواسع، والنسبية، وحق الفيتو والإدارة الذاتية. هذه العناصر الأربعة لو قارنتها بالدستور العراقي فهي موجودة. لكن يجب أن لا تكون هذه الديمقراطية التوافقية حالة دائمة. لأنها إذا اصبحت حالة دائمة عمليا ستكون نوعا من انواع التخادم ما بين القوى السياسة، وغض النظر عن الكثير من الفساد، وعدم تحقيق الانجازات.

الديمقراطية التوافقية يتم اللجوء إليها كحالة انتقالية ومؤقتة، ودائما يكون العبء الكبير على المكون الأكبر، الذي سيتكون في داخله تشطر داخلي بحكم التناقضات الاجتماعية الطبقية السياسية، وهو الذي يأخذ زمام المبادرة، للانتقال من نظام الديمقراطية التوافقية إلى نظام الأكثرية، على الأقل كانت الآمال معلقة في الدورة الانتخابية السابقة لسنة 2018، فقد كان الأمل المعقود، هو الانتقال من الديمقراطية التوافقية إلى نظام الأكثرية، وكان قسم من الأحزاب معلقا وجوده والمشاركة في الانتخابات على هذا الأساس (أي الانتقال إلى نظام الأكثرية)، لأن بقاء الديمقراطية التوافقية هو التستر عن كل ما حصل في الفترة السابقة، والتي مع الأسف الانجازات فيها كانت محدودة جدا. اعتقد الحديث الان يجب أن يتركز على الديمقراطية الأكثرية في الفترة القادمة، وعدم بقاء الديمقراطية التوافقية لأنها استنفذت كل إمكانياتها في الوقت الحاضر.

الملاحظة الثانية، سعيد جدا بمداخلة دكتورنا الكبير الدكتور عامر حول موضوع تركيز السلطة. عند تركيز السلطة هناك طريقتان؛ الطريقة المجلسية الموجودة الان في سويسرا، مجلس النواب،

تكون الحكومة تابعة له بشكل مباشر وغير مستقلة عنه. وهذه كانت موجودة بتجربة الدول الشمولية، تجربة الاتحاد السوفيتي واوربا الشرقية وحتى في الصين الان. كل الصلاحيات بيد مجلس النواب والوزارة تابعة له، ومجلس النواب يشكل هيئة تسمى سابقا في اليمن الديمقراطية الشعبية هيئة رئاسة مجلس الشعب، أو هيئة السوفيت الأعلى. وهي الهيئة التي تقود البلد بأكمله ومجلس النواب ينعقد في السنة مرتين. هذا النظام تقريبا موجود الان في الجمعية العامة للأمم المتحدة. الجمعية العامة تلتئم مرتين، ومجلس الأمن الدولي الذي يمثل السلطة التنفيذية، وهو الذي يدير العمل، مع الفرق بأن هناك قضية الفيتو في مجلس الأمن. وهذا النمط الأول من تركيز السلطة.

ويوجد تركيز للسلطة من نمط ثاني، وهو في النظم الدكتاتورية والاستبدادية والحكومات والملكيات المطلقة، حيث تدمج صلاحيات السلطتين التشريعية والتنفيذية بيد هيئة واحدة او شخص واحد. كانت إحدى ملاحظاتي على دستور 2005 هو ضعف الوزارة أمام مجلس النواب، ولست مع تفتيت وضعف الحكومة الاتحادية، ولست مع تقوية الحكومة الاتحادية على حساب وجود السلطة التشريعية ووجود السلطة القضائية. وان لكل سلطة صلاحياتها ومهامها وعدم تجاوزها على السلطات الأخرى، إضافة إلى وجود بناء اتحادي، قائم على وجود أقاليم ومحافظات تعتمد الديمقراطية باختيار ممثليها. والى جانب تقوية السلطة التنفيذية وتقوية الوزارة ولهذا انا ضد ان لا يكون للوزارة الحق في حل مجلس النواب. ان حق الوزارة في حل البرلمان، حق مكفول في كل النظم البرلمانية. لدي القناعة بأن الكثير من الوزراء الذين مروا لو كانت لديهم قدرة دستورية أن يحلوا مجلس النواب لكانوا أول الناس في حله. والدليل لدينا 600 شهيد في العراق و20 الف جريح ومجلس النواب لم يحرك ساكنا. ولولا المرجعية لما تحرك مجلس النواب. مع الأسف أقول ذلك لأن هناك مجموعة سراق وفاسدين على رأس هذا المجلس، وهناك فرق بأن تضغط على 25 شخصا وبين أن تضغط على 323، الـ 25 من الممكن ان تؤثر بهم لكن 323 لست قادرا على التأثير بهم. لذلك مع أن يكون للوزارة الحق في حل مجلس النواب. من جهة ثانية، أرى أن مجلس النواب أخذ صلاحيات الوزارة. أنا إلى جانب النظام البرلماني الألماني، بأن رئيس الوزراء يأتي بالوزارة ويصوتون عليها تصويتا واحدا. كما هو في بريطانيا. نحن في العراق الان نعمل بموجب النظام الرئاسي نصوت على كل وزير على حدة، وهذا خطأ من الضروري إعطاء الحرية لرئيس الوزراء، وهذا فيه مراعاة للديمقراطية التوافقية، بمعنى إذا الأكراد لم يصوتوا للوزراء للسنة ممكن النواب السنة لا يصوتون للوزراء الأكراد وهكذا، اعتقد أن هذا يضعف السلطة التنفيذية، ويضعف مكانة رئيس الوزراء.

أنا إلى جانب تقوية مكانة الوزارة، ولكن ليس على حساب السلطة التشريعية ولا على حساب السلطة القضائية. ويجب أن نميز بأن تركيز السلطة شيء وتقوية السلطة التنفيذية شيء آخر.

وكانت اخر التعقيبات من قبل الدكتور عبد الجبار احمد:

مجموعة المعادلات ممكن ان تكون اشبه بالاستنتاجات. مفهوم الدولة المركبة بمفهوم الدولة البسيطة. بمعنى ننظر للدولة المركبة بمفهوم بسيط مفاده انه مادام في اي مجتمع هناك تنوع اثني عرقي قومي، لا يمكن ان تحكم هذه الرقعة الجغرافية وشعبها وجغرافيتها بطريقة مركزية او فيها نوع من انواع التمركز، اذن الفيدرالية تعتبر نتاجا حضاريا يرتبط بمفهوم الدولة الحديثة.

ومن جهة ثانية، يجب ان تكون الديمقراطية هي البوصلة لمفهومنا عن المركزية واللامركزية. بمعنى ليس كل حكم مركزي هو غير ديمقراطي، فرنسا ليست فيدرالية ولكنها ديمقراطية. لذلك كلما اقتربنا من مركز ديمقراطي فيه مواصفات للديمقراطية الحقيقية، يكون الحكم جيدا ويحقق الانجاز. في حال الرغبة في اللامركزية الادارية او السياسية يشترط ايضا ان تكون مرتبطة بالنظرة الديمقراطية والا لا انفصال ما بين الديمقراطية والفيدرالية ولا انفصال ما بين المركزية والديمقراطية، بشرط ان تكون ديمقراطية حقيقية. ثانيا، نسمع اليوم بعض الطروحات حول العقد السياسي او العقد الاجتماعي، نحن نقرأ في العلوم السياسية ان واحدة من شروط او بنية او آليات تأسيس الدولة هو فكرة العقد، هذا نتداوله حتى وان كان عقدا وهميا، فكرة العقد فكرة رائعة ممكن ان تصلح في اي زمان ومكان، لكن انا لا استوعب ان تطرح فكرة العقد السياسي من رئيس الجمهورية بعد 18 سنة، والرغبة في ايجاد عقد قبل الانتخابات بخمسة اشهر، هذا يحتاج لاستفسار واجابات وافية: هل فكرة العقد لتأمين مصالح الاحزاب المهيمنة ام ستكون هي الدعوة لتأمين مصالح اجتماعية وطبقة وسطى ومجتمع مدني، ولو اني اشك في ذلك؟

اخيرا، اقول ان المركزية الشديدة بدون ديمقراطية لن تفلح في بناء دولة ديمقراطية حقيقية وان نجحت في ادارة الدولة، بمعنى قد يستطيع النظام السياسي "المستبد الدكتاتوري المركزي المتشدد"، ان يدير الدولة لكن بناءه واهن، ولنا نماذج متعددة. في المقابل ايضا الديمقراطية لوحدها من دون اجنحة وادوات مركزية عادلة اتحادية طوعية لن يكتب لها النجاح. بمعنى ان الديمقراطية ستصبح ديمقراطية شفاهية، ديمقراطية اقوال وليست ديمقراطية افعال. الحاصل في "العقل السياسي العراقي"، وهو عقل غرائزي ما عاد يحقق لنا شيئا اسمه تمركز السلطة واستخدام مشروع للقوة. ان استخدام القوة هو واحد من سمات اي دولة قبل ان تكون دولة ديمقراطية او دولة استبدادية. المغالاة في استخدام هذه القوة تتحول الى دولة مستبدة، التأكيد على كون هذا استخدام عنف مشروع حسب ضوابط قانونية وسياسية ايضا يقودنا الى نتائج ديمقراطية.

في التجربة العراقية، لدينا تجربتان. الاولى دولة بسيطة في العهد الملكي، وان كانت مقوماتها او رؤاها تنحو لربما اللامركزية، فانها ستتطور لو كتب لها الاستمرار. والثانية الدولة المركبة في العراق "بعد 2003"، ولنتحدث بصراحة، لم اجد على مستوى تحليل المضمون في الخطابات السياسية لمعظم الاحزاب السياسية باستثناء الاحزاب الكردستانية والحزب الشيوعي، لم أجد مفردة الفيدرالية

او الاتحاد الطوعي في معظم الخطابات الرسمية والاعلامية، وهذا يعكس لنا ان الثقافة السياسية في العراق هي معقدة، لكنها ليست مركبة في الاطار الذي نتحدث عنه في ايجاد اتحاد طوعي فيدرالي، حتى وان لم نسمه فيدرالية سنسميه اتحادا طوعيا على اقل تقدير، لنضمن حقوق تأسيس دولة.

في رأيي المتواضع، ان مقومات وجود دولة حديثة في المستقبل، لا تتوافر حتى هذه الساعة. واشك ان الانتخابات القادمة ستحقق لنا او توجد لنا الحامل او الناقل لمشروع بناء الدولة. بناء الدولة يحتاج لمستلزمات اخرى، قد لا تتوافر الا بعد دورتين تشريعيتين في المستقبل.

بعد ذلك اختتم الدكتور سوران قحطان اعمال الندوة قائلا:

بعد ان شارفت الندوة على الانتهاء. كانت النقاشات خلال الساعات الثلاثة الماضية اكثر من مثمرة؛ حيث استمعنا الى مقاربات متعددة للمحاورة المطروحة، واصبحنا على دراية اكبر بالقضايا موضوع النقاش. خصوصا وانها تفتح الابواب على مصراعيها من اجل استكمال النقاشات بتفاصيل وتدقيقات اكثر حول كل جزئية، تناولتها نقاشاتكم اساتذتي الكرام بتجريد نظري وعمومية فرضتها علينا جميعا عوامل الوقت وطبيعة الندوة. كما ان ملاحظاتكم وطروحاتكم ساهمت في اثارة جملة جديدة من الاسئلة.

باسم هيئة تحرير المجلة ورئيس تحريرها، اكرر شكرنا الخالص لحضراتكم في قبولكم لدعوتنا ولمشاركتكم الجادة في اعمال هذه الطاولة.. متمنين للجميع الصحة والعافية ولشعبنا السلامة والأمان.

مقـــــالات

ثورة 14 تموز الوطنية الطبقية وحركة رجال الدين الأحرار والشيخ حسن الخفاف

الاستاذ الدكتور عبد علي الخفاف

14 تموز ثورة وفق ما تعنيه مفردة الثورة من دلالات سياسية واقتصادية واجتماعية، فهي ثورة وفق منظور الادب البرجوازي للثورة والذي يحدد مفهومها على انها انقلاب يطيح بالنظام السياسي القائم عن طريق التحرك الشعبي باستخدام العنف[1] وتحصل أساساً لأسباب داخلية[2] بينما الادب المادي الثوري، يذهب الى ابعد من ذلك فيحاول ان يحدد القوانين اللازمة للثورة، فيراها شكلا من اشكال القفزات التي تعد مراحل حتمية وعاملا ضروريا لكل تطور، كما تفسر ذلك المادية الديالكتيكية. فلهذه الثورات او القفزات قوانينها الاجتماعية اللازمة المستندة الى قواعدها الاقتصادية، فهي بذلك نتيجة ضرورية لقوى التغير الاقتصادي الاجتماعي[3] حيث يقترب الصراع الطبقي من الحسم فتنفسخ الطبقة السائدة والمجتمع القديم بأسره فيأخذ الصراع طابعا عنيفا وحادا[4].

هكذا يتضح ان الادب المادي الثوري يحدد مفهوم الثورة بقوانينها وحتميتها وعلى انها ذروة حالة الصراع الطبقي. وفق هذا التنظير العلمي تبدو ثورة 14 تموز، ثورة قادتها البرجوازية الوطنية (الصغيرة) التي بدأت تنمو ببطء على مدى قرن امتد ما بين (1850 - 1950) وقد اقترن نموها مع نمو البرجوازية العراقية عموماً، الكبيرة والمتوسطة.

إن مائة عام غير كافية لنضج البرجوازية بمستوياتها، الكبيرة والمتوسطة والصغيرة، كما انها غير كافية لنمو الطبقة العاملة العراقية، لتعي واقعها الطبقي ودورها الاقتصادي الاجتماعي. فالتاريخ الطويل الذي مر به المجتمع العراقي بعد سقوط بغداد على يد هولاكو في 656هـ - 1258م كان تاريخ الاقتصاد المعيشي، فالسوق فيه محدودة جدا، وأكثر من 80 من السكان هم ريفيون، يعيشون في القرى، يعتمدون على ما يزرعون وما يربّون من حيوانات، فهي ثروتهم ورأس مالهم.

1. الاقتصاد المعيشي:

بدأ تاريخ العراق الحديث بخمسة قرون (500 سنة) استند فيها نمط الحياة الى نمط بدائي للاقتصاد هو الاقتصاد المعيشي. لا يعرف فيه العمال طبقتهم ولا يعرف فيه البرجوازيون مصالحهم. ولم تتشكل الوحدة السياسية للعراق، إلا بعد توحيد السوق بين الولايات العثمانية الثلاث، الموصل وبغداد والبصرة، إثر سقوط الامبراطورية العثمانية واختفائها من خريطة العالم السياسية عند نهاية الحرب العالمية الاولى، فحصل اول حكم سياسي مستقل للعراق، لا علاقة للعثمانيين به، وذلك في سنة 1921، فعمل الانجليز على تعيين فيصل الاول ملكاً على العراق (20 مايس 1920 - 8 ايلول 1933) فتم تتويجه في 23 آب - 1921 في ساحة القشلة ببغداد.

وهكذا خرج العراق من قفص العثمانيين ليدخل قفص الانجليز. وقد رحبت الطبقة البرجوازية وهي ضعيفة يومذاك بهذا الانتقال فهي ما عادت ترى مصالحها مع السلطات العثمانية التي ارتبطت ارتباطاً قوياً بالإقطاعيين، والتي لم تكن تملك القدرة على التحديث والتغيير. وفي حقيقة الامر أدركت هذه السلطات بل الدولة العثمانية عموما بضرورة التحديث فسنت جملة تشريعات أهمها ما صدر ما بين (1856 - 1864) في مقدمتها فرمان الكلخانة (1839) والخط الهمايوني (1856)، لقد كانت تشريعات تقدمية إلا انها جاءت متأخرة.

كان لإهمال العثمانيين العالم العربي، دور في مساعدة البرجوازيات الاوربية (وبشكل خاص البريطانية والفرنسية والايطالية) على الانقضاض على البلدان العربية، فعملت هذه البرجوازيات على خلق الثقة بينها وبين البرجوازية العراقية الصاعدة.

2. بدايات اقتصاد السوق

بدأ الاقتصاد العراقي مثل غيره من اقتصادات البلدان العربية، يتحرك إثر تحرك البرجوازية الصغيرة، التي يمكن ان نطلق عليها اسم (البرجوازية الحرفية) وكذلك البرجوازية التجارية المبتدئة لتوسيع مصالحها، فنشطت إثر ذلك التجارة المحلية بين المدن والقصبات وما يحيطها من قرى. ومع تنامي هذا الحال بدأت البضائع والسلع الاجنبية تدخل السوق العراقية فارتبطت مصالح البرجوازية التجارية العراقية بمصالح البرجوازية التجارية الأجنبية وعلى وجه التخصيص الانجليزية.

مع تنامي حركة الاستيراد من الخارج، تقلصت الصناعات الحرفية، وتراجعت أعداد الحرفيين التي توزعت صوب خانة البرجوازية المتوسطة والكبيرة أو الى خانة الطبقة العاملة فبدأت تظهر نواة الطبقة العاملة.

نمت طبقة البرجوازية التجارية بتشجيع من التجار الاوربيين لا سيما الانجليز. فالبرجوازيون التجار العراقيون صاروا يعملون تحت مظلة البرجوازية الانجليزية ومن ذلك أسست مصالح التجارة الخارجية في العراق، مصالح للبرجوازية التجارية الانجليزية بشكل طاغ. وكان الجزء الاكبر من التجارة العراقية يتم بواسطة السفن البريطانية، ويكاد راس المال الاجنبي الداخل الى السوق العراقية يومذاك، يكون بريطانياً دون منافسة. وكان مصرفان من

ثلاثة مصارف بريطانيين كلياً[5].

شكلت التجارة الداخلية والتجارة الخارجية طبقة برجوازية جديدة وواسعة، هي طبقة الجلبيين والصرافين اليهود. ونشير الى بعض الأسماء التي وردت في أرشيف غرف التجارة في بغداد والموصل والبصرة. (أبو التمن- الشالجي- الباجه جي- الدامرجي- الاورفلي- آل الجليلي- آل العمري- النائب- المفتي- آل حديد- آل الاغا- الجادر- باشا اعيان- الخضيري- البسام- النقيب- البجاري- العطية- السامر- الشاوي- السعدون- أبو شعير- الغانم)[6].

نشير الى بعض الشركات لنقدم صورة عن تقدم التجارة الخارجية وتوسع علاقاتها مع الخارج، منها شركة جقماقجي (شركة الحاج فتحي جقماقجي وأولاده - تأسست في 1918) وهي شركة لاستيراد المواد والأجهزة الكهربائية، ومنها الكرمافون والاسطوانات. وكالات حافظ القاضي، وهو مقرب من صناع القرار، لاستيراد وبيع أجهزة المذياع (الراديو) واستيراد وبيع سيارات فورد الامريكية. شركة باتا للأحذية والعديد من الشركات المحدودة.

3. تنامي الطبقة البرجوازية

لقد تطورت واتسعت الطبقة البرجوازية التجارية بتشجيع من التجار الأوربيين الذين يرون استمرار مصالحهم ببقاء العراق سوقاً تستورد ما يصنعون.

بقيت البرجوازية التجارية العراقية ضعيفة امام التجار الأجانب، فتشير تقارير غرفة تجارة بغداد الى ان الغالبية من أعضاء الغرفة ممن هم صنف الدرجة الأولى، هم افراد الشركات المختلطة الانجلو- فرنسية والانجلو- فرنسية – أمريكية، وذلك منذ تأسيسها في 1927[7].

على الرغم مما أشرنا إليه، فقد توجه البعض من البرجوازيين الى قطاع الصناعة، دفعهم الى ذلك الكثير من المحفزات، كان في مقدمتها تشجيع الحكومة للصناعة الوطنية. ويمثل هذا التشجيع رغبة الحكومة (البرجوازية) لتنمية طبقتها داخل المجتمع العراقي، فأصدرت قانون تشجيع المشاريع الصناعية في 1929، وقامت بتأسيس المصرف الصناعي الزراعي في 1935 الذي فصل الى مصرف صناعي واخر زراعي في 1946، كما أسست معهد المباحث الصناعية التابع لوزارة الاقتصاد لتقديم الاستشارات الفنية[8] ومديرية الصناعة العامة ضمن هيكل وزارة الاقتصاد في 1950[9].

لقد توجه البعض من البرجوازيين الى قطاع الصناعة، فأدت زيادة اعداد البرجوازيين الصناعيين الى نمو الصناعة، والى نمو الطبقة العاملة، وقد تركز هذا النمو الصناعي في الالوية (المحافظات) الكبيرة وهي بغداد والموصل والبصرة. وبهذا الصدد نشير الى بيانات الإحصاء الصناعي لعام 1954 والتي يبدو منها انها حازت 8461 مؤسسة صناعية شكلت حينها نسبة 37.6% من ما موجود في العراق. أي اكثر من ثلث المؤسسات. اما بالنسبة لطبقة العمال فقد تركز فيها 56145 عاملاً وعاملة، شكلوا نسبة 62.1% من مجموع اليد العاملة. أي حوالي ثلثي الطبقة العاملة في قطاع الصناعة.

هذا التركز الجغرافي للصناعة يخدم الطبقة البرجوازية، ولا يخدم العراق بشكل

عام؛ إذ لا يساعد على التنمية الاقتصادية الاجماعية لعموم البلاد. فعادة يستثمر البرجوازيون البنى التحتية للصناعة، وان كانت بسيطة في مناطق وجودها.

من أشهر شركات الصناعة في بغداد، كانت معمل فتاح باشا للسجاد والبطانيات والاقمشة وشركة دخان عبود للسجائر ومعامل الطحين للدامرجي والجلبي وغيرها من معامل الحلويات والمعجنات والمياه الغازية والكحولية والثلج. ومصانع آل الساعاتي (داوود الساعاتي) وآل الدباغ وآل حديد والصابونجي. وهي في البعض منها صناعات غذائية والبعض الاخر صناعات للأثاث، في مدينة الموصل. وكذلك كان الحال في مدينة البصرة فإلى جانب صناعة تكرير النفط الحكومية، ثمة عدد كبير من المصانع الصغيرة، لصناعات الأغذية، وفي مقدمتها كبس التمور والدبس، وصناعات الأثاث والمياه الغازية والكحولية والثلج.

توجه البعض الثالث من البرجوازيين لقطاع العقارات، ونشير هنا الى (10) عوائل كانت هي الأشهر في امتلاك العقارات من بينها: الدامرجي والخضيري ومرجان والصابونجي وخضوري والبغدادي وحسو وحديد.

اما البعض الرابع فقد توجّه لقطاع الزراعة حيث توجه لامتلاك الأراضي الزراعية والبساتين. بشكل عام نؤشر حقيقة أن أبناء الطبقتين البرجوازيتين الصغيرة والمتوسطة كانوا يطمحون بالصعود الى الطبقة البرجوازية الكبيرة باعتبارها الطبقة المالكة للأراضي الزراعية الواسعة ومنها التجار الكبار المستوردون من الخارج وأصحاب العقارات الكبيرة والمصانع، وهم القريبون من أصحاب القرار الحكومي، ويعملون دوماً على تحسين علاقاتهم بالرأسماليين الأجانب، وعلى تكوين طبقة رأسمالية عراقية يدعمهم الى ذلك كبار موظفي الدولة من الصنف الأول من السلطة.

4. اندلاع الثورة

امام هذا التركز في الثروة بين أبناء الطبقة البرجوازية في مراتبها الثلاث كان الفقر والحرمان يسود الخريطة العراقية، ولعل الجدول الآتي يلخص صورة الفقر الشديد.

لا يقدم هذا الجدول سوى البعض من الصورة القاسية التي كان يعيشها الشعب العراقي، ولا تسمح لنا شروط المجلة في حجم المقالة ان ندخل في تفاصيل ذلك الواقع الذي ارشفته المصادر والمراجع التي تناولت تاريخ العراق السياسي والاقتصادي والاجتماعي لهذه الحقبة.

لقد أرشف البعض من الباحثين (193) مشروعاً أنجزته هذه الثورة في عمرها القصير جداً وهو (أربع سنوات وستة أشهر وخمسة وعشرون يوماً فقط)، ولا نستطيع ان نشير الى تفاصيل هذه المشاريع انما نذكر منها:

- تحويل نظام الحكم من ملكي وراثي الى جمهوري.
- انسحاب العراق من منطقة الجنيه الإسترليني.
- الانسحاب من الاتحاد العربي الهاشمي.
- الانسحاب من حلف بغداد (بريطانيا – العراق – تركيا- إيران وباكستان).

الجدول (1) مؤشرات الفقر والحرمان في مدينة بغداد الكبرى حسب نتائج تعداد السكان في 1947	
- اجمالي عدد السكان	646042
- اجمالي عدد الطبقة العاملة	209542
- عمال صغار دون العاشرة من العمر	5474
- بينهم بنات صغار	165
- عدد الاسر	66334
- اسر تسكن بيوت الطين والاكواخ	22950
- نسبة الامية	%73
- الامية بين الاناث	%84
المملكة العراقية- وزارة الشؤون الاجتماعية- مديرية النفوس العامة- إحصاء النفوس لسنة 1947- ج1- لواء بغداد- الجدول 1.	

- الغاء نظام الاقطاع ودعاوى العشائر وإصدار قانون الإصلاح الزراعي.

- اصدار قانون الأحوال الشخصية لصالح المرأة.

- اصدار قانون 80 لتأميم مناطق استثمار النفط.

- العمل بقانون رقم 1-- لتحديد ساعات العمل وتحديد الأجور حسب طبيعة العمل، بعد ان كان مجمداً قبل الثورة.

اما في مجال البناء والتعمير فنشير الى بناء (21) مستشفى و(160) مستوصفا و(2334) مدرسة و(776) مدرسة لمحو الامية و(37) مشروعاً للإسكان في المدن الكبيرة وغيرها.

إن هذا البعض من المنجزات الاقتصادية الاجتماعية ألا يعطيها صفة الثورة بدلالاتها الاقتصادية الاجتماعية في قاموس العلوم السياسية؟

ما استطاعت في حينها ان تتخلى المؤسسة الدينية عن البعض من مصالحها المرتبطة مع الاقطاعيين، ملاك الأراضي، ومع البرجوازيين الكبار لصالح الشعب وطبقاته المحرومة والمهمشة. وهذا ليس بغريب، وليست حالة انفرد بها العراق انما هي طبيعة المؤسسة الدينية مع السلطات الحاكمة منذ اول التجمعات البشرية في العصور التاريخية المبكرة.

لكن حصل ان البعض من رجال الدين خان طبقته، ونزل الى جانب المحرومين والمهمشين، وهذا الحال ايضاً لم يقتصر على العراق، بل ندركه في الكثير من تاريخ الأمم.

تشكلت حركة رجال الدين (الاحرار) ردة فعل للموقف التقليدي للمؤسسة الدينية ليناصروا الثورة، ويقفوا الى جانبها مستلهمين في ذلك المحطات المهمة

المناصرة للعدالة والحق في تاريخ الأديان، ومستلهمين روح الدين ومغازيه الإنسانية لا طقوسه الشكلية.

الذين انخرطوا في صفوف مناصرة الثورة عدد كبير من رجال الدين من المسلمين وغير المسلمين، وعلى طول وعرض الساحة العراقية، وقد توجه غالبيتهم تحت مظلة حركة أنصار السلام. في هذه المقالة نشير الى البعض من الأسماء المعروفة، وهم قد غادروا هذه الحياة لكن يبقى موقفهم الإنساني، لا يغادر تاريخ العراق. هذه الأسماء تعايشت مع الثورة في منطقة النجف وما يجاورها من ريف واسع يضم قرى الحيرة وأبو صخير والمشخاب والقادسية والشامية والمهناوية وغماس وغيرها.

كان من بين هذه الشخصيات، الورع السيد يوسف الحلو والشيخ باقر الفيخراني والشيخ جعفر الكرباسي والشيخ مجيد زاير دهام والشاعر الحسيني عبد الحسين أبو شبع والشيخ عبد الكريم الماشطة في الحلة والشيخ حسن الخفاف والسيد طالب آل سيد كريم والسيد نوري زوين في الحيرة. وقد حوربت هذه المجموعة المتحررة من المواقف والسلوك النمطي، من قبل المرجعيات الدينية بأبخس الأساليب، حتى وصف البعض من هؤلاء الذين آمنوا بدعوات الدين للعدالة، بأنهم ملحدون وخارجون عن الملة، لقد تمت محاربتهم مادياً ومعنوياً وبقوا صامدين، آمنوا بشعارات الثورة ومبادئها، وما صدر عنها من تشريعات.

أسس الشيخ حسن الخفاف، كما يعرفه جيل الثلاثينيات والاربعينيات من أبناء الحيرة والمشخاب والشامية وغماس ومنطقة النجف عموماً، وهم قد رحلوا من مسرح هذه الحياة، أسس لتوأمة غير معهودة بين الدين وطبقة الفقراء والمهمشين. نعم، كانت مثل التوأمة معروفة في محطات كثيرة من التاريخ والتراث على مدى العصور الإسلامية، دولة الرسول الكريم وعصر الخلافة الراشدية والدولة الاموية ودولة بني العباس، واخيراً الخلافة العثمانية وما حصل بعدها من تاريخ عربي واسلامي متراجع... نعم، انها محطات لم تؤسس لثقافة مجتمعية واسعة بفعل سطوة المؤسسات الدينية التي ترتبط مصالحها برجال السلطة وبالبرجوازية المتنفذة سواء تلك المتمثلة بملاكي الأراضي من الاقطاعيين ومساعديهم السراكيل او ملاكي العقارات او أصحاب المصانع والمعامل ووكالات التجارة او مرابي الأسواق. كان الخروج عن السلوك النمطي لرجل الدين التابع للسلطة ولسلطة المال عادة كان هذا الخروج ثورة تنويرية باعتباره خروجا من جبهة والتحاق بجبهة أخرى.

تعلق رجال الدين الاحرار، في عموم العراق، بالثورة وتشريعاتها لصالح الشعب، فكثيرا ما تحدث الشيخ حسن الخفاف في مجالسه الحسينية، ومن على المنبر الحسيني كيف تحقق لفقراء الريف وفقراء المدن البعض من وجودهم وذاتيتهم، فأصبح لهم رأي وقرار داخل المنظومة الاقتصادية على بساطتها وداخل المنظومة الاجتماعية المحكومة بتسلط التقاليد (الابوية) وقد تم ذلك عبر النقابات والمنظمات الجماهيرية فهم عبرها يبدون رأيهم وموقفهم بنعم ام لا. أمست هذه الجماهير التي كانت على هامش

الحياة تتابع المواقف المتعلقة بمصيرها وبحراكها، وتقرأ الادبيات التي تخصها، او تستعين بمن يقرأ لها في الاقتصاد والسياسة وهذه صورة من صور التغيير بل صورة لتثوير التغيير. لقد خلقت ثورة 14 تموز حراكاً سياسياً اقتصادياً اجتماعياً.

للمرأة والجماهير الشغيلة عبر نقاباتها ومنظماتها، نسوق مثالاً من مدينة النجف، وما يحيطها من قصبات وريف، والتي لم يتجاوز عدد السكان فيها حينذاك (250000) نسمة حسب بيانات إحصاء النفوس في 1947، سرعان ما تشكلت فيها النقابات والمنظمات وهي:

- نقابة المعلمين
- اتحاد الطلبة
- رابطة الدفاع عن حقوق المرأة
- الشبيبة الديمقراطية
- منظمة أنصار السلام
- نقابات مهنية مثل نقابة المحامين والحلاقين والخياطين والقصابين وغيرها.

وقد وضع هذا الواقع الجديد حداً يفصل ما بين البرجوازيين والاقطاعيين وتابعيهم من رجال الدين وبين الجماهير الشغيلة التي خرجت على الطاعة (الابوية) المفروضة عليها لتاريخ طويل. هذا (العصيان) هو عصيان طبقي حصل بموجب شروط الديالكتيك وليس عصيان غوغاء، كما يفسر ذلك علم الاجتماع البرجوازي، الذي لا يستطيع ان يهضم قوانين الحراك الاجتماعي[10].

عمقت ثورة 14 تموز حالة الصراع الطبقي، وكان ذلك من منجزاتها حيث تمسكت الشغيلة بمكتسباتها الثورية، وراحت القوى المتعلقة بالمجتمع التقليدي تلملم قواها، وتبحث عن سبل لثورة (الردة). اضطرت القوى المناصرة للثورة الى تشكيل تنظيم مسلح للدفاع عن الثورة، وقطع السبل للقوى المعادية فكانت المقاومة الشعبية.

بدأت القوى المعادية والتي تضررت مصالحها تتكتل وترفع شعارات، كما عشناها، في منطقة النجف واريافها الواسعة، (الثورة ضد الدين) والثورة (ضد الأعراف والتقاليد).. وهي تشجع (الغوغاء) على عصيان أولياء امورهم، من الاقطاعيين والسراكيل وتجار الربا في أسواق المدينة والقصبات. هؤلاء الغوغاء صاروا يدافعون عن نظام الإصلاح الزراعي وعن قانون العمل لثمان ساعات وعن تنظيماتهم النقابية والكثير مما اشعرهم بآدميتهم، فمن الطبيعي ان ينتظموا ويتسلحوا حراسة للثورة وروادها.. وهم يعرفون ان عدوهم في الجانب الاخر هو مسلح وهو الذي يرهبهم بسلاحه وماله!

شهران فقط من عمر الثورة، وبادرت النخبة الطليعية والواعية بتشكيل وفد لمقابلة زعيم الثورة وعرض مطالب أهالي قصبة الحيرة، وكانت (7) مطالب من بينها تأسيس مدرسة للبنات، وتعيين طبيب في مستوصف القصبة، إضافة للموظف الصحي الموجود، وتعبيد الطريق ما بين قصبة الحيرة وأبو صخير، وربط القصبة بشبكة الكهرباء وشبكة الماء في قضاء ابي صخير. سلّم الشيخ حسن الخفاف هذه المطالب بيد زعيم الثورة، وسرعان ما تمت المباشرة بتنفيذها.

اشتد الصراع ما بين أعداء الثورة ومناصريها فشعرت النخبة الطليعية ان

لا مناص الا بتسليح هذه الجماهير لدرء الخطر عن الثورة وعن المكتسبات. ناصر الشيخ تشكيل المقاومة الشعبية، وفي احدى ليالي الصيف المقمرة في رمضان طرح الامثلة العديدة من تراثنا الاسلامي من على المنبر الحسيني مخاطبا الشغيلة والفقراء.. أنتم (احباء الله) وأنتم بناة الحياة وغيركم هم الكذابون والسارقون لجهودكم.. وقد صادف في يومها ان طلب آل الحاج (....) الاقطاعي الكبير الذي يملك (18000) مشارة زراعي في ريف منطقة (المحاجير) من (عبد زيد) منظف البالوعات (نزّاح) ان ينزل في بالوعة البيت، ويأتي بالآنية (طاسة) الجميلة المزخرفة التي سقطت في البالوعة من يد بنتهم الصغيرة، طلبوا منه النزول وان يكافئوه بـ (10) فلوس.. ما كان (عبد زيد) راغباً بالمبلغ البسيط، رغم حاجته له، فالمهمة صعبة وفيها خطورة، الا انه كان يخاف ان يعترض ويرفض، فلهذا الحاج الشيخ الاقطاعي سطوته في قصبة الحيرة.. على كل حال توكل (النزّاح) وفي ثاني خطوة زلقت قدمه فوقع في البالوعة وما استطاع ان ينقذ نفسه، واهل البيت يتفرجون عليه حتى غرق واختنق وغادر هذه الحياة وقد تخلص من آلامها وأوجاعها اليومية.. بكى الشيخ حسن ونحب كثيراً وهو على المنبر.. بعدها صاح بأعلى صوته والمئات من الحضور بكوا مثله.. صاح بأعلى صوته أسمعوا هذا هو المجاهد.. هذا هو المناضل.. عبد زيد يسوه (بقيمة) أكثر من (1000) اقطاعي سارق مضطهد لآلاف الفلاحين المحرومين البؤساء.. هذا هو المسلم.. هو المؤمن.. هذا هو من احباب الله وليس المتدينين الدجالين.. ثم عرج الشيخ حسن على واقعة الطف وما فيها من ظُلامة.. واخيراً رفع يديه يدعو الله ان يحفظ الثورة وقادتها من كل مكروه..

قبل منتصف الليل طرق باب بيته أحد المحبين وطلب منه مغادرة المدينة فقد اتفق الاقطاعيون آل.. و آل... و آل... وغيرهم على قتله... فما كان من الشيخ الا ارسال ولده الكبير الى الحاج عبد الزهرة، صاحب اللوري (الباص) الخشبي، لينقله وعياله الى النجف.. الى بيت وقف الذرية العائد لآل الخفاف في محلة الحويش.. ومن هنا بدأت مسيرته الجديدة مع رجال الدين في مدينة النجف ليشكلوا جماعة رجال الدين الاحرار.. جماعة غير نمطية، آمنت بأن الدين يخدم الانسانية، ويخدم الوطن، وكل ما يضمن مستقبل الوطن.

وفي عام نكسة التيار التقدمي الثوري وهو عام 1963 اوتي بالشيخ حسن موقوفاً من قبل الشرطة، وأودع في التوقيف، وفي اليوم الثاني عصراً كتفت يداه بعمامته وسيق به في شوارع وازقة الحيرة وابو صخير ليرموه الاطفال والصغار بالحجارة.. عندها ضحك الشيخ فسأله الشرطي لماذا تضحك.. فأجابه الشيخ هؤلاء الفتية انا عقدت آباءهم على امهاتهم، وبعد (45) يوماً أطلق سراح الشيخ، بعد ان عرفت جماعة الحرس القومي ان الشيخ لا تنظيم عنده بل هو رجل مؤمن بثورة الجياع، يهتدي بقول الامام (علي) عجباً على من لا يجد قوت يومه ولا يشهر سيفه!

رجل آمن بكل عقل ووجدان (اليسار الاسلامي) وأدرك ان الاسلام يسار ويمين.. يمين اتضح جلياً بالفكر القومي العربي والقبلي القرشي الذي استندت إليه الدولة

الاموية.. واتضح بالأرستقراطية العباسية وبالانتهازية الطبقية العثمانية.

اعيد الشيخ معلما في مدارس النجف واستمرت مجالسه الحسينية بطابعها الثوري، التي يمزج فيها ما بين ثورات الماضي الاسلامي وحاضر الامم الرازحة تحت نير الاستعمار والنهب الامبريالي.. غادر هذه الحياة بعد عمر ناهز (82) عاما، تاركا ذرية جبلت على الفكر اليساري، لا تؤمن الا بالوطن وبالاشتراكية باعتبارها الصورة المعاصرة للعدالة الاجتماعية التي نادت بها الاديان، وجميع الفلسفات الانسانية.

نسأل هل جماعة رجال الدين الاحرار التي تشكلت في العراق بعد ثورة تموز كانت ظاهرة طارئة متفردة، لا يمكن تكرارها أم انها كانت حصيلة ما شاع من مفاهيم: الثورة والثورية والحرية والاستقلال والوطنية والديمقراطية بمعناها الاجتماعي لا بمعناها الفردي، والامبريالية والاستعمار ونضال الشعوب في القارات اسيا وافريقيا وامريكا اللاتينية.. ثقافة عملت طلائع الشيوعيين على نشرها بين الناس، فكسرت الثقافة التقليدية النمطية؟

كان مناضلو الحزب يرون في اية مناسبة وطنية او قومية او اممية فرصة للاقتراب من الجماهير لدعوتها الاحتفال بهذه المناسبة ليكون ذلك فرصة نضالية لتعميق وترسيخ المفاهيم الثورية للحياة، ولأجل ان لا تبتعد هذه الجماهير عن هذه المفاهيم.

هذا يعني بالإمكان العمل على تشكيل جماعة رجال الدين الاحرار لتكون عوناً لجماعة (تشرين) المناضلة من اجل وطن، وليس المقصود من الوطن هنا الوطن الجغرافي، رقعة الارض بحدودها السياسية، بل وطن سياسي يضمن القانون حقوق المواطنين ويحدد واجباتهم إزاءه.

لقد مرّت الكثير من الفرص ذات الوظيفة التي يمكن من خلالها التفاعل مع الجماهير، لعل آخرها كانت حرب اسرائيل على غزة، وهي بمثابة حرب بين قاعدة الامبريالية الغربية وبين جماهير الشعب الفلسطيني، الذي سلبت اراضيه وما زالت تسلب في كل يوم. ارى من المفترض ان تشهد شوارع وساحات تشرين تواجدا جماهيريا واسعا، اسنادا لجماهير الشعب الفلسطيني وعودة لمفاهيم الثورة والثورة الاممية وتعميقها في عقول ووجدان الشباب العراقيين. اننا نشير الى ان الاستعمار والقوى الامبريالية بدلّت اساليبها التقليدية فلجأت الى (استعمار العقول!!) وهذا النمط الجديد من الاستعمار يراد ان يقابله نمط جديد من النضال.. تبقى هذه مهمة الشيوعيين اولاً واليسار سواء في العراق ام في عموم العالم العربي، فاستعمار العقل العربي أمسى واضحا!

من كل ما تقدم تبدو الادلة العلمية واضحة، لا لبس فيها من أن ثورة 14 تموز، ثورة ومن يصنفها بالانقلاب العسكري، يحاول ان يقلل من قيمتها التاريخية ومن دورها التاريخي، وهذه المحاولة بدأت واستمرت تصدر من صفوف المعادين لهذه الثورة العظيمة التي حولت صفة البلاد من نظام حكم العائلة الواحدة المتوارثة لدفة الحكم الى نظام جمهوري. اما القلق السياسي الذي استمر في البلاد من 1958 والى اليوم، فهو قلق يتجاوز 14 تموز 1958 الى 23 آب 1921 ويتجاوز هذا التاريخ الى 1258م. والقلق السياسي

الاخير الذي عشناه نحن العراقيون ليس من اسباب الثورة، بل من نتائجها حيث عملت الثورة، وكان هذا دورها الطليعي، على تنوير الحياة في العراق، وهي حالة تنوير مرفوضة من قبل طبقات الاقطاع ورأس المال والبرجوازيين، فوصفوها بحالة الفوضى وسيطرة (الرعاع)، هكذا يحاول قاموس المفاهيم البرجوازية تشويه الحقائق، فيصف النضال (بالإرهاب)، ويصف الثورة بالخروج على (طاعة الدين والعرف والتقاليد).

لننتبه الى (استعمار العقول) حيث دفع هذا الاستعمار في العراق وعالمنا العربي الى رفض الشباب معاني الحرية والاستقلال والثورة والثورية والاممية والاشتراكية والذمة في رقاب النخبة الوطنية المثقفة، لا سيما النخبة الطليعية التي تدرك أهمية التغير الطبقي لظواهر الحياة.

الهوامش:

1- انتوني غيدنز - (2001) - علم الاجتماع - ترجمة فايز الصياغ- المنظمة العربية للترجمة ومؤسسة ترجمان – بيروت- عمان/ الأردن- ص198.

2- Webster's Columbia Concise Dictionary of English- language -U.S.A. P622

3- جماعة من الأساتذة السوفيت (--) المادية الديالكتيكية- ترجمة فؤاد مرعي وبدرالدين سباعي وعدنان جاموس- دار الجماهير- سورية.

4- كارل ماركس وفردريك انجلز (1848)، البيان الشيوعي- ص 9.

5- حنا بطاطو (2005) – العراق: الكتاب الأول- الطبقات الاجتماعية والحركات الثورية في العهد العثماني حتى قيام الجمهورية (ترجمة عفيف الرزاز) الطبعة الأولى- مطبعة فرصاد- طهران- ص 207

6- ينظر في:
- احمد علي الصوفي (1970) تاريخ بلدية مدينة الموصل – مطبعة الجمهور – الموصل.
- حسين محمد القهواتي (1978) دور البصرة التجاري في الخليج العربي، 1869 - 1934، بغداد.

7- حنا بطاطو – المصدر السابق - ص 168.

8- المملكة العراقية، وزارة الاقتصاد- مديرية الصناعة العامة، التقرير السنوي للسنوات -1949 -1954 مطبعة الحكومة.

9- المملكة العراقية، وزارة الاقتصاد - مديرية الصناعة العامة، المصدر السابق.

10- ينظر في: علي الوردي (2009)، دراسة طبيعة المجتمع العراقي - الطبعة الأولى (إعادة طبع) دار ومكتبة دجلة والفرات، بيروت - ص 411.

ثورة 14 تموز 1958 .. رؤية من الداخل

(انطباعات مصطفى علي وزير العدل في حكومة الثورة)

إعداد: الدكتور سيف عدنان ارحيم القيسي
تدريسي في الجامعة العراقية- كلية الآداب - قسم التاريخ

كتب كثيرون من المهتمين بثورة 14 تموز 1958 عن العوامل المباشرة وغير المباشرة للثورة. وسطرت العديد من المصادر والدراسات الاكاديمية. كما دوّن سياسيو مرحلة الثورة مذكراتهم، ونقل كلٌ منهم انطباعه ورؤيته للثورة. وقد دوّن السياسيون والحزبيون تلك المذكرات، كلا حسب رؤيته للثورة. وبين هذا وذاك لم تكن هناك رؤية واقعية، لما دوّن في تلك المذكرات. أي التجرد في الكتابة، غالبها بين مادح وقادح، وهذه تعود الى ما شهدته الثورة من الانفتاح النسبي، ومن ثم الصراع الايديولوجي للقوى السياسية التي وجدت في الثورة فرصة للتعبير عن اهدافها، والتشبث بما حققته الثورة للقوى السياسية.

وهذا ما دفعني الى تسليط الضوء على رؤية قلمية كتبت بشيء من الحيادية عن الثورة وما رافقها من انجازات، وما تعرضت له من اخفاقات كتبها، مصطفى علي اول وزير للعدل في حكومة الزعيم عبدالكريم قاسم.

وقد يتبادر للبعض ليطرح تساؤله: من هو مصطفى علي؟

مصطفى علي محمد القيسي من مواليد بغداد 1900، خريج دار المعلمين الابتدائية، ومن ثم التحق بكلية الحقوق، ومن الذين أسهموا في بلورة الفكر التقدمي الاشتراكي في العراق اي من اعضاء حلقة حسين الرحال (جماعة الصحيفة) 1924، ورئيس تحريرها. بدأ مصطفى علي بواكير شبابه بتناول اهم القضايا الاجتماعية في العراق، ومنها تحرير المرأة والعدالة الاجتماعية. كما انصرف لشغل وظائف عدة ومنها عضو مجلس النواب العرقي عام 1937 ابان انقلاب بكر صدقي، ومن ثم قاضيا في عدة الوية عراقية حتى قيام ثورة 14 تموز 1958 ليتم اختياره وزيرا للعدل؛ حيث تم ترشيحه من قبل عبدالكريم قاسم الذي يرتبط بمصطفى علي بعلاقات عائلية، فكان والده (قاسم البكر) يعمل في ورشة والد مصطفى علي (نجارة الشناشيل). ويعد مصطفى علي بمثابة استاذ لعبدالكريم قاسم وقد تأثر بما

حمله مصطفى علي من رؤية تقدمية لمستقبل العراق.

لمصطفى علي العديد من المقالات والمؤلفات والتي تنوعت ما بين الادب فهو الصديق الملازم للشاعر معروف عبدالغني الرصافي وما بين الكتابة عن المجتمع ومنها مؤلفه (جرائم مرت امامي) وبين ما دونه من اليوميات والتي تناولنا جزاء منها في هذه الدراسة، حيث دوّن ما علق في ذاكرته عن الثورة منذ قيامها.

وزيراً للعدل بعد ثورة 14 تموز 1958[1]

يقول مصطفى علي انه انشغل في السنوات التالية التي سبقت ثورة 14 تموز في الوظيفة التي تعد مهمة صعبة ومسؤولية شديدة الوطأة على ذوي النفوس الأبية والضمائر الحية.

استدلت الاوضاع العامة في العراق لاسيما في السنوات الاخيرة من عمر نظام الملكية، على ان النظام سيزول لا محال في ظل المتغيرات العالمية وحركات التحرر التي شهدها العالم وجاءت الفرصة لإزالة النظام في 14 تموز 1958 على يد تنظيم الضباط الاحرار بزعامة عبدالكريم قاسم.

لم يكن لي علم بالثورة ولا بحدوثها من قبل، يقول مصطفى علي، ذلك لأنني رأيتها ثورة وطنية شعبية على الاستعمار وصنائعه وأذنابه وعلى الإقطاع والرجعية وهي التي كنت أريدها وأتمناها.

فكنت ليلة 13/ 14 تموز، قد خرجت مع أسرتي مساء للتنزه في الحديقة التي تقع أمام المقبرة الملكية ودار المعلمين الابتدائية في الاعظمية على مقربة من دارنا.

وبعد العودة من تلك النزهة آويت الى فراشي لأفاجئ في الصباح بنبأ اندلاع الثورة وتعييني وزيراً للعدل[2]. يبدو ان الاستيزار جاء بناء على ترشيحي من قبل عبدالكريم قاسم نفسه[3].

يقول مصطفى علي: سمعت بأن عبدالكريم قاسم هو أحد أبرز ضباط الثورة، والذي تربطني به علاقات عائلية قديمة، وعادت بي الذاكرة الى ذلك الصبي الذي كان في عهد تكوينه النفسي، الفتى الذي كان يأتي إلى داري ويجلس عند قدمي فكنت أكبره بأربعة عشرة عاماً ليستمع إلى أحاديثي وآرائي وظل عبدالكريم قاسم ملازماً لي.

وقدمت من خلال كوني وزيراً للعدل من القوانين ما رأيت فيه الفائدة للشعب الثائر، وما تتطلبها الضرورة لتقدم المجتمع العراقي، وقد شرّع بعضها وأخّر رئيس الوزراء بعضها، فلم يعرضه على المجلس لينظر في تشريعه، وكلما كلمته ماطل وسوّف دون أن يبين السبب.

جدل حول الدستور العراقي المؤقت[4]

يقول مصطفى علي انه بعد قيام الثورة، شكلت لجنة قانونية للبت في الدستور العراقي المؤقت، ومن ضمن المقترحات التي طرحتها هو التأكيد على ضرورة حذف المادة التي تنص "على ان الدين الاسلامي دين الدولة الرسمي"، ما أثار ضغينة عبدالسلام عارف تجاهي، وكان رده بأن "مصطفى علي يريد أن يجعل الدولة علمانية".

لقد صدق في قوله لأنني اقترحت هذا الاقتراح، وأبديت هذا الرأي ولي من إخلاصي وحسن نيتي وشرف مقصدي خير شفيع. إن هذا رأيي الذي أعتقد به ولا أرى غير سواه مجدياً ومفيداً في سياسة العراق.

الاجتماع الاول لمجلس الوزراء مع اعضاء مجلس السيادة

ورأيي هذا لابد أن تحققه الأيام اذا تولت الأمر أياد تستمد سياستها من واقع الشعب، رضي عبدالسلام أم سخط.

وما دعاني إلى اعتناق هذا الرأي كوني أنظر إلى الشعب ككتلة واحدة متراصة، يعز عليّ أن تفرقها النحل وتشتتها الأهواء. فالعراق يقطنه شعب يختلف قومية وطائفية ودينا، وأن كل عنصر من هذه العناصر إذا قام يدعو بما ينتسب اليه، انتفخت أحاسيس الآخرين وتألبوا عليه فقاوموه وأحبطوا مسعاه، فالرأي عندي هو أن يحذف من دستوره النص على دين الدولة الرسمي، لكي يشعر الشعب بوحدته، فلا يرى بعضه غريباً عن بعض، ولكي يشعر بالمساواة أبناؤه، فلا تتدخل الخلافات الاعتقادية والقومية في الامور العامة، ثم ليعبد كل فريق منهم معبوده الذي يقدسه ويعتنق ما شاء من الأديان، وليقلد ما شاء من المذاهب.

وأنا اقترحت اقتراحي وأبديت رأيي بصراحة، لأنني تصورت الوقت مواتياً لنرمي هذه الخطوة الجريئة التي تتطلبها مصلحة الشعب، فيما أرى أننا في ثورة ولأننا ثائرون والثورة قادرة على أن تعمل ما لا يقدر على عمله سواها. وفي استطاعة الثورة المخلصة أن تغير، وفي وسعها أن تقلب وتبدل، بل هي ما قامت إلا لتغير وتقلب وتبدل.

لقد أملت في الثوار خيراً، وتوسمت فيهم جرأة وإقداماً على عمل ما يفيد الشعب، ويصلح شأنه، يقول مصطفى علي، ويضيف: فاقترحت اقتراحي وهو رأي يجب أن أبديه في جو حر يفهمه ويدركه، وفي جو أوسع حرية وأكثر فهماً وإدراكاً من جو مجلس وزراء الثورة.

هذا ما كنت أفكر فيه عندما صدعت باقتراحي، فيم يحقد عبدالسلام، وقد تم له

ولمجلس الوزراء ما أرادوا، ونص الدستور المؤقت على المادة التي تعين دين الدولة الرسمي، ووافقتهم حين لم أجد لرأيي سميعاً، ولا لقولي مستجيباً، وحين تبين لي أن ما أردته لم يحن زمانه، ولا أظلنا أوانه، ثم وقعته كما وقعوه.

إنّ ما اقترحته لم يكن شيئاً جديداً بالنسبة إليّ، ولا رأياً مرتجلاً، ولا هو فكرة مستحدثة أوحتها صورة عبدالسلام وصحبه فقد كنت اعتقد بهذا الرأي، وأستمسك به منذ عهد بعيد، ثم أعلنته وكتبته غير خائف، ولا متردد، ونشرته لي جريدة "العراق" في 24 نيسان 1928 في ضمن مقالات قصيرة، كنت انشرها بعنوان "في هامش السجل".

كتبتُ تلك الكلمة على أثر إعلان الدستور التركي الذي وضعته ثورة مصطفى كمال، وقد كانت تلك الثورة قبلة أنظار الشرق العربي والإسلامي، وكان بطلها المثل الأعلى لأحرار الفكر في هذا الشرق والمقتدى الذي يوجهون وجوههم شطره، والزعيم الذي يهتدون بهديه ويستنيرون بآرائه ويترسمون خطاه.

ولا أعلم أين كان عبدالسلام يوم كتبت تلك الكلمة، ولا في أية مرحلة من مراحل الدراسة وليت شعري هل كان مستواه الثقافي يمكنه من ان يقرأ ما كتبت، وهل كان في وسع إدراكه أن يفهم معنى ما أردت، وهل كان في استطاعة تفكيره أن يستوعب مغزى ما رميت إليه.

إذا كان عبدالسلام لضيق عقله يحقد عليّ لاقتراح قدّمته بكل حرية وصراحة إلى مجلس الثورة في سنة 1958 فقد كانت الصحافة التي نشرته في سنة 1928 أقوى منه جرأة وإقداماً وأسمى تفهماً وإدراكاً لحرية الفكر، وكان الناس أرحب منه صدراً وأوسع حلماً وأرجح عقلاً وأفضل إدراكاً، فالصحافة تقبلت لكمتي وفتحت لها صدرها والناس قرأوها ولا شك في انهم فهموها، فلم يغضبوا عليّ، ولا انكروا منها شيئاً.

وإذا كنت احمل ذلك الرأي عن إيمان به، واعتقاد بضرورته لمصلحة الشعب ثم كتمته فلم اصدع به في جوّ لا يناسبه جواً سواه إلا بعد إحجامي جبناً وخوراً.

محكمة الشعب

من جملة ما شرعت به ثورة 14 تموز، هو تشريع قانون رقم (7) لسنة 1958 بشأن معاقبة المتآمرين على سلامة الوطن ومفسدي نظام الحكم[5]. وتم تشكيل المحكمة العسكرية العليا لهذا الغرض والتي عرفت باسم "محكمة الشعب" لمحاكمة أفراد العهد الملكي السابق وارتبطت بها مهام أخرى لمحاكمة كل من يتآمر ضد الثورة، وشكلت لجنة لوضع آليات المحكمة، وكنت رئيساً لتلك اللجنة كوني وزيراً للعدل. وبعد الانتهاء من وضع لائحة المحكمة صدر المرسوم الجمهوري المرقم (18) في 20 تموز 1958[6]، وبدأت المحكمة بمتابعة القضايا الموكلة لها، ومنها معاقبة المتآمرين على سلامة الوطن ومفسدي نظام الحكم.

في الحقيقة كان تشكيل المحكمة على غرار القانون الذي شرعته ثورة 23 يوليو 1952 لمحاكمة رجال العهد السابق، ولكن سرعان ما حسمت قضايا رجال العهد الملكي لتنظر بقضايا المتآمرين على الجمهورية، وتحولت المحكمة إلى قاعة للتنكيل بالخصوم.

فوجهت نقداً لاذعاً لسير المحاكمات بسبب أساليب السباب والتنابز بالألقاب وهو

سبيل من أعوزته الحجة وأعياه الدليل، وما أحسب أن هذا هو الأسلوب الأمثل في كتابة التأريخ بحوادث مضى عليها أكثر من ربع قرن فأين ذهبت حكمة الشيوخ وقوله تعالى "ولا تنابزوا بالألقاب بأس الاسم الفسوق بعد الإيمان ومن لم يبتعد فأولئك هم الظالمون".

عطلة 21 آذار (نوروز) وموقف عبدالسلام عارف

يقول مصطفى علي: اقترحت على مجلس الوزراء أن يتخذ من يوم 21 آذار عيداً وينص عليه في قانون العطل الرسمية الذي كان إذ ذاك ينظر في تعديله فعارض عبدالسلام اقتراحي معارضة شديدة، وغضب، فانتفخت أوداجه واربد وجهه وقطب ما بين عينيه ....، وكل حجته أن هذا اليوم هو رأس السنة الفارسية، ولا لزوم لاتخاذه عيداً، ولا ضرورة للاحتفال به، فدافعت عن اقتراحي، وأوضحت للمجلس أن الأكراد إخواننا وشركاؤنا في الوطن، يعتبرونه عيدهم القومي، وأن الطائفتين الإسلاميتين في العراق، تحتفلان به، والبصرة ما زالت تحتفل كل عام بهذا اليوم احتفالاً شعبياً عاماً، وقد اختارت نهر "الخورة" محلاً لإقامة احتفالها، وكانت الحكومة تشارك الشعب في افراحه ومسراته بحضور متصرف اللواء ورؤساء الدوائر الرسمية وموظفيها، وإن لم تعطل الدوائر تعطيلاً رسمياً. وقد حضرت هذا الاحتفال سنوات عدة وشاهدت ما كان يجري فيه، وأعجبت بسلوك الشعب المحتفل، ورأيته كيف كان ينطلق بكل حريته ويظهر منتهى هدوئه ووداعته، فلا يظهر بين المحتفلين أي إزعاج، ولا يبدو أي اعتداء بل تجد كلاً منهم منصرفاً إلى لهوه وأنسه، ناعماً بمرحه وسروره، وما هذا الاحتفال الا بقايا اثرية للمهرجان الذي كان يقام في العهد العباسي.

عندئذ وافق مجلس الوزراء على اتخاذ هذا اليوم عيداً، وأراد أن يلطف وقعه في نفس عبدالسلام، فسماه عيد الربيع أو عيد الشجرة، فقبله على مضض، وكظم غيظه في أعماق نفسه، وظل حاقداً، فلم تنحل عقدة نفسه، ولا انفرجت أزمتها، الا بعد ان الغاه وأخرجه من بين الأعياد الرسمية، إلا هكذا فلتكن أخلاق المسلم العربي.

عدّل عبدالسلام وزمرته قانون العطل الرسمية بعد نجاح انقلابهم (في 8 شباط 1963 – المحرر) فألغوا عيد 21 آذار، لأنه في زعم عبدالسلام عيد فارسي، وألغوا عيد السلامة والابتهاج، لأنه عيد عدوهم عبدالكريم قاسم من الموت، ولكن ما بالهم ألغوا عيد الحرية وهو اليوم الذي خرج فيه العراق من حلف بغداد الاستعماري؟ فما الذي أعدوا للدفاع عن أنفسهم وتبرئتها تجاه من يتهمهم بعمالتهم للاستعمار بإلغائهم هذا العيد.

قانون الاحوال الشخصية وجدل مع شيخ الازهر

أثار قانون الاحوال الشخصية رقم (188) لسنة 1960 جدلاً واسعاً، حتى أثار فضول شيخ الأزهر الشيخ شلتوت[7]، فأرسل كتاباً من أعلى كرسيه الديني يفند فيه قانون الأحوال الشخصية، ويطلب أن يلغى، ويرمي مشرعيه بعدائهم للقران الكريم!

إن قانون الأحوال الشخصية هذا هو الذي استفز المعارضون بل الحاقدون الموترون

نفوس الناس ولقنوهم ما أراد شيخ الأزهر قبل أن يكتب كتابه وما أراد غيره ممن هم على شاكلته وغراره ولما كنت أنا الذي قدمت لائحة هذا القانون إلى مجلس الوزراء لتشريعه بصفتي كوني وزيراً للعدل، فإن الحاقدين بطبيعة حقدهم يصوبون سهام نقمتهم نحوي قبل كل أحد.

وقبل أن ادافع عن نفسي، لا بد لي من ان امهّد بكلمة اناقش بها شيخ الازهر فأقسم عليه بالله العظيم وبالدين الذي هو اليوم من زعمائه ورجاله، وبالأمانة الدينية التي يحملها على عاتقه أكان غضبه لوجه الله ووجه الحقيقة، إذا كان لم يرد بغضبه سوى وجه الله ووجه الحقيقة فهل القوانين التي سنتها الحكومة المصرية قبل ثورة يوليو/ تموز وبعدها كلها قوانين تنطبق على احكام الشريعة الاسلامية ولم تخالفها ولا انحرفت عنها أبداً.

وهنا لا محيص له عن الجواب فإن أراد أن يجيب بموافقة قوانينها للشريعة الإسلامية فأرجو الا يتعجل بالإجابة، قبل أن يدرس تلك القوانين وقبل أن يقتلها معرفة وخبراً، وإن كان جوابه بالنفي، فلماذا لم يعترض على حكومته، ولا احتج على ما شرعت؟

لقد كان الأجدر به أن يبدأ بحكومته فيرشدها إلى احكام الشريعة الإسلامية، إذا رآها قد حادت ويسدد خطاها إذا رآها قد زلت، ويهديها الصراط المستقيم إذا رآها قد ضلت، وحينئذ يكون لقوله وقعه وتأثيره في قلوب سامعيه وحينئذ يعتقد الناس ان يصدع بحق وينطق بصدق وينصح بإخلاص.

كان عليه إذن أن يبدأ بحكومته قبل أن يتناول حكومة أخرى فيلقي عليها وعلى شعبها درساً في الاستفزاز السياسي باسم الدين.

اذكر شيخ الازهر وهو في مركزه الروحاني، وفي إطار هالته المقدسة بالآية الكريمة "أتامرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم"، سورة البقرة (اية 44).

ثم اقسم عليه بالله العظيم عالم السر والنجوى وبالدين الذي يتعبد به ربه، وبالأمانة الدينية التي في عنقه أكان اعتراضه بريئاً من السياسة أم كان خاضعاً لدسائسها ومكايدها، إذا ادعى أن زعيم دين لا يتبرأ من السياسة فليقل أهو دين عام يشمل المسلمين جميعهم وينتظم حكوماتهم كلها أم تستثنى منه الحكومة المصرية؟

خير لرجال الدين إذا كانوا صادقين مخلصين أن ينصرفوا الى واجباتهم الدينية وإلى نصح المسلمين وإرشادهم، وإلى تعليمهم أصول دينهم وكيفية أدائهم شعائر دينهم، وحسن القيام بفروضهم وواجباتهم الدينية، وأن ينزهوا نفوسهم عن المحاباة، ويربؤوا بها عن أن يكونوا الآلات وأدوات بيد السياسة وألاعيبها، تصرف قلوبهم وتستخدمهم كيف شاءت ومتى أرادت وإلا أساء إلى أمتهم، وعقّوا دينهم، وخانوا الأمانة المنوطة برقابهم.

هذا ما أقوله لشيخ الأزهر غير طامع منه بجواب لعلمي أنه غير مستطيع أن يجيب جواباً صريحاً صادقاً، لا يعدو الصواب ولا يجانب الحق. ولمعرفتي أي طريق يسلك وأي اسلوب يتبع إذا أراد أن يجيب.

ومهما يكن جوابه ومهما تكن الطريقة التي يسلكها والأسلوب الذي يصطنعه فإنه لا يتمكن من أن يبرئ نفسه من معرة الاستسلام لسلطان السياسة القائمة في مصر والنطق بما تريده وتمليه عليه والدين بريء مما تريد السياسة أو مما يريد هذا النوع من السياسة

وأحابيلها وعلى ذكر الدين والسياسة انقل للاستئناس.

ولو كان شيخ الأزهر يرعى للدين حرمة وذماماً ويسعى لإقامة عموده لساوى بين المسلمين وعاملهم بالعدل والحق والمساواة، ولو أنه بدأ بحكومته ففند قوانينها وانتقد ما يخالف الشريعة الإسلامية منها لعذرناه واحترمنا رأيه وقلنا: رجل مأمور بتطبيق احكام شريعة فلا يقضي على منكر ولا يرضي بما يخالفها، ويخرج على نصوصها، وأنه شجاع مقدام لا يهاب قوة ولا تأخذه في الحق لومة لائم، فهو إذن أهل للإكبار ورأيه جدير بالاحترام.

أما ان يسكت على مخالفات حكومته ويعترض على حكومة اخرى حرصاً على إرضاء السياسة التي تنتجها حكومته فهذا عمل يجب ان يعافه ويأباه من تسنم كرسي الزعامة الدينية، ويجب أن يبرأ منه وينزه عنه ضميره، لأنه لا يليق بإنسان يشعر بإنسانيته ويعرف قدر نفسه. لقد أفترى علينا شيخ الأزهر عدا وصمنا بوصمة عدائنا للقرآن.

لسنا أعداء يا هذا لا للقرآن ولا لغيره من كتب الأديان، إنما نحن أحرار تقدميون دعاة تحرر، وطلاب اصلاح مخلصون في مقصدنا، نبلاء في غاياتنا، نريد أن نسير بشعبنا في السبيل التي سلكتها شعوب العالم المتقدمة المتحررة.

نريد منه أن يفهم أنه يعيش في هذا العصر، عصر الذرة، عصر ارتياد الفضاء الكوني، عصر الوصول إلى القمر، عصر العزم على السفر إلى الكواكب والتنقل بين مجموعتنا الشمسية.

نريد منه أن يدرك ويعتقد أنه إذا تخلف عن ركب الشعوب المتقدمة المتحررة وقعد عن مجاراة التيارات العالمية، فإنه لا محالة هالك مضمحل.

وأخيراً، نريد أن نكون معه صادقين، نريد أن نصارحه بالحقيقة والواقع، لا أن نعلن شيئاً ونسر ضده، فنخدعه ونغشه بالأقوال المثيرة الحساسة، مستغلين طيب نفسه وسلامة قلبه.

وإذا قد فرغت من الكلمة التي أردت أن أوجهها إلى شيخ الأزهر، أعود فأتولى الدفاع عن نفسي، والدفاع حق مقدس، رضي اعداء الحق أم أبوا.

ألا فليعلم المعارضون الحاقدون أنني من دعاة تحرير المرأة ومساواتها بالرجل في الحقوق سواء أكانت سياسية ام غير سياسية، وليست هذه بصفة جديدة انتحلتها بعد ثورة الرابع عشر من تموز، فمجلة "الصحيفة" التي صدرت في سنة 1924، وما كتبت ونشرت من مقالات قبل صدروها وبعده تشهد بصدق ما أقول، فإذا ما انتهزت فرصة الثورة وأتيت بقانون يحقق جزءاً مما دعوت إليه، أو شاركت في الدعوة إليه، فما جئت شيئاً إدّا، ولا أتيت بحديث مفترى.

إنّ القضية التي صب علينا الحاقدون المعارضون جام انتقادهم وتشنيعهم من أجلها هي مساواة المرأة بالرجل في نصيبها من الإرث، ونحن في هذه القضية استندنا الى مواد من القانون المدني، هي المواد التي تقسم بموجبها الأراضي على أصحاب حق الانتقال، وهو تشريع جاءت به الدولة العثمانية دولة الخلافة الإسلامية، فكيف سكت عنه المسلمون وكيف أقره رجال الدين وارتضوه ثم ساروا عليه من وقت تشريعه إلى زماننا هذا.

أكان سكوتهم إبان تشريعه خوفاً من

سطوة الحكم يومئذ، وكان الفضل في رضانا به وسرنا عليه يعود الى تقادم الدهر ومرور الزمان.

إذا كان الخوف قد عقد لسان المسلمين وأخرس رجال دينهم، فلا خير فيهم، وإذا كان الفضل في قبولنا إياه وسيرنا عليه يعود إلى تقادم الدهر ومرور الزمان فاصبروا قليلاً، ولا تتعجلوا، يألف الناس قانون الأحوال الشخصية وأحكامه، كما ألفوا أحكام قانون الأراضي.

قد يقال إن هذه الأراضي ليست من الأراضي المملوكة بل هي أراض أميرية وقد سنت لها الدولة العثمانية هذا التشريع الخاص فأجيب بأنها لو لم تسنه لخضعت الأراضي الأميرية في تقسيمها لأحكام الفرائض الشرعية حتماً. فالدولة العثمانية، إذن بتشريعها هذا عطلت دون شك ولا ريب حكماً من أحكام الشريعة الإسلامية، وهي على تعطيلها هذا الحكم لم تسمع نقداً ولا تجريحاً كما سمعنا، ولم تلاق شتماً ولا تشنيعاً كما لاقينا.

ولعل المشروع العثماني اتخذ من هذا التشريع خطوة اولى في سبيل الوصول إلى مساواة المرأة والرجل في الميراث، مساواة عامة شاملة، غير أن الأحداث والظروف لم تمهله.

ونحن إذا أردنا أن نتقصى السبب الذي أثار ثائرة المعارضين الحاقدين لما وجدناه غير مزيج من أنانية الرجل، ومن الدافع الاقتصادي فالرجل يريد أن يستأثر بالثروة ويستولي على المال ليتمتع بهما، ولتدوم له السيطرة على المرأة ويدوم له البقاء سيداً متحكماً في شؤونها.

وكم رأينا وكم سمعنا بنساء وارثات تغلب عليهن الرجال فسلبوهن إرثهن المفروض لهن بنص الكتاب، وتركوهن سجينات دورهن أسيرات العوز والفاقة، يستدرن أكف المغتصبين ويتسقطن صدقاتهم إن هذا هو السبب الحقيقي وإن ألبسه المعارضون المفترون لباس الدين.

لو سلمنا جدلاً أن قانون الأحوال الشخصية جاء مخالفاً للشريعة الاسلامية وأراد به مشرعوه محاربة القرآن، كما زعم شيخ الأزهر، فهل هو بدع في القوانين، وهل استقل هو وحده بهذه المخالفة وانفرد بها، وهل قوانين العراق كلها سنت وفق أحكام الشريعة الاسلامية؟

لا أود أن أذهب بعيداً فأستعرض القوانين جميعها فأتعب القارئ وأضيع عليه وقته بل حسبي أن أورد بضعة أمثلة، أوضح بها رأيي واعزز بها دفاعي ولو كانت نزرة قليلة:

أولاً: إذا سألت المعارضين الغاضبين هل تنطبق أحكام قانون العقوبات المعمول به في العراق على الحدود التي جاءت بها الشريعة الإسلامية فماذا يجيبون؟

وإذا تحديتهم فقلت أروني سارقاً قطعت يداه أو زانياً جلد أو زانياً محصناً رجم، فبماذا يردون على ما تحديتهم به؟

ثانياً: كيف جاز للحكومة الإسلامية أن تتعامل بالربا وهو محرم بنص القران "وأحل الله البيع وحرم الربا" (سورة البقرة- أية: 275)؟

كيف أجازت بقوانينها وأنظمتها أن تتعامل البنوك بالربا، وأن تحكم المحاكم بها[8]، وكيف أحلته لدوائر أموال القاصرين؟

أما إذا قيل هذا "نماء" وذاك "فائض" فإنه قول لا يعدو التلاعب بالألفاظ واللجوء الى الحيل الشرعية، ولا ترى أكثر من

التلاعب بالألفاظ والحيل الشرعية مفسداً لأخلاق المجتمع.

على أن هذا القول بمثابة برقع رقيق يشف عمّا وراءه، لا يحجب وجه الحق، ولا يحل الربا وإن تعسف المتعسفون وغالط المغالطون.

ثالثاً: كيف حلّ للحكومة الإسلامية أن تجبي المكوس عن الخمور؟ وكيف حلّ لها أن تستوفي رسوم الإجازات من بائعيها، وتسمح لهم أن يتعاطوا بيعها علناً؟

رابعاً: وفق أي حكم من أحكام الشريعة الإسلامية أباحت الحكومة الإسلامية فتح الملاهي والمراقص والحانات وأخذ الرسوم عن إجازاتها؟

خامساً: هل أجازت الشريعة الإسلامية وهل أفتى أحد من رجال الدين الإسلامي بمنح إجازات للمقاهي والمطاعم التي تفتح أبوابها في شهر رمضان، وباستيفاء الرسوم عنها؟

والأنكى من إقدام الحكومة الإسلامية على أن تجيز فتح المقاهي والمطاعم في شهر رمضان لمن ترى إجازته من أصحابها أن المجازين بفتحها اعتادوا أن يضربوا دونها حجباً وأستاراً يريدون بها كتمانها وإسرارها وهم إنما يريدونها بحجبهم وأستارهم مجاهرة وإعلاناً.

أما بعد، فإذا كانت الشواهد التي قدمتها توافق الشريعة الإسلامية ولا تخالفها فقانون الأحوال الشخصية يستند إلى الاسس الشرعية التي اسندت إليها تلك القوانين والأنظمة وإذا كانت أحكامها تخالف الشريعة الإسلامية فلقانون الأحوال الشخصية اسوة حسنة فيها فعلام تلك الجعجعة وفيم ذلك الصخب والضجيج؟

إن سبب تلك الجعجعة والدافع لذلك الصخب والضجيج سواء أسمعناها انبعثت في العراق أم قرأناها في كتاب شيخ الأزهر الذي جاءنا من مصر فالسياسة ليس غير. السياسة التي ما دخلت شيئاً إلا أفسدته. السياسة التي لا تعرف الا مصلحتها وليكن بعد مصلحتها الطوفان، فسياسة جمال عبدالناصر المعادية والمناوئة لسياسة عبدالكريم قاسم، هي التي أثارت أبواقها في العراق، وهي التي حرضت شيخ الأزهر.

حركتهما ودفعتهما بعاملين اثنين: عامل الحسد لأن العراق خطا بذلك القانون خطوة تقدمية جريئة بعيدة المدى، لم تجرؤ السياسة المصرية على أن تخطوها، وعامل الضمان الأكيد في إثارة شعور الكراهية ضد السياسة التي يتبعها العراق، فالوتر الذي تضرب عليه تلك الدعاية حساس مرهف الحس، يتيح للمعارضة أن ترفع صوتها عالياً، وترسله مدوياً فيجد له آذاناً مصغية، وقلوباً مفتحة، وبذلك تستطيع سياسة جمال عبدالناصر أن تنال من سياسة عدوها عبدالكريم قاسم.

أما كون هذا عملاً إجرامياً تجاه شعب شقيق، فهذا ما لا تعرفه السياسة، ولا تفكر فيه، وأما كون مصلحة ذلك الشقيق ستمنى بالغبن والخسران، فهذا ما لا تفهمه السياسة، ولا يخطر لها ببال.

هذا ما أقوله في الدفاع عن نفسي إزاء الطعنات التي وجهت إلى قانون الأحوال الشخصية وإلى واضعيه، وتجاه ما أقيمت حوله، وأثيرت من ضجة مفتعلة، وما أردت أن أسهب في الدفاع ولا أن أتوسع في الشواهد اتباعاً للقول السائر "يكفيك من القلادة ما أحاط بالجيد".

لقد كنت في حديثي حراً طليقاً دافعت

به عن نفسي، دفاعاً صريحاً واضحاً لا غموض فيه ولا التواء، وجادلت وتحديت بثقة وإيمان جدالاً وتحدياً معززين بالدلائل والبراهين المستمدة من واقع حياتنا، ولعل هناك من لا تعجبه حرّيتي وصراحتي ولا تقنعه دلائلي وبراهيني فيتصدى للرد علي، ويتولى تفنيد آرائي وحججي، ونقض دلائلي وبراهيني فأتمنى لهذا التصدي أن يكون حر النفس، صريحاً واضحاً، كما كنت، ويقرع حجتي بحجة مثلها مستمدة من واقع الحياة وصميمها فينير أمامي السبيل، إذا رآها قد أظلمت، ويهديني سواء الصراط إذا رآني قد تنكبت محجته.

أما من تعوزه الحجة فيصطنع الشتم والاقذاع أما من تخونه البيّنة فيلجأ إلى التشنيع والتكفير، وإحلال الدماء فليس لهذا ولا لذاك عندي سوى الإعراض بكل شمم وإباء، ولا لهرائها ولغوها غير الاحتقار والازدراء.

توفي الشيخ شلتوت قبل أن يطلع على مناقشتي إياه، وقبل أن يقف على دفاعي عن نفسي وليته بقي حياً لأستنير بعلمه إذا ما أراد أن يجيب، وقد رأيت أن أبقي ما كتبت على ما هو عليه، لأن المخاطب إذا كان قد فقد الاستطاعة، وعدم التمكن من الجواب فإن له خلفاء وأنصارا ومؤيدين في مصر أو في العراق أو في غيرهما من أقطار الأرض وهم مقصودون بما كتبت كما كان شيخهم الراحل مقصوداً، وفي وسعهم ان يجيبوا إن شاءوا ضمن حدود الحق والواقع وفي نطاق العلم والأدب والأخلاق.

الهوامش:

1- تفاصيل كثيرة حول دور تنظيم الضباط الاحرار والتي ختمت بثورة 14 تموز 1958، وتهيأت الفرصة لقادة التنظيم ليلة 13 - 14 تموز عندما أصدرت قيادة الفرقة الثالثة أمر الحركة للواء العشرين المتوجه من مقره في جلولاء الى الاردن بطلب من ملك الاردن بهدف تعزيز الامن في شمال بلاده، وقامت القوات التي يرأسها عبدالسلام عارف في حدود الساعة الثالثة فجر 14 تموز، توليه اللواء العشرين، وتمكن من احتلال المقرات الرئيسية في بغداد، وتمت مهاجمة قصر الرحاب ومقتل العائلة المالكة، وأذيع البيان رقم (1)، والذي اعلن سقوط النظام الملكي وقيام الجمهورية العراقية. للمزيد ينظر: ليث عبد الحسن الزبيدي، ثورة 14 تموز 1958 في العراق، دار الحرية للطباعة، بغداد، 1980.

2- وصف تقرير للسفارة البريطانية في بغداد عن أعضاء وزارة الثورة، ومن بينهم مصطفى علي والذي وصفه التقرير بأنه "يبدو من الواضح انه شخص فني وليس لديه مشاركة كبيرة في الأمور السياسية". للمزيد ينظر: مؤيد الونداوي، شخصيات عراقية في وثائق بريطانية 1935 - 1958، دار دجلة، عمان، 2017، ص319.

3- كانت اللجنة العليا للضباط الاحرار قد ناقشت المناصب الوزارية وانفرد عبدالكريم قاسم وعبدالسلام عارف وعبداللطيف الدراجي في وضع قائمة بأسماء المرشحين، وكان ترشيح مصطفى علي من قبل عبدالكريم قاسم، الذي عرف بمهنيته في سلك القضاء. للمزيد ينظر: مجيد خدوري، العراق الجمهوري، منشورات الشريف الرضي، 1976، ص71.

4- الدستور العراقي المؤقت: صدر الدستور العراقي في 27 تموز 1958، وفي الحقيقة لم يكن الدستور من عمل شخص واحد بل شكلت لجنة لوضع الدستور، ومن بين من وقع عليه الاختيار عضوا في صياغة الدستور، مصطفى علي. للمزيد ينظر: أوريل دان، العراق في عهد قاسم (1958 - 1963)، دار نبز للطباعة والنشر، السويد، 1989، ص53.

5- يتضمن القانون اثنتين وعشرين مادة، وأهمها الباب الأول والذي يتضمن (الجرائم) وجاء فيه: "يعتبر متآمراً على سلامة الوطن كل من كان صاحب سلطة عامة أو كان عضواً في مجلس الأمة أو كان مكلفاً بخدمة عامة لارتكاب فعل من الافعال الآتية او المشاركة فيه". للمزيد ينظر: الوقائع العراقية 3030، قانون رقم (7) لسنة 1958.

6- عدّل المرسوم في 15 آب 1958 بتعيين هيئة المحكمة بناء على ما عرضه مجلس الوزراء في 20 تموز 1958 وهي كما يلي:
1 - العقيد فاضل عباس المهداوي رئيساً للمحكمة العسكرية 2 - المقدم عبدالهادي الراوي (عضواً) 3 - المقدم فتاح الشالي (عضواً) 4 - المقدم شاكر محمود السلام (عضواً) 5 - الرئيس الاول ابراهيم عباس اللامي (عضواً) 6 - الرئيس كامل حسين الشماع (عضوا احتياطيا). وتتألف هيئة الادعاء العام من: 1 - العقيد الركن ماجد محمد امين 2 - الحاكم السيد غازي عبدالهادي 3 - نائب المدعي العام السيد عبدالمجيد سلام. للمزيد ينظر: وزارة الدفاع، القيادة العامة للقوات المسلحة، محاكمات المحكمة العسكرية الخاصة (محكمة الشعب)،22 جزء، 1960، ج1، ص14 - 15.

7- الشيخ محمد شلتوت (1893 - 1963) عالم ورجل دين وشيخ الأزهر في عام 1958 وكان أول حامل للقب الإمام الأكبر.

8- كان المحامي أمجد الزهاوي لا يطالب أمام المحاكم بحق موكله في الفائض، لأنه يراه ربا، والربا حرام، وكان بعد أن تتم مرافعته يقول لموكله لك حق آخر قم فطالب به، فإذا انتبه موكله وأدرك معنى ما أراد وكيله، طالب المحكمة بأن تحكم له الفائض النظامي والا ضاع حقه فيه. وأخيراً اضطر المحامي إلى ان يشارك محامياً آخر، ويدخله إلى المحكمة ليطالب بحق موكله في الفائض، بعد أن يفرغ من مرافعته.

اتجاهات الهجرة الطلابية من البلدان العربية وتحولاتها

د.هاشم نعمة

أستاذ جامعي وباحث، حصل على البكالوريوس في علم الجغرافية من كلية الآداب جامعة البصرة عام 1974. نال شهادة الدكتوراه، التخصص الدقيق الجغرافية السكانية والدراسات السكانية من أكاديمية العلوم الهنغارية عام 1989. عمل في التدريس والبحث العلمي في المدارس الثانوية ومعاهد المعلمين والجامعات ومراكز البحث العلمي في العراق والمغرب وليبيا وهولندا. شارك في عدد من المؤتمرات والندوات في العديد من الدول. نشر العديد من الكتب والدراسات والبحوث والمقالات ومراجعات الكتب، وله ترجمات من اللغة الانكليزية إلى اللغة العربية. عضو الهيئة الاستشارية لمجلة مقاربات الأكاديمية التي تصدر في المغرب.

مقدمة

على الرغم من أهمية الهجرة الطلابية عالميا، لكنها ظلت أقل دراسة مقارنة بالأصناف الرئيسة الأخرى للهجرة؛ إذ اهتمت الأبحاث قليلا أو لم تهتم أصلا بحركية الطلاب الدولية، علما أن نسبة كبيرة من المهاجرين الدوليين هم من طلاب البلدان النامية، ومنها العربية، لكن في السنوات الأخيرة، بدأت الأبحاث الأكاديمية بتسليط الضوء على الهجرة الطلابية نظرا إلى تزايدها كما ونوعا. أما عربيا فما زال هذا الموضوع لم يتم التركيز عليه كفاية في الأبحاث الأكاديمية، وغالبا ما يرد ضمن هجرة الكفاءات عموما. تهدف الدراسة إلى رصد وتحليل حجم الهجرة الطلابية من البلدان العربية واتجاهاتها، زمانيا ومكانيا، وفحص التحولات التي شهدتها في السنوات الأخيرة.

خلال العقود الماضية، ارتفعت أعداد الشباب المهاجرين لمواصلة التعليم العالي؛ إذ يتنقل 2.3 في المئة من مجموع طلاب التعليم العالي على مستوى العالم، ويذهب نصف مجموع الطلاب الأجانب إلى خمسة بلدان مستقبلة ناطقة باللغة الإنكليزية وهي: أستراليا وكندا والمملكة المتحدة ونيوزلندا والولايات المتحدة الأمريكية[1]. لذلك، باتت الدراسة في

الخارج تمثّل مصدرا رئيسا لهجرة الكفاءات. وقد استمرت حركات الطلاب الأجانب تستقطب الاهتمام السياسي في كثير من بلدان منظمة التعاون الاقتصادي والتنمية؛ إذ مثّلت مصدرا متزايدا لهجرة العمالة الماهرة. وعكس هجرة العمالة الدائمة والمؤقتة، كانت الحركية الدولية للطلاب، قد ازدادت منذ عام 2000؛ إذ ارتفعت أعدادهم من 2.1 إلى 4.5 مليون على مستوى العالم، ومن 1.6 إلى 3.4 مليون في بلدان المنظمة خلال 2000 - 2012[2] وإلى 3.5 مليون عام 2016[3]. فمثلا تضاعفت مساهمة السعودية من الطلاب الدوليين في أربع سنوات، حيث كان لديها أكثر من 50.000 مواطن يدرسون في بلدان المنظمة عام 2012 - أكثر من نصفهم في الولايات المتحدة. وكانت السعودية والمغرب من بين البلدان الرئيسة الخمسة عشر التي لديها أعداد مهمة من الطلاب يدرسون في مرحلة التعليم الثالث في بلدان المنظمة، خلال 2008 - 2012[4]. من الواضح إن زيادة الهجرة الطلابية هي ظاهرة عالمية، على الرغم من التغيرات المهمة زمانيا على المستوى الوطني والإقليمي[5]، وهذا ينسحب أيضا على المنطقة العربية.

بالنسبة إلى البلدان العربية، يكون تنقل الطلاب داخلها وإلى الخارج على السواء أعلى من المتوسط العالمي. وقد ارتفعت كلتا النسبتين في الأعوام الأخيرة. فارتفعت نسبة الدراسة في الخارج من 3.1 في المئة عام 2009 إلى 4.3 في المئة العام 2017، وهو اتجاه يُلاحظ أيضا في بلدان إفريقيا جنوب الصحراء وفي آسيا وجنوبها خلال الفترة نفسها[6]. ومعدل تنقل الطلاب في البلدان العربية أعلى من المتوسط العالمي. فقد ارتفعت نسبة انتقال الوافدين إلى البلدان العربية من 2.3 في المئة عام 2006 إلى 3.2 في المئة عام 2017، وتبلغ 35 في المئة في قطر و49 في المئة في الإمارات العربية[7].

وتوجد أعلى نسبة من إجمالي المهاجرين الوافدين من البلدان العربية، وهي آخذة في الارتفاع، في فرنسا 37) في المئة، منهم 95 في المئة من المغرب) والسويد (18 في المئة، منهم 75 في المئة من العراق وسوريا). وتبلغ نسبة الطلاب البالغين من العمر 15 سنة من ذوي الخلفيات المهاجرة 26 في المئة في فرنسا و31 في المئة في السويد[8].

وفي بلدان مجلس التعاون الخليجي، تكون نسبة الطلاب المهاجرين أقل من نسبة المهاجرين، لأن العديد من المهاجرين هم من الشباب الذين يسافرون دون أسرهم. وفي حين بلغت نسبة المهاجرين من إجمالي عدد السكان في السعودية 37 في المئة عام 2017، كانت نسبة مهاجري الجيل الأول من طلاب الصف الثامن 4 في المئة، بينما بلغت نسبة مهاجري الجيل الأول والثاني 9 في المئة، وفقا لدراسة اتجاهات التحصيل في الرياضيات والعلوم على الصعيد الدولي لعام 2015. أما في قطر والإمارات العربية، فكان مهاجرو الجيل الأول والثاني يمثلون أكثر من نصف طلاب المدارس الثانوية[9].

خلفية نظرية

أُستخدم الاقتصاد السياسي، على نحو واسع، لتحليل هجرة الطلاب باعتبارها نزيفا للعقول خلال الستينيات والسبعينيات من القرن العشرين. إذ يُنظر إلى الطلاب على أنهم يمثلون بوادر الهجرات الماهرة؛ حيث إن لتحركاتهم تأثيرات أكبر من مجرد اشتراك عدد منهم فيها. ويُنظّر هذا المنهج لكل من مكان الإرسال والاستقبال بالتزامن، وضمن الإطار التحليلي ذاته. إذ يربط التفاوت البنيوي الذي يدفع إلى الهجرة أماكن الإرسال والاستقبال، ربطا عضويا. ويمتد هذا التفاوت إلى الماضي، ويستفيد من التكوين التاريخي، خصوصا من السيطرة الاستعمارية؛ حيث يتوجه طلاب المستعمرات السابقة إلى البلدان التي كانت تمثّل مراكز الإمبريالية، وهذه الحالة تديم التفاوت الذي نشأ خلال الفترة الاستعمارية. لذلك، يناقش بيتر كيل وجيليان فوغل بأن القوى الاستعمارية السابقة، استخدمت هذه الارتباطات مصدرا للطلاب الدوليين للحفاظ على هيمنتها، وعلى تبعية جديدة للمستعمرات السابقة؛ إذ يأتي كثير من الطلاب، الذين يختارون الدراسة في فرنسا مثلا، من البلدان الفرانكفونية، والتي كانت مستعمرات فرنسية [10]، كما هي الحال بالنسبة إلى بلدان المغرب العربي.

اتجاهات الهجرة الطلابية

بدأت هجرة الكفاءات من المنطقة العربية بشكل محدود منذ القرن التاسع عشر، خاصة من سوريا ولبنان والجزائر، حيث اتجهت الكفاءات السورية واللبنانية إلى فرنسا ودول أمريكا اللاتينية، بينما اتجهت الهجرة من الجزائر إلى فرنسا. وفي بداية القرن العشرين، ازدادت هذه الهجرة لاسيما خلال الحربين العالميتين الأولى والثانية. وفي الخمسين سنة الأخيرة، هاجر ما بين 25 - 50 في المئة من مجموع الكفاءات [11]. علما أن توزيع المهاجرين يتغير بحسب قدم الهجرة، فالهجرة الجديدة من الشباب ذوي مستوى تعليمي أرفع ممن سبقهم [12]؛ إذ وفقا لتقرير التنمية البشرية العربي لعام 2003، هاجر 25 في المئة من مجموع 300.000 من الطلاب الجامعيين خلال 1995 - 1996 [13].

بلغ عدد المهاجرين العرب إلى بلدان منظمة التعاون الاقتصادي والتنمية 1.399.055 مهاجرا، عام 2006، منهم 40.5% من الإناث، و54.3% منهن من ذوي المهارات العالية. وقبل الانتفاضات العربية، مثّلت هجرة ذوي التحصيل العلمي العالي من المنطقة العربية حوالي ثلث مجموع المهاجرين من ذوي المهارات العالية من البلدان النامية. وكان نصف المهاجرين المصريين تقريبا إلى بلدان المنظمة من هذا النمط عامي 2005 و2006 [14].

ثمة اتجاه متزايد للطلاب العرب للدراسة في الخارج، حيث ارتفع عددهم من 160.419 عام 1998 إلى 281.575 عام 2011 [15] وإلى 323.340 عام 2013 [16]. ويتميز توزيعهم في العالم خلال (2009 - 2010) بالتركز الشديد في أوروبا الغربية وأمريكا الشمالية (64.5 في المئة؛ 65.0 في المئة)،

تتبعهما البلدان العربية (19.5 في المئة؛ 18.0 في المئة)؛ شرق آسيا والباسفيك (7.2 في المئة؛ 8.7 في المئة)؛ ووسط أوروبا وشرقها (6.7 في المئة؛ 6.3 في المئة) عامي 2009 و2010 على التوالي. وشهدت نسبة العرب من مجموع حركية الطلاب الدوليين زيادة قليلة من 5.6 في المئة عام 2009 إلى 6.1 في المئة عام 2010 [17]. والملاحظ، أن حركية الطلاب بين البلدان العربية تتسم بالضعف مقارنة بحركيتهم الدولية. فمثلا، تتوجه نسبة 4.1 في المئة من مجموعهم إلى بلدان الخليج (السعودية، قطر والبحرين)، و0.1 في المئة إلى المغرب وتونس، و6.4 في المئة إلى البلدان العربية الأخرى، مقارنة بتوجه نسبة 57 في المئة إلى الولايات المتحدة والمملكة المتحدة وفرنسا وألمانيا واستراليا [18].

يتبيّن من الشكل رقم (1) أن أكبر عدد من الطلاب في الخارج هم من السعودية، ويليها المغرب عام 2011، وأن النسبة الأكبر منهم تدرس في بلدان منظمة التعاون الاقتصادية والتنمية. أما أقل الطلاب فهم من اليمن عام 2009. وتتباين الزيادة في عدد الطلاب الدارسين في الخارج بين البلدان العربية بدرجة كبيرة. وهذه النتيجة تدعم الفرضية القائلة بزيادة هجرة الطلاب على الرغم من الإجراءات التي اتخذتها بعض البلدان العربية للحد منها.

الشكل رقم (1)

عدد الطلاب من البلدان العربية في بلدان منظمة التعاون الاقتصادي والتنمية، 2005 - 2009

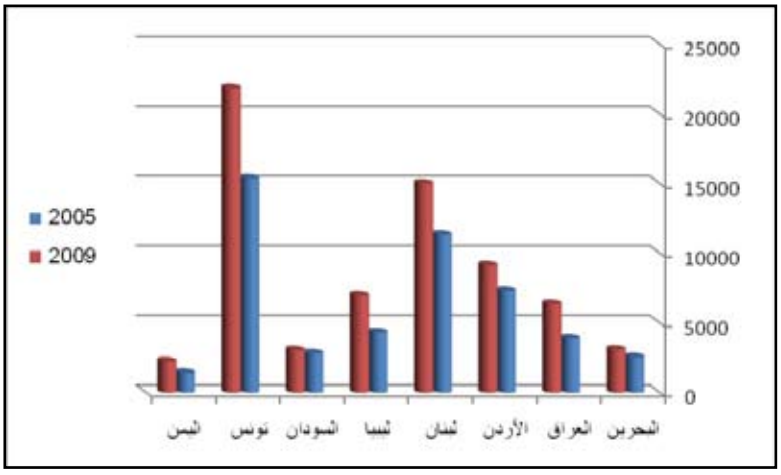

المصدر: الشكل من رسم الباحث استنادا إلى

Ahmed Driouchi, Economics of Migration of Students from the Arab Region to OECD Countries (Morocco: Al Akhwayn University: 2014), pp. 8-15.

أما من ناحية، عدد طلاب المرحلة الثالثة في بلدان المنظمة فيحتل المغرب المرتبة الأولى بعدد يقارب ستين ألفا. أما أقل عدد فهو من موريتانيا (الجدول رقم 1).

الجدول رقم (1)

طلاب المرحلة الثالثة في بلدان منظمة التعاون الاقتصادي والتنمية، 2005 - 2009

البلد	2005	2009
الجزائر	25395	25586
مصر	7619	13628
موريتانيا	1639	2012
المغرب	57916	59777
عُمان	3350	3958
قطر	1463	2507
السعودية	8740	31180
الإمارات العربية	5266	7676
الكويت*	4152	6831
سوريا	7625	9899

*** طلاب التعليم العالي.**

المصدر: الجدول من إعداد الباحث استنادا إلى:

Ahmed Driouchi, Economics of Migration of Students from the Arab Region to OECD Countries (Morocco: Al Akhwayn University: 2014), pp. 7-15.

ومثّل الطلاب السعوديون أكبر عدد من الطلاب المغادرين إلى الخارج من ذوي التعليم العالي من المنطقة العربية عام 2013، للدراسة في أوروبا الغربية وأمريكا الشمالية. وقد تزايد عدد الطلاب السعوديين في الخارج ستة أضعاف منذ عام 2004، فوصل عددهم إلى أكثر من 73,000 عام 2013. والبلدان العربية العشرة الأولى في المنطقة العربية من ناحية أعداد الطلاب ذوي التعليم العالي المغادرين للدراسة في الخارج خلال الفترة 2004 - 2013 هي: السعودية والمغرب وسوريا والجزائر ومصر والأردن وتونس واليمن والكويت والعراق. وتمثّل فرنسا والولايات المتحدة الوجهة الأولى للطلاب من المنطقة العربية. وفي حين تزايد عدد الطلاب من المنطقة العربية إلى أكثر من الضعف في الولايات المتحدة بين عامي 2010 و2014، انخفض عددهم في فرنسا خلال الفترة نفسها [19].

ومثّل الطلاب السعوديون المسجلون في بلدان منظمة التعاون الاقتصادي والتنمية المرتبة السادسة من الناحية العددية عام 2016، ويأتون بعد طلاب الصين والهند وألمانيا وكوريا الجنوبية وفرنسا على التوالي؛ أي أن السعودية من بين البلدان العشرة الأوائل التي يدرس طلابها في بلدان هذه المنظمة. علما انه كان أكثر من

4 ملايين من الطلاب الدوليين مسجلين في التعليم الثالث في بلدان مجموعة العشرين عام 2016، أكثر من نصف مليون تقريبا مقارنة بعام 2015، أي بزيادة 13 في المئة [20].

ومن ناحية أخرى، أصبحت السعودية والإمارات العربية بشكل لافت وجهات جذابة يقصدها الطلاب الدوليون، إذ ارتفع عدد الطلاب الذين يدرسون في السعودية من حوالي 20,000 عام 2012 إلى حوالي 39,000 عام 2014 [21] ، وإلى 80,000 عام 2016، وينحدر 11 في المئة منهم من بلدان مجموعة العشرين، و2 في المئة من الأمريكيتين، و4 في المئة من أوروبا، و31 في المئة من إفريقيا، و63 في المئة من آسيا. وبلغت نسبتهم 5 في المئة من مجموع طلاب التعليم الثالث في السنة الأخيرة [22].

هناك علاقة إيجابية بين حجم سكان البلد وعدد طلابه في الخارج. عموما، لدى المستعمرات الفرنسية السابقة نسب أقل من الطلاب في الخارج مقارنة بالمستعمرات الانكليزية السابقة، وهذا الفرق يمكن أنه نتج من واقع أن المستعمرات الفرنسية يكون حجم سكانها أقل. وقد وجد كرتز بأن مواطني المستعمرات الفرنسية لديهم خيارات قليلة يتجهون إلى الدراسة فيها غير فرنسا، بينما، لدى مواطني البلدان الناطقة بالإنكليزية عديد من الخيارات، تشمل أستراليا، كندا، نيوزلندا، الولايات المتحدة، المملكة المتحدة، وقد أصبحت جنوب إفريقيا أيضا مقصدا مهما للدراسة في السنوات الأخيرة [23]، خصوصا للطلاب الأفارقة.

تحولات مهمة في اتجاهات الهجرة الطلابية

حدثت تحولات مهمة في اتجاهات الهجرة الطلابية، وأنماطها في السنوات الأخيرة، إذ اتجهت إلى بلدان إما لم تكن مستعمِرة مثل السويد والدنمارك وفنلندا والنرويج، وإما كانت بلدان مستعمِرة لكنها لم تكن رئيسية مثل ألمانيا، وإيطاليا، وبلجيكا وهولندا؛ وهذا يعود إلى توجه موجات كبيرة من اللاجئين من المنطقة العربية وبشكل غير مسبوق ضمنهم الطلاب إلى البلدان المجاورة والأوروبية. فقد بلغ مثلا مجموع اللاجئين السوريين 6,7 مليون نهاية عام 2018 [24]؛ وذلك، نتيجة المشكلات السياسية والحروب التي تمر بها المنطقة، خصوصا بعد اندلاع الانتفاضات الشعبية في تونس ومصر وليبيا واليمن وسوريا. وهذا التوجه يشمل أيضا اللاجئين من البلدان التي لم يستقر فيها الوضع بعد مثل العراق والصومال.

من الجدول رقم (2) يتبيّن الارتفاع الحاد لطالبي اللجوء السوريين في البلدان الصناعية يتبعهم العراقيون، ويأتي في المرتبة الثالثة الصوماليون عام 2014. أما بقية البلدان، فقد زادت أعداد طالبي اللجوء منها وأن لم تكن كبيرة، فيما تراجعت أعدادهم بالنسبة إلى مصر وتونس والجزائر والمغرب. من الطبيعي، ضمن هؤلاء كثير من الطلاب الذين لم يكملوا دراستهم في بلدانهم أو أكملوها وهم في عداد البطالة.

الجدول رقم (2)

طلبات اللجوء المقدمة في 44 بلدا صناعيا، 2010 - 2014

	2010	2011	2012	2013	2014
السوريون	4,996	8,383	25,232	56,346	149,641
المصريون	2,135	3,841	5,681	9,715	6,031
التونسيون	910	7,907	4,600	4,470	-
الليبيون	823	3,825	-	2,535	3,994
العراقيون	0,572	23,469	21,010	37,321	68,719
الصوماليون	17,005	15,482	18,701	23,869	19,857
السودانيون	2,694	3,236	3,425	4,560	7,738
الجزائريون	3,917	4,982	6,746	8,829	6,847
المغاربة	1,369	2,696	3,964	5,862	4,937

المصدر: الجدول من إعداد الباحث استنادا إلى:

UNHCR, Asylum Trends 2014, Levels and Trends in Industrialized Countries (Geneva: 2015), p. 23.

UNHCR, Asylum Trends 2013, Levels and Trends in Industrialized Countries (Geneva: 2014), p. 25.

UNHCR, Asylum Levels and Trends in Industrialized Countries (Geneva: 2011), p. 22

نأخذ السويد مثالا، فقد كانت الأسباب الاقتصادية هي المهيمنة على الهجرة إلى البلاد حتى السبعينيات من القرن الماضي. لكن زاد اللجوء من المنطقة العربية إليها لأسباب إنسانية وسياسية. إذ بلغ عدد المهاجرين من أصول عراقية وسورية ولبنانية وصومالية 333,349 عام 2012 [25]؛ لذلك ارتفع عدد الطلاب المهاجرين بعمر 16 - 55 سنة وأكثر بسرعة والذين لغتهم الأم هي العربية إلى 188,86 عام 2012 (الجدول رقم 3).

الجدول رقم (3)

الطلاب المهاجرون بعمر 16 - 55 سنة وأكثر في السويد، 2011 - 2012

	2010	2011	2012	2013	2014
السوريون	4,996	8,383	25,232	56,346	149,641
المصريون	2,135	3,841	5,681	9,715	6,031
التونسيون	910	7,907	4,600	4,470	-
الليبيون	823	3,825	-	2,535	3,994
العراقيون	0,572	23,469	21,010	37,321	68,719
الصوماليون	17,005	15,482	18,701	23,869	19,857
السودانيون	2,694	3,236	3,425	4,560	7,738

المصدر:

Official Statistics of Sweden, Statistical Yearbook of Sweden 2014 (Stockholm: 2014), p. 456.

ومن الشكل رقم (2) والجدول رقم (4) نلاحظ أن مجموع الطلاب العراقيين بعمر أقل من 65 سنة ضمنهم الذين ولدوا في السويد، للسنة الدراسية 2016 - 2017، هو الأعلى وسط طلاب البلدان العربية، يأتي بعدهم الطلاب السوريون وثم اللبنانيون. أما أقل عدد فيمثّله الطلاب الكويتيون. وهذا راجع إلى أن أغلبية الذين قدموا إلى السويد من البلدان العربية هم من اللاجئين.

الشكل رقم (2)

مجموع طلاب البلدان العربية الجدد في التعليم العالي السويدي، بعمر أقل من 65 سنة، للسنة الدراسية 2016 - 2017

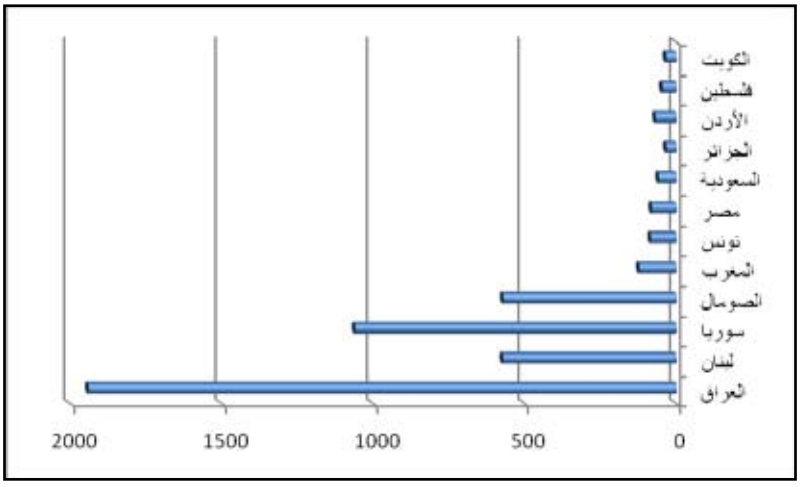

المصدر: الشكل من رسم الباحث استنادا إلى الجدول رقم (4)

الجدول رقم (4)

طلاب البلدان العربية الجدد في التعليم العالي السويدي، لعمر أقل من 65 سنة، للسنة الدراسية 2016 - 2017

البلد	الولادة في السويد من أبوين ولدا في الخارج	أجنبي بالولادة	المجموع
العراق	631	1310	1941
لبنان	485	88	573
سوريا	436	625	1061
الصومال	252	320	572
المغرب	85	38	123
تونس	69	16	85
مصر	46	36	82
السعودية	-	59	59
الجزائر	20	14	34
الأردن	25	44	69
فلسطين	24	23	47
الكويت	22	13	35

المصدر: الجدول والمجموع من إعداد الباحث استنادا إلى:

Statistics Sweden, Swedish and foreign background among students and doctoral students in higher education, 2016/17.

يمكن القول عموما أن الهجرة الطلابية العربية تندرج وتتداخل ضمن أنماط الهجرة المعروفة، من هجرة اختيارية، وقسرية أو اضطرارية، وهجرة نظامية وغير نظامية (سرية)، وطلب لجوء. نحلل أدناه الهجرة الطلابية من بعض البلدان العربية التي شهدت عموما هذا الصنف من الهجرة بشدة.

العراق

لم يعد كثير من الطلاب العراقيين الذين أكملوا دراستهم في الخارج في فترات الحرب والحصار في الثمانينيات والتسعينيات وبعد احتلال العراق العام 2003 إلى بلدهم. علما في هذين العقدين شهدت البعثات الدراسية إلى الخارج انخفاضا حادا؛ إذ بلغ مجموع طلبة الدراسات العليا في الخارج من خلال القنوات الرسمية 231 فقط بداية عام 1992 [26]. لكن بعد تغيير النظام تم إرسال المئات من الطلبة للدراسة. لذلك بات العراق من البلدان العربية العشرة الأوائل في أعداد الطلاب الذين يدرسون في الخارج كما أشرنا أعلاه. إذ بلغ عدد الطلاب الدارسين في الخارج بحسب نوع الشهادة 22837 عام 2016 (الشكل رقم 3). فمثلا ارتفع عددهم في الولايات المتحدة بنسبة 38.8 في المئة للعام الدراسي 2013 - 2014 عما كان عليه في السابق. وأن 941 طالبا يدرسون في برامج الدراسات العليا، أي بزيادة 41 في المئة عن العام السابق، في حين أن 212 طالبا يتابعون دراسة البكالوريوس، و302 طالب إضافي يتابعون أيضا

الشكل رقم (3)

أعداد الطلاب العراقيين الدارسين في الخارج بحسب نوع الشهادة عام 2016

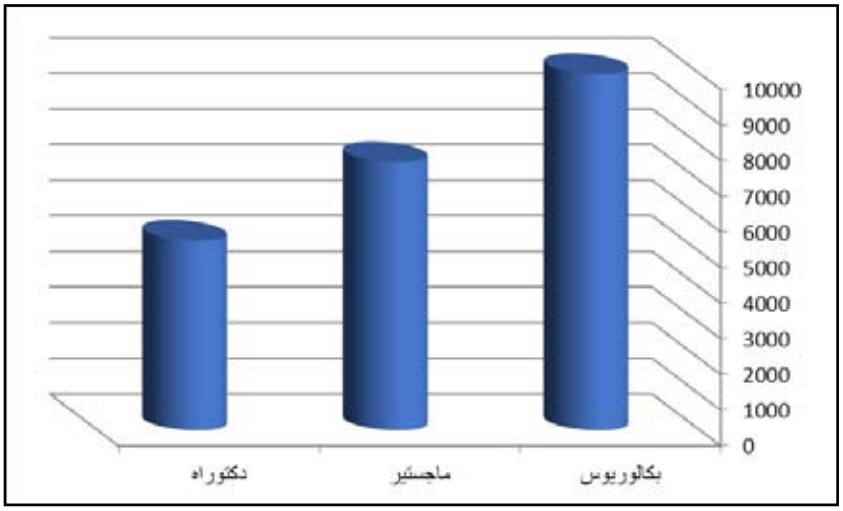

المصدر: الشكل من رسم الباحث استنادا إلى وزارة التعليم العالي والبحث العلمي، التقرير السنوي لدائرة البعثات والعلاقات الثقافية (بغداد 2016)، ص 13

الدراسة في برامج دراسية لا تمنح شهادة [27]. ما نتوقعه أن قسما من هؤلاء سوف لا يعودون إلى العراق بسبب استمرار سوء الأوضاع الأمنية والسياسية والاقتصادية والخدمية.

ووفقا للمسح الوطني للفتوة والشباب لسنة 2009، عبر 16.8 في المئة من الشباب العراقي في عمر (18 - 30) سنة عن رغبتهم في الهجرة ويرغب 52.6 في المئة من هؤلاء في الهجرة إلى أوروبا و23.6 في المئة إلى دول عربية و13.6 إلى دول مجاورة و9.4 في المئة إلى أمريكا و0.8 في المئة إلى دول أخرى. وإن نسبة من اتخذوا إجراءات الهجرة بلغت 2.7 في المئة. وكان السبب في ذلك بالنسبة إلى ثلث هؤلاء هو العمل. بينما كان الهروب من الأوضاع السائدة السبب في حوالي 26 في المئة من الحالات، ويليها اللجوء (15.3 في المئة) [28]. وهذا مرتبط بالوضع السياسي والأمني والاقتصادي، حيث كثير من الشباب لا يشعر بالتفاؤل، ما يؤشر استمرار هجرتهم بمن فيهم الطلاب خصوصا في السنوات الأخيرة.

سوريا

منذ اندلاع الانتفاضة في سوريا في آذار/ مارس 2011، اضطر تقريبا نصف سكانها لمغادرة وطنهم. وقد بحث 40% من اللاجئين عن اللجوء في بلدان الجوار. ووفقا للأمم المتحدة بلغ عدد اللاجئين السوريين في تركيا 3.622.400، ومثلت نسبتهم أكثر من 98 في المئة من مجموع اللاجئين في هذا البلد في نهاية عام 2018 [29]. ويقدر أن 70 في المئة من مجموع

550.000 طالب سوري هم خارج المدرسة [30]. ومن الشكل رقم (4) يتبيّن أنه يقيم أكثر من 9 آلاف طالب لاجئ سوري في مخيمات اللجوء في تركيا يواصلون دراستهم في المدارس العليا. وتهدف وزارة التعليم إلى دمج 30.000 طالب إضافي في المدارس العليا. ومن المتوقع أن يواجه هذا الدمج صعوبات. ليس فقط نتيجة لعدم كفاية التسهيلات المرتبطة بالتعليم وعوائق اللغة، لكن هناك أيضا القضايا العائلية المرتبطة بالدور الهام الذي يلعبه معظم الذكور الشباب في حالة عملهم ومساهمتهم في دعم ميزانية عائلاتهم، في حين تتزوج معظم الشابات برغبتهن أو تحت ضغط العائلة [31].

بلدان المغرب العربي

في بلدان المغرب العربي، ومع مطلع الثمانينيات وبداية بروز بطالة حملة الشهادات المتوسطة، وتوسع مؤسسات التعليم العالي، عرفت الدراسة في الخارج تحولا جوهريا جعلها تستقطب أكثر فأكثر خريجي المرحلة الثانية من التعليم العالي من هذه البلدان، للحصول على شهادات عليا، وخاصة الدكتوراه، وبالتالي أصبحت الجامعات الفرنسية الوجهة المفضلة، للطلبة للحصول على أعلى الشهادات التي تفتح لهم أبوابا لوظائف عليا. لذلك، قفز عدد الطلبة المغاربيين في هذه الجامعات إلى حوالي 64.000 طالب عام 2009، ممثلين أعلى نسبة لوجود الطلاب الأجانب [32]. وتبلغ

الشكل رقم (4)

التعليم الرسمي في مخيمات اللاجئين السوريين في تركيا، مايس/ماي 2015

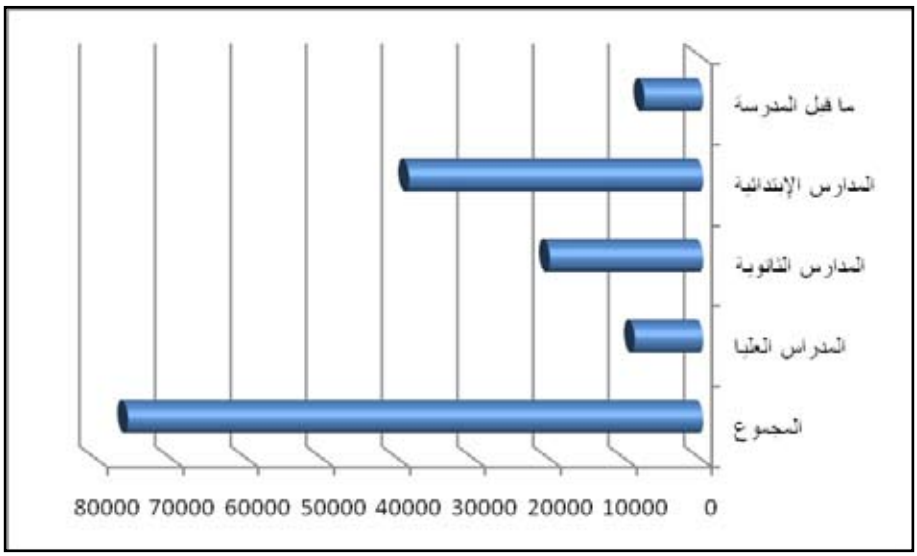

المصدر: الشكل من رسم الباحث استنادا إلى

Tuba Bircan and Ulas Sunata, "Educational Assessment of Syrian Refugees in Turkey", Migration Letters, vol. 12, no. 3 (September 2015), p. 234.

نسبة المنحدرين من أصول عربية فيها 30 في المئة، وهي من أعلى النسب المسجلة في بلدان المهجر. علما انه لا تتجاوز هذه النسبة في إسبانيا 20 في المئة وترتفع في هولندا إلى حوالي 25 في المئة [33]. يعود ارتفاع النسبة الأخيرة إلى أن الجالية المغربية تُعد من أكبر الجاليات المقيمة في هذا البلد منذ الستينيات من القرن الماضي.

هناك أعداد كبيرة من طلبة المغرب العربي مسجلون لدراسة الدكتوراه في فرنسا. وقد تراوحت نسبتهم من إجمالي الطلبة الأجانب بين 28.3 في المئة عام 2004 و24.1 في المئة عام 2007. ما يميز وجود الطلبة المغاربيين في الجامعات الفرنسية هو كثافة عددهم في الدراسات العليا والتخصصية، حيث يمثلون أولى الجنسيات الأجنبية من إجمالي الحاصلين على الدكتوراه، إذ بلغ عدد الحاصلين على هذه الشهادة خلال 1990 - 2000 حوالي 10.000[34]. وهذا يعكس العلاقات التاريخية والثقافية التي نتجت عن فترة الاستعمار، وبقاء اللغة الفرنسية تتمتع بأهمية كبيرة على مستوى التعليم والثقافة والإدارة، حيث لا يحتاج الطلاب في الغالب لدراسة اللغة الفرنسية لإكمال دراستهم.

وابتداءً من العام الدراسي (2005 - 2006) أصبح الطلاب المغاربة في المدارس الإسبانية يتناوبون على المرتبة الأولى من حيث العدد، مع الطلاب الرومانيين، من مجموع الطلاب الأجانب. فقد بلغ عددهم 82.472، عام 2010، منهم 90 في المئة في المدارس الحكومية [35]. وما زالت تصل البلاد أعداد من طلاب البلدان العربية للدراسة في جامعاتها. ومنذ البداية، كانت أعلى النسب من المغاربة، يتبعهم السوريون. وإذا كانت نسبة الأخيرين قد تراجعت في العقود الأخيرة، فإن نسبة المغاربة في تزايد مستمر، حيث يقدر عددهم بـ 6000 طالب، عام 2013، أغلبهم في جامعة غرناطة [36]. علما أن 88.7 في المئة من الكفاءات المغربية التي درست في أوروبا لا تفكر في العودة إلى بلدها [37] وهي نسبة كبيرة تشير إلى حجم الاستنزاف العلمي.

قامت تونس خلال التسعينيات، بإبرام اتفاق مع الولايات المتحدة يتابع بموجبه طلبة تونسيون دراستهم في جامعاتها، لكن بعد مرور عدة سنوات على الشروع في العمل بالاتفاق تبين أنه يلحق خسارة كبيرة بتونس، ذلك أن نصف الطلبة الذين يتابعون دراستهم على نفقة الحكومة يفضلون البقاء في الولايات المتحدة. وتشير بعض المصادر إلى أن قرابة 500 طالب تونسي سابق في الولايات المتحدة، فضل عدم الرجوع إلى بلاده. كما تشير إلى أن أكثر من نصف المهندسين التونسيين المتخرجين من مدرسة بوليتكنيك في فرنسا، وهي من أرقى مدارس المهندسين في العالم لم يلتحقوا ببلدهم بعد إكمال دراستهم [38].

وبعد الانتفاضة ارتفعت طلبات لجوء التونسيين في أوروبا خلال 2010 - 2011، لكنها بدأت بالتراجع منذ عام 2012. وقُدر عدد المهاجرين غير الشرعيين إلى إيطاليا خلال كانون الثاني/ يناير- أيار/ مايو عام 2011 بـ 25800 مهاجر، أغلبهم من الفئة العمرية 20 - 30 . وقد توالت موجات الهجرة غير الشرعية خلال 2012 - 2013 بوتيرة أقل حدة

رغم تحسن الوضع الأمني نسبيا مقارنة بالفترة الموالية للانتفاضة [39].

***

بحسب تصنيف المؤشر الرسمي لقياس هروب رأس المال البشري (الشكل رقم 5)، تضم المجموعة الأولى ستة بلدان خليجية وتونس - يمكن أن يكون هذا قبل الانتفاضة - والتي تتراوح نقاطها بين 3.5 - 7، إذ هي قادرة على الاحتفاظ برأس المال البشري. وتضم المجموعة الثانية ستة بلدان عربية تشمل الجزائر ومصر، وهي غير قادرة على الاحتفاظ برأس المال البشري. ولم ترد خمسة بلدان عربية أخرى في الشكل هي لبنان والسودان والعراق واليمن وفلسطين، وهي تعاني هروب رأس المال البشري المزمن؛ نتيجة الأزمات السياسية والأمنية وتدهور ظروف الحياة [40].

الشكل رقم (5)

هروب رأس المال البشري (مقياس 1 - 7)

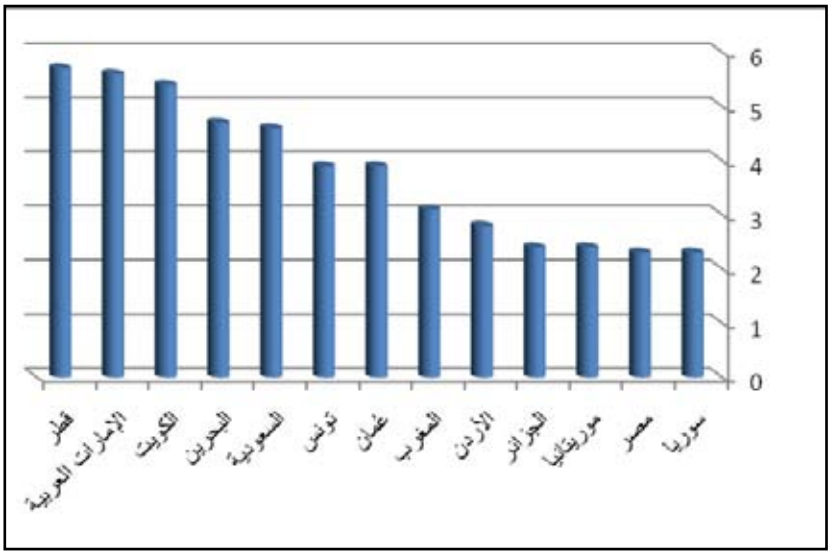

المصدر: الشكل من رسم الباحث استنادا إلى:

Samia S. O. M. Nour,"Migration of international students and mobilizing skills in MENA Region, Maastricht Graduate School of Governance, The Netherlands (April 2014), p. 18.

تشير المعطيات أعلاه إلى الطلاب الذين يقيمون بشكل مؤقت أو دائم في بلدان المهجر، علما انه لا تتوافر معطيات مفصلة ودقيقة عن أعداد غير العائدين إلى بلدانهم ونسبهم. والمؤشر الهام هو تصاعد أعدادهم، مما يشير إلى استمرار المعوقات السياسية والاجتماعية - الاقتصادية التي تمنع من الإفادة من هذه الثروة العلمية بشكل أمثل في بلدانها الأصلية.

الهوامش:

1- اليونسكو، التقرير العالمي لرصد التعليم، الدول العربية 2019، الهجرة والنزوح والتعليم: بناء الجسور لا الجدران (باريس: 2019)، ص 39.

2- OECD, International Migration Outlook 2014, pp. 26-30.

3- OECD, International Migration Outlook 2019, pp. 33.

4- OECD, International Migration Outlook, pp. 26-30.

5- Russell King and Parvati Raghuram, "International Student Migration: Mapping the Field and New Research Agendas", Population, Space and Place, vol. 19, no. 2, March| April (2013), pp. 127-128.

6- اليونسكو، التقرير العالمي لرصد التعليم، الدول العربية 2019، ص 39.

7- اليونسكو، ص VI.

8- المصدر نفسه، ص 3.

9- المصدر نفسه، ص 28.

10- Parvati Raghuram, "Theorising the Space of Student Migration," Population, Space and Place, vol. 19, no. 2 (March| April 2013), pp. 144-145.

11- هشام محمد بشير، "هجرة الكفاءات العربية إلى الخارج"، شؤون عربية، 130 (2007)، ص، 110 - 111.

12- مصطفى عبد العزيز مرسي، "قضايا المهاجرين العرب في أوروبا"، عرض عماد الدين حلمي عبد الفتاح، شؤون عربية، 149 (2012)، ص 249.

13- محمد عارف، "حركة الكفاءات العربية، الإقليمية والدولية"، مجلة المستقبل العربي، العدد 377 (تموز| يوليو 2010)، ص 47.

14- الإسكوا والمنظمة الدولية للهجرة، تقرير الهجرة الدولية لعام 2015: الهجرة والنزوح والتنمية في منطقة عربية متغيرة (2015)، ص 79.

15- Samia Satti O. M. Nour, Migration of International Students and Mobilizing Skills in the MENA Region, Working Paper Series (Maastricht: 2014), p. 11.

16- الإسكوا والمنظمة الدولية للهجرة، تقرير حالة الهجرة الدولية لعام 2017، الهجرة في المنطقة العربية وخطة التنمية المستدامة لعام 2030 (2018)، ص 44 - 45.

17- Nour, p. 12.

18- Nour, p. 15.

19- الإسكوا والمنظمة الدولية للهجرة، تقرير حالة الهجرة الدولية لعام 2017، ص 44 - 45.

20- OECD, International Migration Outlook 2019, pp. 34.

21- الإسكوا والمنظمة الدولية للهجرة، تقرير حالة الهجرة الدولية لعام 2017، ص 44 - 45.

22- OECD, IOM, UNHCR, International Migration and Displacement Trends and Policies Report to the G20 (2019), p. 7.

23- Mary M. Kritz, "International Student Mobility and Tertiary Education Capacity in Africa", International Migration, vol. 53, no. 1 (2015), pp. 38, 42.

24- UNHCR, Global Trends: Forced Displacement in 2018 (Geneva: 2018), p. 14.

25- الرقم من حساب الباحث استنادا إلى Official Statistics of Sweden, p. 114.

26- وزارة التخطيط، المجموعة الإحصائية السنوية (بغداد: 1992)، ص 110.

27- "المدى"، 26 تشرين الثاني 2014.

28- وزارة الشباب والرياضة وآخرون، المسح الوطني للفتوة والشباب 2009: التقرير التفصيلي (بغداد: 2009)، ص 39 - 40، 402.

29- UNHCR, Global Trends: Forced Displacement in 2018 (Geneva: 2018), p. 18.

30- Tuba Bircan and Ulas Sunata, "Educational Assessment of Syrian Refugees in Turkey", Migration Letters, vol. 12, no. 3 (September 2015), pp. 226-227.

31- Ibid., p. 234.

32- راجع عبد القادر لطرش، "مجالات مساهمة الباحثين الاجتماعيين العرب في الخارج"، إضافات، 11 (صيف 2010)، ص 66 - 68.

33- عبد الواحد أكمير، "العرب الأوروبيون: الهوية والتربية والمواطنة"، المستقبل العربي، 429 (تشرين الثاني| نوفمبر 2014)، ص 82.

34- لطرش، ص 68.

35- عبد الواحد إكمير، الجالية العربية في إسبانيا، ط1(بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 2013)، ص 267.

36- عبد الواحد إكمير، "الجالية العربية في إسبانيا"، المستقبل العربي، 418 (2013)، ص 24 - 34

37- سليم دحة، السياسات الأورومغاربية لتنظيم الهجرة الدائرية (دراسة وصفية تحليلية للفترة 2000 - 2011)، ماجستير (الجزائر: جامعة الجزائر 3، 2011)، ص 53.

38- حسن قرنفل، "مجانية التعليم العالي وهجرة الأدمغة"، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية، 8 - 9 (2004)، ص 170 - 171، 159 - 177.

39- وليد بلال، أثر المتغيرات العربية في دول الربيع العربي على تيارات الهجرة وتنقل الأيدي العاملة العربية (تونس: منظمة العمل العربية، 2014)، ص 15.

40- Nour, pp. 17-18.

إجراءات حكومة روسيا الاتحادية لدعم الاقتصاد الوطني في مواجهة جائحة كورونا

د. سناء عبد القادر مصطفى

المقدمة

لقد سمعنا جميعا عن الفيروس التاجي، الذي غيّر حياة الناس في جميع أنحاء العالم في غضون شهرين فقط، ومن مصادر مختلفة في محاولة لنقل معلومات متناقضة جدا في كثير من الأحيان. ويقول البعض انه من الرعب والنهاية، والبعض الآخر يقول انه ليس أكثر من مجرد انفلونزا وبعد ذلك كل شيء سوف يتحسن. وبطبيعة الحال، من دون نظريات المؤامرة لا يمكن تفادي الموضوع. وحان الوقت للخيال العلمي الخصب حتى يأخذ وقته الكافي، بطريقة أو بأخرى، لكن مع ذلك توجد بعض المشاكل، وتأثير الفيروس التاجي على الاقتصاد كبير جدا.

توطئة

ما هو الفيروس التاجي؟

فيروس كورونا (COVID-19) هو فيروس جديد ينتشر بسرعة كافية ويتميز بالاتي:

1. درجة عالية من العدوى والانتشار السريع. ولهذا السبب اغلقت مدن كثيرة ووضعت تحت الحجر الصحي.

2. بسبب ظهور الفيروس التاجي في أوروبا والولايات المتحدة، كان هناك ذعر حقيقي كما هو الحال بالفعل في ظل سيناريو الصين أصبح من الواضح أن توضع كثير من المدن في الحجر الصحي.

3. ارتفاع معدل الوفيات نسبيا وعدم استعداد المؤسسات الطبية لاستقبال هذا العدد الكبير من المرضى، ولأن العديد منهم يتطلب الإنعاش. المشكلة الرئيسة هي النقص الحاصل في أجهزة التنفس الاصطناعي.

أدت هذه الأسباب الى حدوث رد فعل خطير في المجتمع. لا يظهر المرض عند جيل الشباب في أول وهلة، ولكن الجيل الأكبر سنا معرض للخطر. وفي الوقت نفسه، يمكننا أن نرى بعض جوانب الإنسان الحديث وتأثير العلاقات الاجتماعية عليه:

1. الناس مهملون بشأن تدابير الحجر الصحي.

2. وبدلا من اتخاذ إجراءات كافية، ازداد هلع الناس وبدأوا بشراء المواد الغذائية

بكميات كبيرة وحتى ورق التواليت.

3. وقد أدى تجمع الناس في الأماكن العامة بأعداد كبيرة، في الساحات العامة وعلى الشواطئ والأسواق في بعض البلدان إلى المزيد من الاصابات.

اتضح بشكل عام أن الوضع مثير للاهتمام؛ إذ كيف يمكن لحكومات الدول مكافحة انتشار الفيروس التاجي، والناس لا يساندون ولا يساهمون حقا في هذه الاجراءات؟

1. تأثير الفيروس التاجي على الاقتصاد وأسواق الأسهم

وبعبارة بسيطة، أدى فيروس كورونا إلى إبطاء النشاط الاقتصادي، وكاد أن يتوقف في بعض المناطق. تصور أي شركة طيران في العالم وقد انخفضت الرحلات فيها بنسبة 70 - 90%. ومن المفهوم أن هذه خسارة وانخفاض في قيمة الأسهم، لأنه من غير الواضح ما سيحدث بعد ذلك. دعونا نذهب الى أبعد من ذلك - الى شركات صناعة السيارات. ففي الصين، انهارت مبيعات السيارات في شهر شباط 2019 وفقا لبيانات مختلفة بنسبة تتراوح بين 93 و99%[1]. وهذا يعني أن التجار عاطلون عن العمل، والمصانع تتباطأ في العمل والانتاج. حدث هذا في عدد كبير من فروع الصناعات المختلفة. ونفس الشيء بالنسبة للرياضة فقد توقفت جميع البطولات تقريبا، والملاعب أصبحت فارغة.

لكننا نتحدث عن أمثلة محددة في الوقت الحالي. فإذا نظرنا إلى الصورة الكبيرة، وإغلاق عدد كبير من الشركات في الصين الذي أثر سلبا على الاقتصاد العالمي بأكمله. ونحن نعلم جميعا الآن أن كل شيء تقريبا تتم صناعته في الصين من طقم الأسنان حتى جهاز الآيفون. لذلك اتضح أن الشركة المصنعة الرئيسية لكل شيء أصبحت مشلولة لبضعة أشهر. الآن كل شيء يتعافى، ولكن الفيروس التاجي ينتشر بالفعل في أوروبا، والآن يتم الحجر الصحي في شمال إيطاليا بأكمله، وإسبانيا، وفرنسا وبريطانيا وألمانيا والدول الاسكندنافية وهذا بالتأكيد يضيف وقودا إلى نار الهستيريا العامة.

أ. مؤشر الأسهم الصينية

وستبدأ المرحلة التالية من الذعر عندما يبدأ الفيروس في جز الأميركيين. في هذه اللحظة، انها مجرد بداية. وفي الأسابيع المقبلة سنستمع بالتناوب إلى الحديث عن حقيقة أن كل شيء تحت السيطرة وإحصاءات جديدة، والتي ستقول العكس تماما. من الصعب الحديث عن روسيا، وقد أعرب الكثيرون بالفعل عن رأي مفاده أن الفيروس التاجي كان ينتشر لفترة طويلة، ولكن لم يتم تحديده. ووصف على أنه مجرد التهاب فيروسي تنفسي حاد ARVI. ومع ذلك يجب الاقلال من النشاطات الجماهيرية مع إغلاق المدارس ورياض الأطفال أيضا.

1. وبعد انتهاء الصينيين من عطلة عيد السنة الشرقية الجديدة، كان من المتوقع أن تفتح البورصات مع انخفاض كبير في المؤشر الصيني الرئيسي.

2. بعد انتهاء كل شيء بدا وكأن الوضع بدأ يتحسن، ولكن بدأ انتشار الفيروس التاجي في أوروبا، انخفضت مؤشرات الأسهم إلى أسفل. وتضررت أسواق

البلدان النامية والمتقدمة، بما فيها روسيا، بشكل خاص. وبدأ المستثمرون ينسحبون من الأسهم لأنهم يفهمون أن تباطؤ النمو الاقتصادي يجعل آفاق أرباح الأسهم العادية غامضة للغاية.

3. في البداية، استمر رد فعل الذعر من مقدمي العروض التجارية في الارتفاع، في حين تراجعت المؤشرات المالية الأمريكية بمستويات قياسية.

كيف كان رد فعل الحكومات؟ بدأت البنوك المركزية في السباق لخفض أسعار الفائدة. وقد جرى ذلك على سبيل الاستعجال، وليس في اجتماعات مقررة حسب خطة عمل البنوك. فقد أضاف بنك الاحتياطي الفيدرالي الأميركي مبالغ هائلة للحفاظ على السيولة، وأطلق جولة جديدة من القروض الميسرة والتيسير الكمي. ببساطة، أطلق الفيروس التاجي مطبعة النقود في الولايات المتحدة، كما كان الحال في العام 2008، عندما جاءت هذه الفكرة المشرقة إلى رؤساء قادة بنك الاحتياطي الفيدرالي لضخ الأموال إلى السوق. ولكن من المثير للاهتمام أن هذه التدابير لم تبطئ سوى الهبوط، وزادت من تأرجح التقلبات، والآن تستمر مؤشرات الأسهم بنسبة 10% صعودا وهبوطا، ولكن الاتجاه تنازلي بشكل عام[2].

ب. تأثير الفيروس التاجي على سوق النفط

انهارت الأسعار في يوم واحد بسوق النفط بنسبة 25%، ولكن قبل فشل اتفاق روسيا - أوبك حيث بدأ الفيروس التاجي بقص الأسعار، والنتيجة طبيعية بسبب انخفاض استهلاك النفط بشكل حاد. وتوقف العمل باتفاقيات منظمة أوبك، وابتداء من شهر نيسان 2020 يحق لكل دولة أن تبيع كميات النفط التي ترغب في بيعها بسبب ارتفاع تكلفة استئجار ناقلات النفط. أي أن السعوديين يرسلون في الواقع بعض الكميات الضخمة، في حين يمنحون خصما قويا للمستهلكين نسبة إلى القيمة السوقية. الشيء الأكثر إثارة للاهتمام هو أنه عاجلا أم آجلا فإن شركات الصخر الزيتي في الولايات المتحدة سوف تفلس، لذلك فهي تراقب أيضا الوضع باهتمام. ويبدو أنها ستطول. في حين ارتفع سعر برميل النفط إلى 35 - 40 دولارا للبرميل الواحد، وحتى أعلى من ذلك بكثير[3].

ت. أثير الفيروس التاجي على أسواق الصرف الأجنبي

إن الأحداث الجارية، التي لم تسم بعد الأزمة، تختلف بشكل مدهش عما حدث في العام 2008 في سوق الصرف الأجنبي. لا يوجد نمو قوي للدولار، على العكس من ذلك، زادت التقلبات ومؤخرا يمكن أن نرى كلا الاثنين، اليورو والدولار مرتفعا بشكل غير عادي. وفي الوقت نفسه، ارتفع الين الياباني والفرنك السويسري تقليديا حيث تم شراؤها من قبل أولئك الذين كانوا خائفين، وأرادوا أن يكون لديهم أصول موثوقة في شكل أموال. ولكن النمو لم يكن مثيرا للإعجاب - فإذا تراجعت سوق الأسهم بنسبة 30%، ارتفعت العملات إلى 10% مقابل البقية. وفي ما يخص الروبل فقد توقفت مؤقتا وزارة المالية في روسيا الاتحادية عن شراء العملة في بورصة موسكو، في

حين ارتفعت اسعار المعادن الثمينة كالذهب والماس [4].

2. مرونة الاقتصاد الروسي في ظل الوباء

شرح الخبير الاقتصادي الياباني يوسوكي أوتسوبو قدرة الاقتصاد الروسي على الصمود في سياق وباء الفيروس التاجي. وأعرب عن هذا الرأي في مقال لـ JB الصحافة [5].

وذكر الخبير المذكور أن الاقتصاد "تصلب" بسبب مكافحة العقوبات الغربية وأظهر قدرة غير متوقعة على مقاومة عواقب الوباء. وقال ان التكاليف الاقتصادية الناجمة عن تطبيق الحجر الصحي والانخفاض الحاد في اسعار البترول لم تسبب له ضربة قوية يمكن توقعها. واشار اوتسوبو الى ان "صدمة التاج" تبين انها ليست رهيبة بالنسبة للاقتصاد الروسي، اذا قارنا مؤشرات الاقتصاد الكلي لروسيا خلال الازمة بسبب الوباء بحالات الازمة في السنوات الاخرى.

ويستدرج أوتسوبو: ان روسيا لديها تكنولوجيات متقدمة للغاية للتغلب على الازمات التي تطورت خلال الفترات السابقة. واوضح ان "الازمة الحالية هي تأكيد اضافي على ذلك". كما يشير المستثمرون من أوروبا الغربية وأمريكيين إلى القدرة العالية للاقتصاد الروسي على التكيف مع عواقب الأزمة الحالية. واضاف اوتسوبو انه في الوقت نفسه يعتقد الخبراء انه مازال لدى روسيا العديد من الاجراءات الفعالة لتسريع التنمية الاقتصادية في البلاد. وفي وقت سابق توقع الاقتصاديون ازمة جديدة بسبب الزيادة الحادة في عدد الاصابات بالفيروسات التاجية [6].

والقطاع الوحيد في الاقتصاد الروسي الذي تمكن من تجنب الهبوط في الربع الثاني من العام 2019 هو الزراعة حيث ارتفعت مساهمتها بنسبة 3.7%، في الناتج المحلي الاجمالي وانخفضت الصناعة بنسبة 8.5%، والتعدين بنسبة 10.3% وتجارة التجزئة بنسبة 16.6%، وحركة نقل المسافرين بنسبة 79%، والتموين بنسبة 48.9%. ووفقا لنتائج الربع الأول من العام 2020، ارتفع الناتج المحلي الإجمالي الروسي بنسبة 1.6% بالقيمة السنوية [7].

3. تقييم تأثير وباء الفيروس التاجي على الاقتصاد الروسي

تساعد آراء الخبراء على فهم تأثير وباء الفيروس التاجي على الاقتصاد الروسي. ويتفق الخبراء عموما على أن البلد يواجه فترة صعبة، وإن كانت هناك احتياطيات معينة لا تزال قائمة.

ووفقا لدراسة قام بها أليكسي كودرين رئيس غرفة الحسابات في حكومة روسيا الاتحادية مفادها أن روسيا ستواجه الركود في العام 2020. وسيتوقف الناتج المحلي الإجمالي تقريبا في التنمية إذا استمر الأثر السلبي لانخفاض أسعار النفط عند حوالي 35 دولارا للبرميل.

واعتقد كودرين أن البلاد سوف تفقد حوالي 3 تريليون دولار روبل من عائدات النفط والغاز. ووفقا لتقديراته، فإن خسارة الاقتصاد الروسي بسبب الفيروس التاجي سوف تؤدي إلى عجز في الميزانية يبلغ نحو 2% من الناتج المحلي الإجمالي ومعدلات

نمو صفرية بسبب انخفاض في الاستثمار مقارنة بالعام 2019 [8].

وفي دراسة للخبير المالي نيكيتا ريابينين من مجموعة KRK الاستشارية، فإن الفيروس التاجي يهدد الاقتصاد الروسي من خلال الخوض في ركود طويل، وان التأثير السلبي الرئيس سيكون انخفاض قيمة الروبل (1 دولار امريكي = 73 روبلا روسيا)، وسوف يؤدي إلى انخفاض في الدخل الحقيقي للسكان وزيادة في الأسعار في وقت واحد. وأضاف ريابينين أن تكلفة الأدوية يمكن أن ترتفع، وقطاع الأدوية يعتمد اعتمادا كبيرا على إمدادات المواد الخام الصينية. وسيستمر ضعف الاقتصاد حتى نهاية العام 2020. غير أن الخبير يلاحظ أننا لا نتحدث حتى الآن عن أزمة شاملة. فروسيا لديها صندوق رعاية وطني كبير إلى حد ما، ويمكنها السيطرة على الوضع المالي، وتتخذ الحكومة تدابير لتحقيق الاستقرار في العملة الوطنية [9].

فيما يعتقد الخبير أ أليكسي بويانوف من شركة Bangala للاستثمار أن الفيروس التاجي في الاقتصاد الروسي سيؤدي إلى ركود مؤقت في نمو الناتج المحلي الإجمالي والى انخفاض أسعار النفط وضعف سعر صرف الروبل سيظلان لفترة طويلة. وسيشعر كل من رجال الأعمال والمستهلكين العاديين بالتأثير السلبي. ويلاحظ الخبير المذكور أن حالة مماثلة لوحظت في جميع أنحاء العالم، وأن البلدان النامية، بما فيها روسيا، تضررت بشكل كبير بوجه خاص [10].

ويرى الخبير ياكوف ميركين من معهد اقتصاديات النمو، أن الاقتصاد الروسي وبسبب الفيروس التاجي سيتحمل انخفاض الأسعار بالكامل لجميع سلع التصدير تقريبا - النفط والغاز والمعادن. وقد تكون النتيجة انخفاض الناتج المحلي الإجمالي بنسبة تتراوح بين 10 - 20% وسوف يكون الضرر أقوى مما كان عليه في الولايات المتحدة والصين وأوروبا. سوف تعاني الأعمال التجارية الحقيقية والسياحة وصناعة الفنادق كثيرا، وسوف يكون معدل البطالة بحدود 15 - 20%. وسيكون للأثر الخطير للفيروس التاجي على دخل "طبقة المبدعين" (ويقصد بالمبدعين فئات الفنانين والموسيقيين والممثلين وصالونات التجميل...الخ)، ولكن منتجي المواد الضرورية سيتمكنون من البقاء على قيد الحياة في فترة صعبة [11].

4. توقعات بشأن الاقتصاد الروسي خلال وبعد الفيروس التاجي لعام 2020

قدرت وزارة التنمية الاقتصادية انخفاض الناتج المحلي الإجمالي لروسيا في العام 2020 بنسبة 3.8%، وفقا لما ذكره وزير التنمية الاقتصادية Максим Решетников مكسيم ريشتنيكوف، الذي كان يتحدث في مجلس الاتحاد الفيدرالي الروسي.

وقال "بعد الانخفاض في الربع الثاني، بدأ الاقتصاد يتعافى تدريجيا". وقال "لم تصبح الأزمة نظامية. وكان من الممكن منع تأثيرها على الصناعات والشركات التي تشكل النظام" [12].

وكانت وزارة التنمية الاقتصادية قد قدرت في وقت سابق انخفاض الناتج المحلي الإجمالي لروسيا في تشرين الثاني

سنة 2020 بنسبة 3.7% من حيث القيمة السنوية بعد انخفاض بنسبة 4.5% في تشرين الأول. وقدرت الوزارة انخفاض الناتج المحلي الإجمالي لروسيا في نهاية كانون الثاني 2020 بنسبة 3.5%.

وأوضحت وزارة التنمية الاقتصادية لوكالة أنباء انترفاكس أن "التقدير الشهري للناتج المحلي الإجمالي لوزارة التنمية الاقتصادية الروسية، فضلا عن بيانات الناتج المحلي الإجمالي الفصلية لروستات Росстат (الجهاز المركزي للاحصاء في روسيا الاتحادية) تستند إلى عدد من الافتراضات المتعلقة بحركة الكيانات التي تتوفر بياناتها الكاملة على أساس سنوي (في المقام الأول على كيانات الأعمال الصغيرة)". "وفي الوقت نفسه، عند تلخيص النتائج السنوية، تكون البيانات الفعلية عن بعض هذه المكونات متاحة - ونتيجة لذلك، قد ينحرف التقدير السنوي عن تقييم وزارة التنمية الاقتصادية لمدة 12 شهرا ومن التقديرات الفصلية لـ -Ros stat لمدة 9 أشهر (حدثت حالات مماثلة في السنوات السابقة). وفي هذا العام، فإن احتمال حدوث مثل هذا التطور سيكون مرتفعا بسبب عدم اليقين الكبير والتغيرات في التناسبات الهيكلية في الاقتصاد. لذلك، تتخذ وزارة التنمية الاقتصادية نهجا متحفظا في تقييم الناتج المحلي الإجمالي ككل لهذا العام، على الرغم من التغيرات الأكثر إيجابية المتوقعة في نهاية الأشهر الـ 11". وأوضحت الوزارة التفاوت البالغ 0.3 نقطة مئوية بين التقدير لعام 2020 بأكمله و11 شهرا من العام نفسه.

وكما ورد، تتوقع وزارة التنمية الاقتصادية نمو الناتج المحلي الإجمالي بنسبة 3.3% في عام 2021.

وأشار ريشتنيكوف إلى أنه في الأشهر الـ 11 الأولى من العام 2020، وصل إنتاج الصناعات التحويلية إلى مستوى العام الماضي تقريبا (انخفاض بنسبة 0.1% فقط من الناحية السنوية)، وبنسبة زيادة في الانتاج الزراعي قدرها 1.5%، واستقرت وتيرة البناء بنسبة (0.3-% لمدة 11 شهرا).

وقال ان "اتفاق الاوبك حول الحد من انتاج البترول كان له تأثير تقييدي على استعادة مؤشرات الانتاج". وأضاف ان "هذا الانخفاض هو انخفاض اقل من المتوقع في الاستثمار، إذ كان الانخفاض لمدة 9 أشهر بنسبة (4.1-%)". وكان من العوامل الهامة في استقرار الحالة هو انتعاش طلب المستهلكين.

وقال ان "الوضع في سوق العمل بدأ يستقر تدريجيا، إذ بلغ معدل البطالة في سوق العمل في شهر تشرين الثاني 6.1%. ومن المتوقع أيضا أن تنخفض البطالة المسجلة... ومع ذلك، لا يزال الوضع في سوق العمل متوترا. وستكون استعادة العمالة احدى اولويات السياسة الاقتصادية خلال العام 2021".

كما أشار ريشتنيكوف إلى أنه في ظل ظروف انخفاض الدخول في العام 2020، لم يتم تخفيض نفقات الميزانية، بل تضاعفت. "بحلول نهاية العام نتوقع عجزا في الميزانية الاتحادية يزيد على 4 تريليون روبل، وسوف يتجاوز الإنفاق بمقدار 22.5 تريليون روبل. وهذا إجراء مهم لدعم الاقتصاد، لأن نفقات الميزانية

هي في الوقت الحالي المرتكز الذي يسمح للاقتصاد ليس فقط بالبقاء واقفا على قدميه، ولكن يقوم بدور المحرك" [13].

وقال ان المناطق الريفية استلمت في العام الجاري 2021 دعما بمقدار 300 مليار روبل اضافية للتعويض عن انخفاض العائدات. وفي غضون 11 شهرا، زاد حجم التحويلات بين الميزانيات بنسبة 60% (مقارنة بالفترة نفسها من العام الماضي)، "مما سمح بزيادة نفقات الأشخاص بنسبة 14% في 11 شهرا مقارنة بالعام الماضي، مع خفض دخلهم بنسبة 4%".

وعموما، فإن الوضع اليوم ليس سوى انحراف، وليس خروجا عن مسار النمو الاقتصادي المستدام. ومن خلال الاستثمارات، مع تطوير الشركات الصغيرة والمتوسطة الحجم، وبالتالي مع مناخ الأعمال. وهذا يعني الربط بين الانتعاش وزيادة تطوير الاقتصاد. وتعتمد القرارات التي اتخذتها الحكومة الروسية على مسار التنمية الاقتصادية الذي سيصل اليه الاقتصاد الوطني.

وسلط وزير التنمية الاقتصادية في روسيا الاتحادية ريشتنيكوف الضوء على أربعة مجالات عمل رئيسية للوصول إلى مسار التنمية المستدامة:

"الأول هو الإصلاح التنظيمي الذي يشمل آلية تنظيمية ونموذجا جديدا للرقابة والإشراف. والثاني هو آلية "تحويل مناخ الأعمال". والثالث هو حماية الاستثمار الخاص. وأخيرا، تكييف التشريع مع الواقع الجديد" [14].

5. الأسباب الرئيسة لتسارع التضخم

ان ضعف الروبل والزيادة الكبيرة في اسعار المواد الغذائية العالمية وانخفاض محصول عدد من المحاصيل، كانت تشكل الاسباب الرئيسية لتسارع التضخم في عدد من المنتجات الغذائية في روسيا في الربع الاخير من العام 2020.

فيما أشار مكسيم ريشتنيكوف إلى أنه من أجل استقرار الوضع مع الأسعار، وقعت وزارتا الصناعة والزراعة اتفاقيات مع الشركات التجارية والمنتجين، وفرضت الحكومة رسوم تصدير على عدد من المنتجات الغذائية الضرورية لقوت المواطنين، وأطلقت تدابير دعم للمنتجين الزراعيين. وفي المقام الأول احتلت المخابز ومنتجو الدقيق. في حين ناقش مجلس الدوما (البرلمان) الروسي في 25 كانون الأول 2020 مشروع قانون يمنح الحكومة صلاحيات إضافية لتنظيم أسعار المواد الغذائية. وهذا المقترح هو اجراء طارئ متطرف لا يمكن تطبيقه الا بدقة شديدة، واذا لم تنجح جميع الاجراءات الاخرى ذات الطبيعة الاقتصادية، في المقام الاول.

6. خطة لدعم الاقتصاد الروسي في سياق الفيروس التاجي

كان من المتوقع ان ينخفض نمو الاقتصاد الروسي بسبب الفيروس التاجي، وتمت معالجة هذا الانخفاض من خلال تدابير واجراءات خاصة اتخذتها الحكومة الروسية في الحجر الصحي العام الذي قدرت مدته حتى نهاية نيسان 2021. وقد كان لمثل هذه الإجراءات بالفعل تأثير سلبي قوي على الشركات الصغيرة والمتوسطة الحجم

بسبب انخفاض قيمة الروبل وانخفاض أسعار النفط كذلك.

وكانت الحكومة قد اقترحت عددا من الاجراءات المناهضة للأزمات يوم 16 آذار 2020 واتخذت عددا من الخطوات الاتية:

- تشكيل صندوق لمكافحة الأزمات من 300 مليار روبل؛
- الضرائب المؤجلة للسياحة وصناعة الطيران؛
- القروض الميسرة للشركات التي تخلق مخزونا من السلع الأساسية؛
- تقديم أقصى قدر من الدعم للشركات الصغيرة والمتوسطة.

وفي 9 نيسان 2020، ناقش الرئيس الروسي فلاديمير بوتين، خلال اجتماع مع رؤساء المناطق، التدابير الرامية إلى دعم الاقتصاد بمزيد من التفصيل. وذكر ما يأتي:

- تخفيض المساهمات الاجتماعية من 30 إلى 15% للشركات الصغيرة؛
- تأجيل أقساط التأمين لمدة ستة أشهر؛
- تحويل جميع الضرائب باستثناء ضريبة القيمة المضافة لمدة ستة أشهر؛
- إعادة هيكلة الدين بعد التأجيل؛
- خفض الفوائد القصوى للشركات العاملة في ما يتعلق بالمراجع والموافقات والإيضاحات.

خلال مؤتمر عبر الفيديو مع محافظي المحافظات، حدد فلاديمير بوتين التدابير الرئيسية لدعم الاقتصاد الوطني. كما أصدر تعليماته للحكومة والبنك المركزي خلال 5 أيام بإعداد حزمة من الإجراءات الإضافية لدعم الأعمال، بما يسمح بالحفاظ على دخل العاملين والعمالة نفسها. وطلب من رؤساء المناطق الادارية أن يكتبوا قائمة بأسماء الشركات التي تحتاج الى الدعم.

وفي معرض حديثه عن تأثير وباء الفيروس التاجي على الاقتصاد الروسي، قال المتحدث الرسمي باسم الرئاسة الروسية ديمتري بيسكوف إنه بالمقارنة مع الدول الأخرى "لدينا وضع مختلف تماما". وقال في قناة تلفزيون روسيا 1 - 1tv.ru/live ان الاقتصاد الروسي "ديناميكي تماما"، بيد انه اظهر ايضا انخفاضا وتراجعا اقل مما كان عليه في الدول الاخرى. واضاف المتحدث باسم الكرملين ان البلاد قدمت على وجه الخصوص مساعدات جراحية لمن يحتاجونها في المقام الاول. وعلى سبيل المقارنة، استشهد بالبلدان التي "تم ضخ مئات المليارات وحتى تريليونات من عملاتها" مثل الولايات المتحدة الأمريكية وألمانيا وفرنسا وايطاليا.. ويستطرد بيسكوف: هل أنقذ اقتصادهم والاقتصاد العالمي من الهبوط بنسبة 4%؟"[16].

وفي سياق وباء فيروس كورونا COVID-19، اقترح الرئيس الروسي فلاديمير بوتين ما يأتي[17]:

- ينبغي أن يكون رأس المال الضريبي الذي اقترحه الرئيس بوتين من ضريبة الدخل والضريبة تحويل اموالهم الخاصة والحفاظ على دخلهم". يوجد الآن 650،000 مواطن لديهم وضع العاملين لحسابهم الخاص في روسيا.

- إعادة ضريبة العاملين لحسابهم الخاص المدفوعة بالكامل في العام 2019، وكذلك تزويدهم برأس المال الضريبي.

- وبالنسبة لأصحاب المشاريع الفردية المتضررين من الوباء، إجراء خصم

ضريبي لأحد أقساط التأمين في العام 2020. وأضاف "من الضروري الآن تخفيف العبء المالي على المؤسسات المالية التي تعمل في الصناعات الأكثر تضررا".

- شطب جميع الضرائب للربع الثاني فيما عدا ضريبة القيمة المضافة واقساط التأمين للشركات الصغيرة والمتوسطة من الصناعات المتضررة وكذا المنظمات غير الحكومية ذات التوجه الاجتماعي.

- مساعدة المواطنين العاملين لحسابهم الخاص:

• ارجاع ضريبة الدخل للعام 2019 بالكامل.

• توفير رأس مال ضريبي واحد، بحيث يقومون بدفع الضرائب دون جمع أموالهم الخاصة.

- مساعدة الأسر التي لديها أطفال:

• ستتمكن الأسر المحتاجة التي لديها أطفال من الحصول على حوالي 000 33 روبل لكل طفل في حزيران 2020 في غضون ستة أشهر فقط.

• وسيضاعف الحد الأدنى لبدل رعاية الطفل إلى 751 000 6 روبلا.

• واعتبارا من 1 كانون الثاني 2020، سيتم دفع 10 الاف روبل للأسر ذات الاطفال الذين تتراوح اعمارهم بين 3 و15 عاما.

• وستحصل الأسر التي لديها أطفال على 000 5 روبل لمدة ثلاثة أشهر. لكل طفل قاصر يتم تعيين دفع 3000 روبل.

• وستحصل الأسر التي لا تملك الحق في رأس مال الأم على مبلغ شهري قدره 000 5 روبل عن نيسان وأيار وحزيران.

• وسيتم إعداد تدابير منفصلة لدعم الأشخاص الذين فقدوا وظائفهم.

- مساعدة الأطباء والأخصائيين الاجتماعيين

في الفترة من 15 نيسان إلى 15 تموز، تم إنشاء دفع مشترك اتحادي خاص للأطباء والأخصائيين الاجتماعيين:

• سيحصل الأطباء على 40.000 روبل لنوبة عمل لمدة أسبوعين، وعند العمل مع مرضى الفيروس التاجي على - 60.000 روبل.

• سيحصل الأخصائيون الاجتماعيون على 25 ألف روبل، وعند العمل مع مرضى الفيروس التاجي على - 35 ألف روبل.

وقال الرئيس الروسي فلاديمير بوتين في اجتماع في مبنى الحكومة في مطار فنوكوفو في الاول من آذار 2021 ان المستوى الحالي لاسعار النفط مقبول بالنسبة للاقتصاد الروسي. (ووفقا للتوقعات الكلية المحدثة للحكومة، تم رفع متوسط السعر السنوي لنفط الأورال لسنة 2020 من 57 دولارا إلى 57.7 دولار (في العام 2021 - 56 دولارا في العام 2022 - 55 دولارا). وقال: "من الصعب اليوم التكهن الى متى سيصبح هذا الاتجاه. وعلى أية حال، من المهم بالنسبة لنا أن نكون مستعدين لمجموعة متنوعة من السيناريوهات". كما ذكر الرئيس الروسي ان صندوق الرعاية الوطني قادر على ضمان كافة التزامات الحكومة في حالة تدهور الوضع في الاقتصاد العالمي. ووفقا لوزارة المالية، بلغ حجم رأسمال البنك الوطني الروسي حتى الأول من فبراير/ شباط 124.3 مليار دولار، أو ما يعادل الـ 6.9% من الناتج المحلي الإجمالي [18].

7. المفوضية الأوروبية تتوقع تسارع نمو الناتج المحلي الإجمالي لروسيا في 2021

وفقا لتوقعات المفوضية الأوروبية في بروكسل، فإن الناتج المحلي الإجمالي لروسيا سوف ينمو إلى 2.7% في العام 2021. في حين كان من المتوقع سابقا أن يبلغ نمو الناتج المحلي الإجمالي الروسي بحلول نهاية هذا العام 2021 بحدود 2%.

كما تشير الوثيقة الصادرة من المفوضية الأوروبية، فقد انخفض نمو الاقتصاد الروسي في العام 2020 بنسبة 3%، بسبب وباء كورونا وانخفاض أسعار النفط عالميا في الكثير من دول العالم. ويتوقع الخبراء الاقتصاديون في المفوضية الاوروبية ان روسيا ستتمكن في العام 2022 من استعادة مستوى ناتجها المحلي الإجمالي إلى مستويات ما قبل وقوع الوباء.

ولن تسهم النجاحات في مكافحة الوباء في الانتعاش النشط للاقتصاد الروسي فحسب، بل ستسهم أيضا في الديناميات الاقتصادية العالمية الإيجابية وارتفاع كلفة النفط. ووفقا لتوقعات المفوضية الأوروبية، سوف يبلغ متوسط السعر السنوي لخام برنت في العام 2021 63.9 دولار للبرميل[19].

الخاتمة

تعرضت للخطر الإنجازات التي تحققت بشق الأنفس في الحد من الفقر في جميع أنحاء العالم بسبب جائحة كورونا CO-ID-19 ، فمن المتوقع أن يعاني أكثر من 100 مليون شخص من الفقر المدقع بحلول نهاية العام 2021 نتيجة لهذا الوباء. وكان لهذا الوباء أثر دائم وعميق على نمو الإنتاجية والناتج المحتمل، حيث أن تراجع الثقة في الأعمال التجارية يزيد من إضعاف النشاط الاستثماري، ويبطئ تكوين رأس المال البشري، بسبب تدهور الصحة، وإغلاق المدارس لفترات طويلة، والبطالة الطويلة.

وفي الربع الأول من العام 2021، ارتفعت أسعار جميع السلع الأساسية تقريبا، مما يعكس اتجاها مستمرا نحو زيادة ملحوظة في الأسعار ابتداء من منتصف العام 2020. وقد أصبحت موارد الطاقة أكثر تكلفة، وهو أمر ذو أهمية خاصة بالنسبة للصادرات الروسية من الوقود ومنتجات الطاقة.

ويظهر اقتصاد أكبر شريكين تجاريين لروسيا، وهما منطقة الاتحاد الأوروبي والصين، اتجاهات متباينة في النمو. فلا يزال النشاط الاقتصادي في منطقة الاتحاد الأوروبي حساسا للارتفاعات المتكررة في مؤشر COVID-19، ولا تزال الصين، ثاني أكبر شريك تجاري لروسيا، تشهد انتعاشا اقتصاديا دوريا.

فقد انكمش الناتج المحلي الإجمالي لروسيا بنسبة 3.0% في العام 2020؛ وفي الوقت نفسه، انكمش الاقتصاد العالمي بنسبة 3.8%، والاقتصادات المتقدمة بنسبة 5.4%، واقتصادات المنطقة الاقتصادية المتوسطة والعالية المصدرة للسلع الأساسية بنسبة 4.8% [20]. هناك العديد من العوامل التي ساعدت روسيا على تحقيق نتائج أفضل نسبيا: ففي السنوات الأخيرة، بذلت روسيا الكثير من العمل لضمان الاستقرار المالي الكلي، الأمر الذي أدى إلى تحسن وضع الميزانية الضريبية. وقد أدى التخليص الواسع النطاق للقطاع المصرفي، إلى جانب تحسين التنظيم والإشراف المصرفيين، إلى

زيادة في احتياطيات رأس المال والسيولة؛ ففي العام 2020، تدهور أداء الميزانية الروسية، ولكن في الربع الأول من العام 2021 أصبح الوضع أفضل. وقد أظهر القطاع المصرفي الروسي حتى الآن مرونة في مواجهة الصدمات، ولكن التأثيرات على المدى المتوسط لم تظهر بعد. وقد ساهم الانتعاش الاقتصادي البطيء وبرامج الإقراض الميسر الحكومية في نمو الائتمان. ولا تزال العمالة في روسيا دون المستويات ما قبل الوباء، ولكن في نهاية العام 2020 بدأت تظهر بعض علامات التحسن في سوق العمل. يمكننا الاستنتاج مما ورد آنفا أن تأثير الفيروس التاجي على الاقتصاد الروسي سوف ينحسر، ويبدأ الاقتصاد الوطني بالتعافي تدريجيا، إذ بدأت المرحلة الجديدة من النمو من بداية الربع الثاني من العام الجاري 2021. وفي الوقت نفسه، تراكمت لدى البلد احتياطيات داخلية كافية لتقليل الأثر السلبي للركود إلى أدنى حد.

الهوامش والمصادر باللغة الروسية :

1.Вадим Бон.Internetboss.ru.19/3/2020.

1. Американский индекс S&P

2. www. Internet Boss. Влияние коронавируса на экономику и финансовые рынки. 19 марта, 2020 by admin.

3. Вадим Бон.Internetboss.ru.19/3/2020.

4. Lenta .RU.Юсукэ Оцубо.экомика.16/8/20

5. Что происходит в России и в мире? Объясняем на нашем YouTube-канале.!

6. Lenta.ru. Оценено влияние коронавируса на экономику России. 16/1/2021.

7. Коронавирус онлайн, Как повлияет и чем грозит коронавирус экономике России в 2020 году. 9/4/2020.

8. Тоже

9. Коронавирус онлайн, Как повлияет и чем грозит коронавирус экономике России в 2020 году. 9/4/2020.

10. Тоже

11. Александр Астафьев. ТАСС. FINMARKET.RU.25 декабря .2020

12. Тоже.

13. Минэкономразвития Максим Решетников, выступая в ходе правительственного часа в Совете Федерации. ТАСС. FINMARKET.RU.25 декабря. .2020Москва.

14. https://www.1tv.ru/live. пресс-секретарь президента РФ Дмитрий Песков.Москва.

15. ТАСС. Пандемия Covid-19. Путин предложил вернуть самозанятым уплаченные ими налоги за 2019 год.11 мая 2020

16. Наталья Колесникова / AFP / Scanpix / LETA, 10:52, 5 января 2021,Источник: Meduza, Москва.

17. Еврокомиссия прогнозирует ускоренный рост ВВП России в 2021 году.12 мая 2021. Брюссель

18. Всемирый Бан, Доклад об экономике России, Последниий выпуск номер 45.

19. Новости. Олег Шерденичнк. Академии плеханова.Москва. 26.02.2020.

20. www. Zdrav Expert.Влияние коронавируса Covid-19 на экономику России.4/3/2021.

مدخل في دراسة مصادر تمويل المشاريع الصغيرة والمتوسطة

د. حيدر عبدالامير الغريباوي

دكتوراه في الاقتصاد، كلية الادارة والاقتصاد - الجامعة المستنصرية. التخصص الدقيق العلاقات الاقتصادية الدولية. مدير البحوث والدراسات في الشركة العامة لتجارة الحبوب في وزارة التجارة العراقية.

المقدمة

تعد المشروعات الصغيرة والمتوسطة من أهم العناصر الرئيسة في تحقيق التنمية الاقتصادية والاجتماعية في جميع دول العالم، حيث أنها تستحوذ على النسبة الاعلى من بين جميع أنواع المشاريع الاقتصادية، وتهدف الدراسة إلى البحث في أهمية المشروعات الصغيرة والمتوسطة، والتعرف الى المعوقات التمويلية التي تواجه المشروعات الصغيرة والمتوسطة في العراق، والتي تعيق نموها وتطورها والتعرف الى دور المصارف والمؤسسات المالية والصعوبات التي تواجهها في تمويل قطاع المشروعات الصغيرة والمتوسطة في العراق.

يعاني العراق كأحد البلدان النامية انخفاض معدلات الادخار والاستثمار وارتفاع معدلات البطالة. ونظراً لصعوبة إقامة المشروعات الكبيرة التي تحتاج إلى تمويلات ضخمة وكفاءات عالية توجه الاهتمام نحو المشروعات الصغيرة والمتوسطة كونها تتميز بقدرتها على خلق فرص العمل. كما تلعب دوراً قياساً في تغطية الاسواق المحلية، وتساعد على زيادة الناتج القومي ومن هنا، تأتي أهمية الدراسة في تسليط الضوء على المعوقات التمويلية للمشروعات الصغيرة والمتوسطة في العراق، وما ينبغي للمصارف والمؤسسات المالية القيام به من دور في تمويل تلك المشروعات.

أهمية الدراسة:

إنّ موضوع المشروعات الصغيرة يعد القناة الرئيسة للتنمية في مختلف مجالاتها، فهي تمثل العمود الفقري لاقتصاديات الدول المتقدمة والنامية على حد سواء، وذلك للبعد

الملموس الذي تمثله هذه المشروعات في هيكل بناء هذه الاقتصاديات، فهي تشكل نسبة تتراوح ما بين 75 - 95% من إجمالي الصناعات في الدول المتقدمة وفي البلدان النامية تشكل نسبة المشروعات ومنه يمكن أن نستشف أهمية الدور الذي يجب أن تقوم به الدولة والمؤسسات المالية والمصارف في المساهمة في تحقيق أهداف التنمية في مجتمعاتها، وذلك عن طريق الإسهام والدعم المباشر لقطاع المشروعات الصغيرة لما يمثله من أهمية بارزة في تحقيق أهداف التنمية الشاملة.

أولاً : مفهوم المشروعات الصغيرة والمتوسطة وتعاريفها

إنّ الوصول إلى مفهوم شامل جامع، محدد، ودقيق للمشاريع الصغيرة، من الصعب توحيده، وذلك لخضوعه لعدة معايير تختلف باختلاف البيئة التي تقام فيها هذه المشاريع؛ حيث تختلف البيئات باختلاف أنظمتها السياسية والاقتصادية وأوضاعها المالية، وبالتالي لا يمكن تحديد تعريف موحد دون الأخذ بعين الاعتبار المعايير المتوفرة في اقتصاد الدولة.

وبدورها عرفت منظمة الأمم المتحدة للتنمية الصناعية (يونيدو) المشروعات الصغيرة بأنها" تلك المشاريع التي يديرها مالك واحد يتكفل بكامل المسؤولية ويتراوح عدد العاملين فيها ما بين 10 إلى 50 عاملا".

كما يصف البنك الدولي المشاريع التي يعمل فيها أقل من 10 عمال بالمشاريع بالغة الصغر، والتي يعمل فيها بين 10 و50 عاملا بالمشاريع الصغيرة، وتلك التي يعمل فيها بين50 و100 عامل بالمشاريع المتوسطة.

اتجهت المنظمات الدولية والاقليمية والباحثون إلى تعريف تلك المشروعات، واذا ما أتينا إلى تعريف مؤتمر الامم المتحدة للتجارة والتنمية فانه يحدد المشروعات الصغيرة بأنها التي يعمل بها بين 20 - 100 عامل. بينما المشروعات المتوسطة التي يعمل بها بين 101 - 500 عامل.

أما منظمة العمل الدولية فإنها تعرف المشروعات الصغيرة بأنها المشروعات التي يعمل بها أقل من 10 عمال، والمشروعات المتوسطة التي يعمل بها ما بين 10 - 99 عاملا [1].

مصطلح المشروعات الصغيرة انتشر استخدامه، وأخذ التركيز على أهميته مؤخراً، على الرغم من وجوده عملياً منذ بداية تشكل المجتمعات، ويشمل هذا المصطلح "الانشطة التي تتراوح بين من يعمل لحسابه الخاص أو في منشأة صغيرة تستخدم عددا معينا من العمال ولا يقتصر هذا المصطلح على منشآت القطاع الخاص ومالكها وأصحاب الاعمال والمستخدمين ولكنه يشمل كذلك التعاونيات ومجموعات الانتاج الاسرية أو المنزلية" [2].

يمكن تقسيم تعريف المشروعات الصغيرة والمتوسطة إلى فئتين: تعريف اقتصادي، وتعريف احصائي. ففي ما يتعلق بالتعريف الاقتصادي، يمكن تصنيف الشركة على انها

صغيرة إذا استوفت المعايير الاتية [3]:

- لها حصة صغيرة نسبياً من السوق التي تعمل بها.
- تتم إدارتها من قبل المالكين أو بعضهم

بطريقة غير رسمية، وليس من خلال هيكل إداري وتنظيمي رسمي.

• مستقلة وليست جزءا من شركة أكبر.

وتعرف المشروعات الصغيرة بالاعتماد على المعايير الكمية، ومعيار رأس المال، فضلاً عن معيار المستوى التكنولوجي المستخدم. فقد تعددت هذه المعايير نظرا لاختلاف البيئة الاقتصادية والاجتماعية والقانونية لكل بلد، وكذلك تعددت نظرا لاختلاف الجهة التي تعتمد هذه المعايير. وقد استعرض العديد من الباحثين في هذا المجال هذه المعايير. وسنحاول هنا أن نستعرضها حسب الاستخدام الأكثر شيوعا والأكثر ملاءمة لواقعنا الذي نعيش فيه، وأهم هذه المعايير حسب الترتيب:

1 - معيار عدد العاملين:

يعتبر معيار عدد العاملين أهم المعايير الكمية التي تستخدم في تعريف المشروعات الصغيرة وأكثرها شيوعا، كون هذا المعيار أكثر فاعلية في المقارنة وأكثر ثباتا في الواقع من المعايير الأخرى.

2 - معيار رأس المال (صافي حقوق الملكية):

تعرف حقوق الملكية بالفرق بين إجمالي الأصول وإجمالي الخصوم لمنشأة ما. ويستخدم هذا المعيار في العديد من الدول المتقدمة والدول النامية، ويؤخذ عليه تذبذبه واختلافه وتفاوته الكبير حتى في الدولة الواحدة، إلا أنه رغم ذلك يظل معيارا متعارفا عليه والعديد من الدول تأخذ به [4].

3- معيار المستوى التكنولوجي المستخدم

وهذا المعيار قد يكون أكثر فاعلية في الدول المتقدمة أما بالنسبة للدول النامية، فقد لا يكون فاعلا بشكل أمثل في تعريف المشروع الصغير، نظرا لقصور المستوى التكنولوجي في هذه الدول بشكل عام.

4 - معيار المبيعات

هذا المعيار لا يعد شائعا في الدول العربية نظرا لتذبذبه، إلا أنه من الممكن أن يكون أكثر ملاءمة للمشروعات الخدمية والتجارية منها للمشروعات الصناعية، إضافة إلى العديد من المعايير الكمية الأخرى الأقل شيوعا والأقل ملاءمة للواقع العربي ومنها:

• معيار حجم الاستثمار في الأصول الثابتة.

• معيار حجم الميزانية السنوية للمنشأة.

مما سبق نجد أن المعايير الكمية الأكثر شيوعا والأكثر ملاءمة هي: معيار عدد العمال ومعيار رأس المال يأتي بعدها معيار المستوى التكنولوجي المستخدم، في حين تعتبر المعايير الأخرى أقل ملاءمة [5].

ثانياً: المصادر الرئيسة لتمويل المشروعات الصغيرة والمتوسطة ومحدداتها

نشير بهذا الصدد إلى أن المؤسسات الصغيرة والمتوسطة تحتاج إلى التمويل في فترات حياتها، بدءاً بتأسيس المشروع وانطلاقه، وأثناء تطويره وتنميته وتحديثه. كذلك في حالة استعداد المشروع أو الصناعة إلى الانطلاق نحو الأسواق التصديرية. وتحتاج المشروعات الصغيرة والمتوسطة للتمويل في مجالات البحث والتدريب ومتابعة الأسواق ومسايرة تطورات الإنتاج، إضافة إلى الحالات التي يتعرض فيها المشروع لأي حدث استثنائي.

وهناك ثلاثة مصادر أساسية لحصر مصادر التمويل للمشاريع الصغيرة [6]

1. التمويل الرسمي

يتم تقديم تمويل لهذه المشاريع من خلال المؤسسات المالية والمصرفية كالبنوك، وصناديق الادخار، وأسواق رأس المال... الخ.

2. التمويل غير الرسمي

يتم تمويل هذه المشاريع وفق أساليب غير رسمية، مقدمة من المؤسسات التمويل الرسمية، وذلك من خلال عدة برامج أو نظم فرعية كإقراض المجموعات، والمؤسسات المالية التعاونية، وصناديق التنمية المحلية... الخ.

3. مصادر تمويل أخرى

يتم تمويل غالب هذه المشاريع من خلال القنوات التي تعمل خارج إطار النظام القانوني الرسمي للدولة، كالمدخرات الشخصية، أو الاقتراض من الأهل، الأصدقاء، ووكلاء المبيعات، وجمعيات الادخار والائتمان... الخ.

أما محددات الهيكل التمويلي للمشروعات الصغيرة والمتوسطة فقد أصبحت البديل الاقتصادي الاقوى أمام العديد من الاقتصاديات لمواجهة العديد من المشاكل الاقتصادية، مثل خلق فرص العمل وزيادة الصادرات وتحقيق معدلات نمو جيدة، إلا أن نمو وتطور المشروعات الصغيرة والمتوسطة مرتبط بمدى تجاوزها لمشكلة التمويل التي تظل المحدد الاساسي لقراراتها المتعلقة بالاستثمار والتطور وقدراتها المالية والتنافسية.

ولم تتوقف الابحاث المتعلقة بالمشروعات الصغيرة والمتوسطة عن التطور خلال العقدين الماضيين، كون هذه المشروعات تمثل حقلا خاصا لتبادل المعلومات المالية. وأظهرت الابحاث أن المشروعات الصغيرة والمتوسطة ليست مجرد شكل مصغر للمشروعات الكبيرة وخاصة أثناء الدراسات التي تفسر السلوك التمويلي لهذه المشروعات. وحاولت العديد من الدراسات تفسير السلوك التمويلي للمشروعات الصغيرة والمتوسطة حسب عدة نظريات ونماذج، كنظرية الوكالة، ونموذج دورة الحياة، ونظرية الالتقاط التدريجي.

ثالثاً: المعوقات والتحديات التي تواجه المشروعات الصغيرة والمتوسطة

تبرز العديد من المعوقات والتحديات التي تواجه المشروعات الصغيرة والمتوسطة، ونورد في ادناه اهمها:

1. المعوقات القانونية: وتتمثل هذه المعوقات في ما يأتي :

- غياب التشريعات القانونية التي تنظم وتدعم وتحمي هذه المشروعات.
- غياب المؤسسات الرسمية التي تعمل هذه المشروعات تحت مظلتها وحمايتها.
- غياب النقابات والاتحادات التي ترعى مصالح هذه المشروعات.

2. المشاكل التمويلية: تعاني المشروعات الصغيرة والمتوسطة صعوبة الحصول على التسهيلات الائتمانية من المصارف التقليدية وذلك للأسباب الاتية:

- ارتفاع درجة المخاطر المصرفية المرتبطة بإقراض المشاريع الصغيرة والمتوسطة. ارتفاع نسبة فشلها وقابليتها للتعثر والانهيار بفعل التغيرات الاقتصادية

التي يتعرض لها السوق.

• عدم قدرة هذه المشروعات على توفير الضمانات التقليدية اللازمة للحصول على التمويل اللازم. وهذه الضمانات تعتبر من أهم متطلبات الحصول على الائتمان من المصارف التجارية.

• يؤدي إقراض المشروعات الصغيرة الى ارتفاع التكاليف الادارية التي تؤثر على حجم أرباح المصارف.

• تحيز المصارف التجارية لصالح المشروعات الكبيرة، حيث يوجد بينها في أغلب الاحيان روابط ومصالح مشتركة. وتأخذ هذه الروابط شكل الادارة المشتركة والملكية المشتركة، والصفقات المشتركة كذلك.

3. الصعوبات الادارية والتسويقية:

- يفتقد اصحاب المشروعات الصغيرة والمتوسطة، المهارات اللازمة لمسك السجلات المحاسبية وتوثيق العمليات المالية.

- ضعف في القدرات والمهارات الادارية لدى أصحاب المشروعات الصغيرة والمتوسطة، وعدم استفادتهم من متطلبات الادارة الحديثة اللازمة لإدارة التشغيل والإنتاج مما يؤدي إلى تميز أعمالهم بضعف التخطيط في هذه المجالات.

- عدم قدرة هذه المشروعات على الحصول على المواد الاولية بكلفة أقل مما يعني أن منتجات المشروعات الصغيرة والمتوسطة تكون أعلى كلفة نسبياً. وفي الغالب يؤثر ذلك على قدرتها التنافسية.

- نقص المهارات في مجالات التسويق وتوطين التكنولوجيا والقدرة على مراقبة وتطوير وتحسين الانتاج.

رابعاً: الأهمية الاقتصادية الاجتماعية لتمويل المشروعات الصغيرة

تلعب المشروعات الصغيرة دورا بارزا وهاما في تطوير كافة جوانب التنمية الاقتصادية والاجتماعية، والتي تمثل مقياس تقدم الشعوب أو تأخرها. وسنستعرض في ما يأتي الدور المؤثر للمشروعات الصغيرة على مختلف مجالات التنمية الاقتصادية والاجتماعية منها والسياسية [7]:

1. الأهمية الاقتصادية لتمويل المشروعات الصغيرة:

تلعب المشروعات الصغيرة دورا هاما في تحقيق التنمية الاقتصادية لدى المجتمع، ومن أهم ما تحققه المشروعات الصغيرة في تنمية الاقتصاد الوطني على سبيل المثال لا الحصر:

• جذب المدخرات وتوجيهها نحو الاستثمار والإنتاج، وبالتالي زيادة الدخل.

- تخفيض نسبة البطالة

- توفير النقد الأجنبي وذلك إما عن طريق:

- إنتاج سلع ذات فرص تصديرية.

- إنتاج سلع بديلة للواردات.

- توليد قيمة مضافة للمنتجات والثروات الوطنية

- توليد فرص استثمارية أخرى تحتاجها هذه المشروعات

- تشكل الأرضية الصلبة للاقتصاد الوطني في مواجهة المؤثرات السلبية والانتكاسات مثل التضخم والكساد، نظرا لتأثرها المحدود بالتقلبات الاقتصادية.

• تلعب دورا هاما في الترابط الأمامي بين الصناعات، حيث تقوم ببعض المراحل الإنتاجية في صناعة بعض الأجزاء من

الآلات التي تستخدمها الصناعات الكبيرة.

2. الأهمية الاجتماعية للمشروعات الصغيرة:

ممكن أن نوجز أهمية دور المشروعات الصغيرة في التنمية الاجتماعية على النحو الاتي:

- رفع نسبة المشاركة الشعبية في الاقتصاد الوطني.
- التوظيف الأمثل للموارد البشرية.
- تحقيق الاستقرار الاجتماعي.

خامساً: خصائص ومزايا المشروعات الصغيرة والمتوسطة ومجالاتها:

تتصف المشروعات الصغيرة والمتوسطة بالعديد من الخصائص والمزايا التي تميزها عن المشروعات الكبيرة، ومن أهمها ما ياتي [8] :

1 - تنمية المواهب والابداعات والابتكارات وارساء قواعد التنمية الصناعية. وتشير نتائج الدراسات المتخصصة في هذا المجال إلى أن عدد الابتكارات والاختراعات التي تحققت عن طريق الصناعات الصغيرة والمتوسطة تزيد على ضعف مثيلاتها التي حققتها الصناعات الكبيرة.

2 - المساهمة في تحقيق التكامل مع الصناعات الكبيرة، حيث تقوم بعض الصناعات الصغيرة والمتوسطة بإنتاج بعض الاحتياجات ومستلزمات الانتاج للصناعات الكبيرة.

3 - خلق فرص عمل أكثر وفرة واستمرارية لتشغيل الشباب، وللتخفيف من حدة البطالة في معظم الدول، وذلك بتكلفة منخفضة نسبياً إذا ما قورنت بتكلفة خلق فرص عمل في الصناعات الكبيرة. ومن ثم تخفيف العبء على ميزانيات الدول المختلفة في هذا المجال.

4 - المساهمة في زيادة حجم الصادرات الصناعية.

5 - لا تتطلب المشروعات الصغيرة كوادر إدارية ذات خبرة كبيرة، مما ينعكس على تكلفة المنتجات.

6 - تتميز المشروعات بأن لها القدرة على التفاعل بمرونة وسيولة مع متغيرات الاستثمار، أي التحول إلى إنتاج سلع وخدمات أخرى تتناسب مع متغيرات السوق ومتطلباته.

7 - تحمل الطابع الشخصي بشكل واضح، ويديرها أصحابها بشكل فاعل وقوي، وغالباً ما تكون في منطقة إقامة الشخص.

8 - تقوم المشروعات الصغيرة والمتوسطة بتحقيق التوازن الاقليمي داخل المجتمع، من خلال التنمية الاقتصادية (صناعة، تجارة، خدمات) والاستثمار الجغرافي وتحقيق النمط المتوازن للأقاليم.

سادساً: دراسة الجدوى الاقتصادية للمشروعات الصغيرة والمتوسطة ودورة النمو المالي

1. دراسة الجدوى الاقتصادية للمشروعات الصغيرة والمتوسطة

تعد دراسة الجدوى الاقتصادية العمود الفقري لأي مشروع وكذلك بالنسبة للمشروعات الصغيرة والمتوسطة، والتي يتم على أساسها اتخاذ القرار بتنفيذ المشروع من عدمه. وتتكون دراسة الجدوى

الاقتصادية من أربعة أقسام هي :

• **دراسة السوق :**

تحتل بحوث ودراسة السوق مكان الصدارة عند إعداد دراسة الجدوى الاقتصادية لأي مشروع باعتباره العامل الاساسي الذي يحدد نجاحه أو فشله، مع الاخذ في الاعتبار تغير الظروف نتيجة تغير أذواق المستهلكين، أو بسبب التطور التقني السريع الذي يؤثر على تصميم السلع والخدمات وأساليب إنتاجها وتقديمها وتكلفتها والعائد منها، ولذلك فإن دراسة السوق هي حجر البداية الذي يبنى عليه التصور المنطقي والسليم لجوانب المشروع الاخرى الفنية والمالية. وتهدف دراسة الجوانب التسويقية للمشروع الى[9]:

• تحديد المنتج الذي يقدمه المشروع للسوق.

• تحديد الطلب على المنتج من قبل المستهلكين في الماضي والحاضر والمستقبل.

• تحديد المعروض من المنتج من قبل المنافسين في الماضي والحاضر والمستقبل.

• تحديد الفجوة التسويقية المتاحة للمنتج بالسوق.

• تحديد الاسعار المتوقعة لبيع المنتج في إطار الاسعار المنافسة.

• اقتراح خطة لترويج وتسويق المنتج مع الاخذ بعين الاعتبار شروط البيع وقنواته.

• **الدراسة الفنية :**

تركز الدراسة الفنية للمشروع على الجوانب الاتية:

• موقع المشروع ومدى قربه من مصادر المواد الخام والاسواق.

• مدى توفر البنية التحتية اللازمة للمشروع.

• المباني الواجب إنشاؤها وتكاليفها مع الاخذ في الاعتبار التوسع المستقبل.

• المواد الخام ومواصفاتها ومدى توافرها والمواد البديلة ومصادرها الحالية والمحتملة.

• تحديد احتياجات المشروع من الاصول الثابتة.

• تحديد المواصفات الفنية للمنتج.

• تحديد احتياجات المشروع من العمالة الفنية وفقا لمتطلبات العمل.

• تحديد القدرة الانتاجية للمشروع: اليومية والشهرية والسنوية.

• الدراسة المالية :

وتستند على نتائج الدراسة الفنية ودراسة السوق. وتركز على الاتي:

• تقدير تكاليف الاستثمار في الاراضي والمباني والآلات.

• طرق تمويل هذه الاستثمارات ومصادر التمويل المتاحة.

• تقدير تكاليف الانتاج والتسويق والادارة السنوية والاسس التي اعتمدت في تقديرها.

• تقدير الايرادات.

• تقدير تكلفة الفرصة البديلة.

• تحديد قيمة الضرائب والاعفاءات المتاحة.

• حساب صافي التدفقات النقدية.

• استخراج معايير ربحية المشروع المالية، مثل فترة الاسترداد ومعدل العائد الداخلي.

الدراسة الاقتصادية والاجتماعية والبيئية :

وتركز على معرفة جدوى المشروع من وجهة نظر الاقتصاد الوطني، وذلك من خلال الاهتمام بما يأتي:

- اثر المشروع على الدخل القومي والقيمة المضافة له.
- اثر المشروع على التوظيف.
- اثر المشروع على مستوى الاجور.
- اثر المشروع على ميزان المدفوعات.
- اثر المشروع على البيئة [10].

2. دورة النمو المالي للمشروعات الصغيرة والمتوسطة :

ينبغي على أي مشروع صغير أو متوسط أن يجتاز دورة النمو المالي، ليكون مؤهلاً للحصول على قروض المصارف، وتتضمن هذه الدورة المراحل الاتية[11]:

مرحلة الشروع :في هذه المرحلة تكون المشروعات الصغيرة والمتوسطة غير مؤهلة للحصول على قروض الجهاز المصرفي. ويقتصر دور المصارف في هذه المرحلة على فتح الحسابات الجارية للمشروعات الصغيرة، وفي أفضل الاحوال تزويدها بالقروض القصيرة الاجل، فتدخل المصارف في عملية تمويل المشروعات الجديدة سيكون محفوفاً بالمخاطر، لضعف تلك المشروعات وارتفاع احتمالات تعرض تلك المصارف للخسارة. لذا فإن النسبة الاكبر من رأس المال التأسيسي والتشغيلي في مرحلة الشروع تمول ذاتيا. والقاعدة العامة هي أن المشروعات في مرحلة الشروع لا تعتمد بشكل كبير على مصادر التمويل الخارجية.

مرحلة النمو: تبدأ المصارف في هذه المرحلة بإقامة علاقة أفضل مع المشروعات الصغيرة والمتوسطة مقارنة بالمرحلة السابقة، لكنها لا تقيم علاقة مباشرة مع المشروعات الصغيرة والمتوسطة، بل تفضل الاستعانة بوسيط لعدم قدرة وقابلية تلك المشروعات على إصدار الاوراق المالية أو تقديم ضمانات كافية كمقابل عن القروض. وهنا تتولى مؤسسات الكفالة المصرفية مهمة الوساطة بين المصرف والمشروعات الصغيرة والمتوسطة، من خلال ضمان قروض تلك المشروعات.

مرحلة النضج: في هذه المرحلة ينخفض مستوى المخاطرة في عملية تمويل المشروعات الصغيرة والمتوسطة، وتصل تلك المشروعات إلى المستوى الذي يؤهلها للحصول على القروض المصرفية بشروط ميسرة. تشهد هذه المرحلة تحسناً ملحوظاً في العلاقة بين المشروع والمصارف. كما ستواجه المشروعات الصغيرة والمتوسطة ظروفا أفضل في الوصول إلى مصادر التمويل المختلفة، فضلاً عن قابليتها على الانفتاح على الجمهور غير المصرفي، من خلال الحصول على التمويل المقدم من الاسواق المالية. وهذه التطورات بمجموعها ستحسن من القدرات التفاوضية للمشروعات الصغيرة والمتوسطة في عملية الاقتراض والحصول على التمويل من مصادره المختلفة.

سابعاً: واقع وأهمية المشاريع الصغيرة والمتوسطة في العراق ودور الجهاز المصرفي في تمويلها

1. واقع المشاريع الصغيرة والمتوسطة في العراق

تعرضت المشاريع الصناعية الصغيرة والمتوسطة في العراق الى العديد من النكبات والاخفاقات في السنوات السابقة بصورة أدت في نهاية المطاف الى تراجعها وعجزها عن المساهمة في بناء مناخ صناعي وانتاجي قادر على خلق فرص العمل، ما دفع نحو ارتفاع نسب الفقر والبطالة وتوجه الكثير من الخريجين وأصحاب الشهادات نحو التعيينات الحكومية بدلاً من بناء مشاريعهم واعمالهم الخاصة. كان من المفترض ان يمر القطاع الخاص والمشاريع الصغيرة والمتوسطة في العراق بالعديد من التغيرات الايجابية التي تدفع نحو توسعها وتنميتها وخصوصاً بعد الإعلان الحكومي في مناسبات عديدة على اتباع سياسات اقتصادية تعمل على التحول نحو اقتصاديات السوق وآلياته الحرة، كما في الباب الثاني المادة (25) من الدستور العراقي، والتي نصت على (تكفل الدولة اصلاح الاقتصاد العراقي وفق أسس اقتصادية حديثة، وبما يضمن استثمار كامل موارده). وكان من المتوقع ان تتوجه الدولة نحو دعم المشاريع الخاصة الجديدة والناشئة الى مستوى يمكنها من منافسة البضائع المستوردة وتغطية الطلب المحلي، الا ان الواقع الذي فرض نفسه خلال السنوات السابقة كان خلاف ذلك، حيث لا تزال معظم المشاريع الصغيرة والمتوسطة تعاني مجموعة من المعوقات التي قادت معظم هذه المشاريع في نهاية المطاف الى الاغلاق بعد ان تكدس فوقها غبار الإهمال والتهميش.

وقد صدرت عدة تعليمات تقوم بتنظيم عمل شركات تمويل المشاريع الصغيرة والمتوسطة، منها التشريع رقم 3 تاريخ التشريع 20/09/2010 عنوان التشريع (تعليمات تنظيم عمل شركات تمويل المشاريع الصغيرة والمتوسطة) والذي نشر في جريدة الوقائع العراقية، رقم العدد (4164) [12].

واستناداً الى أحكام الفقرة (6) من المادة (3) و(1) من المادة (104) من قانون المصارف رقم 94 لسنة 2004 وقرار مجلس ادارة هذا البنك بجلسته المرقمة 1461 والمنعقدة بتاريخ 29 و30/7/2010 صدرت المادة (1) التي تشير الى ان يجوز تأسيس شركات مساهمة او محدودة المسؤولية لتمويل المشاريع الصغيرة والمتوسطة، تؤسس وفق احكام قانون الشركات رقم (21) لسنة 1997.

وقد قامت وزارة العمل والشؤون الاجتماعية بتجربة القروض الصغيرة للعاطلين عن العمل في سنة 2007 وشملت الفئات الاتية:

أ- الخريج العاطل عن العمل.
ب- المهجر العائد الى منطقة سكناه.
ت- اصحاب المحال المتضررة.
ث- العوائل المتضررة بنسبة 50%
ج- العاطلين عن العمل.

2. أهمية المشاريع الصغيرة في الاقتصاد الوطني

تلعب المشاريع الصغيرة أهمية كبيرة في التنمية الاقتصادية؛ حيث تتجلى هذه الأهمية في النقاط الاتية[13]:

• تعتبر المشاريع الصغيرة المصدر الرئيسي لتغطية احتياجات الأفراد من السلع والخدمات، وتمد المشاريع الكبيرة بما تحتاجه من مستلزمات وقطع غيار.

• تمثل المشاريع الصغيرة القنوات الأساسية في استهلاك ما تنتجه المشاريع الكبيرة من المواد الوسيطة والمواد الخام.

• تساهم في علاج الاختلالات الهيكلية لموازين المدفوعات، وذلك من خلال إحلال الواردات، وهذا يؤدي إلى تحقيق فائض، يساهم في توسيع قاعدة الاستثمار. وبالتالي رفع مستوى المعيشة الاقتصادية.

• تعمل هذه المشاريع على توظيف عدد كبير من العمالة العاطلة، وتحويلها إلى عمالة منتجة مع توفر فرص التدريب، والابتكارات مما يساهم في الحد من البطالة.

• تسهم في توزيع الثروة، وتحقيق العدالة الاجتماعية، وذلك بتوظيفها للعمالة الفقيرة على اختلاف مستوياتها من حيث المهارة.

• تسهم في توطين المشاريع في المناطق الريفية، وما يتبع ذلك من تطوير في مستويات الوعي، والفهم، والخدمات، وبالتالي تحقيق الاستقرار من خلال التوزيع الجغرافي السليم للسكان.

• تحقيق الاكتفاء الذاتي في كثير من السلع والخدمات والحد من العجز التجاري في اقتصاد الدولة.

• تعتبر فرصة عمل لمحدودي الدخل وحديثي التخرج الجامعي وخاصة أصحاب التخصصات التقنية والفنية.

• عامل أساسي للاستقرار الاجتماعي والسياسي، ولاسيما أنها تعطي فرصة لجميع الفئات الاجتماعية لتفاعلهم في العملية الإنتاجية، ما يحقق إعادة دمجهم في الحياة العملية من خلال تعبيرهم عن ذاتهم.

3. دور الجهاز المصرفي في تمويل المشروعات الصغيرة[14]:

شهد العراق مؤخراً حراكا اقتصادياً مهما، تركزت محاوره على تمويل المشاريع الصغيرة والمتوسطة وضمان قروضها. وتقود هذا الحراك المؤمل أن يتواصل ويحقق اهدافه، سلطة النقد التي تقود الجهاز المصرفي، ومؤسسات الاقراض المحلية والدولية، للاستثمار في تمويل المشاريع الصغيرة والمتوسطة باعتبارها الركيزة الاساسية لإحداث التنمية الاقتصادية والاجتماعية، ما يستوجب توفير السبل المناسبة لها للنفاذ الى روافد الاقراض والتمويل من المؤسسات المصرفية.

الجهاز المصرفي ومؤسسات الاقراض تمكن المشاريع من رفع جاهزيتها من خلال توفير السبل المناسبة لها، للوصول لروافد الاقتراض والتمويل من المؤسسات المالية والمصرفية، وتذليل العقبات وخفض الشروط المصرفية لتسهيل عملية الإقراض لها.

وكذلك العمل على اعداد برامج توعوية وتثقيفية لبناء قدرات القائمين على المؤسسات لتطوير امكانياتهم في التعامل مع المصارف، وتطوير الآليات لإعداد التقارير المالية للمشاريع الصغيرة والمتوسطة حتى يتسنى للجهات المقرضة تحليل الوضع المالي

للمنشأة، لغاية منح التسهيلات المطلوبة، بما يعزز الحصول على التسهيلات الخاصة في ظل غياب الضمانات المطلوبة.

وأيضا تقديم خدمات استشارية لدعم المنشآت الصغيرة والمتوسطة والعمل على رفد خطة بناء القدرات وتطوير الامكانيات لهذه المنشآت. ودعم المشاريع الريادية من قبل الجهة المقرضة وذلك بتسهيل عمليات الحصول على التمويل اللازم وزيادة حصتها في محفظة التسهيلات المصرفية.

إنّ جوهر المشكلة في اقراض المشاريع الصغيرة والمتوسطة يكمن في جانب الطلب حيث ينعدم الفصل بين الحسابات الشخصية لصاحب المشروع عن حساب المشروع، وباستغلال صاحب المشروع تمويل المشروع لمجالات غير اقتصادية.

ويتمثل دور الجهاز المصرفي في تمويل المشروعات الصغيرة في:

- تقديم التمويل اللازم بشروط وآجال استحقاق ملائمة لإنشاء المشروعات الصغيرة والمتوسطة وللقيام بعمليات التوسع والإحلال والتحديث وتمويل رأس المال المستثمر ولأغراض التصدير ومتابعة الائتمان الممنوح بغرض تقويمه والتغلب على الصعوبات التي تواجه هذه المشروعات.
- توفير التمويل للمؤسسات المالية غير المصرفية، والتي تقوم بدورها بتمويل المشروعات الصغيرة والمتوسطة.
- التعاون مع الصندوق الاجتماعي للتنمية في مجال تمويل وتطوير المشروعات الصغيرة والمتوسطة من خلال فروع البنوك لتسويق قروض الصندوق.
- إنشاء الشركات الداعمة لأنشطة المشروعات الصغيرة والمتوسطة مثل شركات التمويل التأجيري والاستعلام الائتماني وضمان مخاطر الائتمان المصرفي والتسويق وصناديق الاستثمار المباشر... الخ.
- تمويل إنشاء المناطق والمجمعات الصناعية والحرفية.
- توفير الخدمات التمويلية اللازمة لصادرات المشروعات الصغيرة والمتوسطة.
- المشاركة في تنفيذ برامج تحديث المشروعات الصناعية الصغيرة والمتوسطة.
- تخصيص البنوك لجزء من مواردها المالية لإقراض المشروعات الصغيرة والمتوسطة.
- المشاركة في تأسيس شركات خاصة لتمويل المشروعات الصغيرة والمتوسطة
- استكشاف فرص الاستثمار الجديدة وتوجيه المشروعات الصغيرة والمتوسطة إليها.
- مساعدة المشروعات الصغيرة والمتوسطة في توفيق أوضاعها مع البيئة.
- مساعدة المشروعات الصغيرة والمتوسطة في تسويق منتجاتها من خلال الاشتراك في المعارض المحلية والدولية.
- إيجاد صف ثان من المستثمرين ورجال الأعمال الكبار حيث تساعد البنوك صغار المستثمرين على توسيع أنشطتهم وزيادة استثماراتهم.

وتؤدي زيادة دور المصارف في تمويل المشروعات الصغيرة والمتوسطة إلى توسيع قاعدة عملائها، وتنويع المخاطر وأوجه الاستثمار ما ينعكس ايجابيا على المحافظ المالية لها.

الهوامش:

1- فريال مشرف عيدان، دور المشروعات الصغيرة والمتوسطة في الحد من مشكلة البطالة بين الشباب العراقي، مجلة جامعة الانبار للعلوم الاقتصادية والادارية، المجلد 8، العدد 16 2016، ص 288.

2- حسين عبد المطلب، تأثير الاتحاد الجمركي العربي على الصناعات الصغيرة والمتوسطة في الدول العربية، وزارة التجارة والصناعة المصرية، مصر: 2007 ، ص4.

3- هيئة الاوراق المالية والسلع، تمويل المشروعات الصغيرة والمتوسطة من خلال اسواق رأس المال، قسم العلاقات الدولية والمنظمات، الامارات العربية، سبتمبر 2012، ص3.

4- عبد الحميد أبو موسى، تجربة بنك فيصل الإسلامي المصري في تمويل المنشآت الصغيرة والمتوسطة، الملتقى السنوي السادس للأكاديمية العربية، ص 4.

5- هالة محمد لبيب عنبة، إدارة المشروعات الصغيرة في الوطن العربي، دليل عملي لكيفية البدء بمشروع صغير وإدارته في ظل التحديات المعاصرة، المنظمة العربية للتنمية الإدارية، القاهرة، 2002، ص17.

6- شاوف، مالكوم، وآخرون، إدارة المؤسسات الصغيرة والمتوسطة (تبدل ادوار المؤسسات الصغيرة والمتوسطة في عصر العولمة)، ترجمة: د.طارق عبد الباري وآخرين، المكتبة الأكاديمية، القاهرة، الطبعة الأولى، 2009.

7- قاسم الحموري، التمويل الاسلامي للمشروعات الصغيرة، بحث مقدم للندوة الاقتصادية الثانية بعنوان "دور المشروعات الصغيرة في التنمية الاقتصادية والاجتماعية لإقليم الشمال، 1999، تنظيم جامعة اربد الاهلية.

8- فلاح حسن الحسيني، إدارة المشروعات الصغيرة مدخل إستراتيجي للمنافسة والتميز، دار الشروق، عمان، 2006، ص14.

9- عبود كنجو، إستراتيجية الاستثمار والتمويل في المشروعات الصغيرة – دراسة ميدانية للمشروعات الصغيرة في مدينة حلب، ورقة بحثية مقدمة للمؤتمر العلمي الخامس، جامعة فيلاديفيا، عمّان، الاردن، 2007 ، ص 24.

10- عبد الحسين جواد، تصميم وادارة الخدمات المساندة لمؤسسات العمل الصغيرة والمتوسطة، ورقة بحثية مقدمة لندوة المسؤولين التنفيذيين بغرف التجارة والصناعة، المكتب التنفيذي الدولي لغرف التجارة، بيروت، لبنان، 1994.

11- Alrubaie, F., " An Analysis Study to the problems of financing small projects With reference to experience Libyan Development Bank in Darna city ", MPRA(Munich Personal RePEc Archive) Paper No. 8494, posted 27, 2008 ،pp 1-25

12- جريدة الوقائع العراقية/ رقم العدد (4164).

13- زياد جلال الدماغ، الصكوك الإسلامية ودورها في التنمية الاقتصادية، رسالة دكتوراه غير منشورة مقدمة إلى معهد البنوك الإسلامية والتمويل بالجامعة الإسلامية العالمية، ماليزيا، 2009، ص 40.

14- عبد الحميد عبد المطلب، اقتصاديات تمويل المشروعات الصغيرة، الدار الجامعية للنشر، الإسكندرية، 2000.

نصوص قديمة

الدين والسياسة.. تأملات فيديل كاسترو حول الدين*

ايستيبان أونيسا

في أمريكا اللاتينية، حيث يسكن نصف كاثوليكيي العالم تقريباً، انخرطت الملايين من المؤمنين، في العقود الأخيرة، في النضال التحرري، وجرت عمليات تجديدية واسعة في اطار الكنيسة. ولا يحتاج القارئ المهتم بقضايا الحوار بين الماركسيين والمسيحيين الى شرح: لماذا ساهم الرفيق فيدل كاسترو بالذات بقسط كبير جدا في معالجة مسألة مكانة العامل الديني في النظرية والممارسة الثوريتين اليوم.

فمنذ بداية السبعينات، يدعو القائد الكوبي دوما في العديد من خطبه ومداخلاته... الى تعاون أوثق بين الشيوعيين والاوساط التقدمية من المؤمنين والكنيسة. وفي نهاية عام 1985، ظهر في مخازن بيع الكتب في كوبا ومن ثم في غيرها من بلدان أمريكا اللاتينية وأوربا كتاب "فيديل والدين" الذي جاء عبارة عن محصلة فريدة لتأملاته العميقة في هذه القضايا. وأعد الكتاب لاهوتي – "تحرري" برازيلي معروف هو "الفراي" (الاخ) بيتو (1) على اساس الاحاديث المسجلة مع فيديل كاسترو، التي استمرت اربعة أيام.

والعمل الذي نحن بصدده مكرس لإحدى اهم قضايا أمريكا اللاتينية، ويخاطب سكانها قبل غيرهم. ولكن اهميته لا تقتصر على ذلك، كما نعتقد. ففي عالم اليوم المقلق، حيث أن وحدة الملايين والملايين من الناس المؤمنين وغير المؤمنين في النضال المشترك من اجل انقاذ البشرية من الكارثة النووية أهم بما لا يقاس من الجدال بينهم حول وجود الاله، فإن اقوال قائد الثورة الكوبية تدوي بصورة ملحة جداً، وتعتبر مثالا على التفكير السياسي الجديد.

لقد اصبح كتاب "فيديل والدين" من أكثر الكتب رواجا في امريكا اللاتينية واحتل الصدارة من حيث النسخ المباعة حتى في مراكز كبيرة للطباعة والنشر كبوينس آيريس ومكسيكو. وفي البرازيل أعيد طبعه 18 مرة. أما بيتو، مؤلفه الثاني، فسماه اتحاد الكتاب البرازيليين اكثر "مفكري السنة" شعبية.

وكتب أ.خارت، عضو المكتب السياسي للجنة المركزية للحزب الشيوعي الكوبي، وزير الثقافة، في مقدمة الطبعة الجماهيرية التي صدرت في هافانا، حول اهمية الكتاب ما يلي: "ان اهم اتجاهين في تاريخ الفكر وشعور الإنسان، أي المسيحية والماركسية، اللذين يصورهما اعداء التقدم كضدين متناحرين، يجد ان هنا طرقا جديدة ومفاجئة للتفاهم" (ص 12).

أما مضمون الكتاب فواسع جدا، ويساعد

الجزء الاول (”يوميات الزيارة“) وأكثرية فصول الجزء الثاني (”حديث صحفي“) على تبيان الطرق التاريخية لكوبا وأمريكا اللاتينية وعالم اليوم الهش الذي يواصل الدين فيه تأثيره في وعي الملايين من الناس، ولا سيما في البلدان النامية. ان تحليل العملية الثورية في كوبا، الذي يندمج بحديث فيديل كاسترو الحي عن حياته وتكونه الاخلاقي اندماجا عضويا، تقويم الواقع الاقتصادي والسياسي والاجتماعي في القارة والصراع الطبقي الجاري فيها، قضايا الديون الخارجية والنظام الاقتصادي الدولي الجديد، والديمقراطية البرجوازية و“تصدير الثورة“ المزعوم، العلاقات المتبادلة بين الدولة الكوبية والكنيسة في ظل الاشتراكية، دور الاكليروس ”المتمرد“ والشغيلة المؤمنين في النضال التحرري في أمريكا اللاتينية، ”لاهوت التحرير“ والابرشيات المسيحية القاعدية - كل هذه المسائل والعديد من المسائل الاخرى التي تهم المؤمنين وغير المؤمنين على حدّ سواء، يوضحها الكتاب الذي نحن بصدده، بصورة مبسطة للغاية ومعبرة.

فلنتطرق، دون ان ندعي النظر في جميع القضايا المعروضة في الكتاب، الى الافكار الاساسية الخاصة بالدين، لا سيما تلك الجوانب الجديدة التي جاء فيها فيديل كاسترو في معالجة هذه الافكار. إن الطابع غير التقليدي لعدد من الاحكام المعروضة في الاحاديث مع بيتو يفسر بكون القائد الكوبي يطرحها انطلاقا من تجارب امريكا اللاتينية الملموسة، دون ان تشوب موقفه شائبة من الجمود العقائدي، وهو يعالج ظاهرة اجتماعية كالدين بتفهم عميق وباحترام كبير للمؤمنين. فمن جهة، يسترشد بموضوعة لينين المعروفة حول أن ”قيام الاحتجاج السياسي تحت غطاء ديني ظاهرة تلازم الشعوب كافة في طور معين من تطورها“(2). ومن جهة اخرى يتمسك بمطلب النظرية الماركسية اللينينية الذي يقول بأنه، لدى تحليل أية مسألة اجتماعية، لا بد من ”وضعها في اطارها التاريخي المعين ومن ثم، اذا دار الحديث حول بلد واحد،... لا بد من تؤخذ بعين الاعتبار الخصائص الملموسة التي تميّز هذا البلد عن غيره في حدود العصر التاريخي ذاته“ (3).

وبموجب هذه المقولة، يعالج الكتاب مسائل الكنيسة والدين وإمكانات المؤمنين الثورية، بالأساس في اطار العقود الاخيرة، وتطبيقا على قارة معينة هي أمريكا اللاتينية. كما يعتمد فيديل كاسترو دوما على موضوعة فريدريك أنجلس القائلة بأن ثمة ”في تاريخ المسيحية البدائية نقاط تماس بالحركة العمالية المعاصرة تستحق الاهتمام“ (4). وثمة في العمل الذي نحن بصدده صفحات كثيرة تنظر في تشابه بين النضال المعاصر للشغيلة الذين يترأسهم الشيوعيون ضد المستغِلين الرأسماليين ونضال المسيحيين الأوائل ضد مستغلي روما القديمة. ويلاحظ القائد الكوبي أنه ”لأن اصبح لقب الشيوعي اليوم هو الممقوت لدى الرجعيين، فقد كان لقب المسيحي كذلك في تلك الأزمنة“ (ص 329).

ويطور فيديل كاسترو الموضوعة التي تقدم بها منذ عام 1971 في اثناء زيارته لشيلي، والقائلة بأنه من الممكن

ومن الضروري ان يقوم بين الثوريين والماركسيين والقسم التقدمي من المؤمنين ورجال الدين في امريكا اللاتينية "تحالف من اجل تحقيق تغيرات اجتماعية تحتاج اليها شعوبنا" ولا يكون تكتيكيا فحسب، بل استراتيجي متسق ايضا (ص 274). ومن المعروف ان سياسة التحالفات والحوار والتعاون بين الماركسيين والمسيحيين تمارسها الاحزاب الشيوعية في امريكا اللاتينية على الصعيد العملي في المجالات السياسية وكذلك الاجتماعية الاقتصادية على نطاق واسع نسبيا. فيتجلى هذا مثلا، في المجال السياسي، في ان المؤمنين يمكنهم ان ينتسبوا الى الاحزاب الشيوعية العاملة في امريكا اللاتينية، ناهيكم عن التعاون بين المنظمات الحزبية والدينية في مسائل كالنضال من اجل السلام وحقوق الانسان وصيانة البيئة الطبيعية والنضال ضد الدكتاتوريات المحلية (شيلي، بارغواي، السلفادور). وفي المجال الاجتماعي والاقتصادي اشتهرت، مثلا، حركة المسيحيين من أجل الاشتراكية ومشاركة المؤمنين في بناء الحياة الجديدة في كوبا ونيكاراغوا والتجارب التعاونية للأبرشيات المسيحية القاعدية.. الخ.

وإذا طرحت المسألة بصورة أعم سيكون التحالف الاستراتيجي بين القوى الثورية في امريكا اللاتينية والقسم التقدمي من الكنيسة، بما فيه اتباع الأبرشيات والمراتب الدنيا من الأكليروس وبعض ممثلي الاسقفية، ضروريا قبل كل شيء لسبب هو أن المؤمنين يشكلون غالبية السكان الساحقة في القارة، وان التغيرات الجذرية تستحيل عموما بدون مشاركتهم. والحال ان هذه التغيرات تخطط من اجل الجماهير بالذات، وان السعي الى تحويل ملايين الناس الى ملحدين خلال مدة قصيرة وبصورة اصطناعية يكون من جهة، وهميا، ومن جهة اخرى - عديم الاخلاق، لأنه يقسرهم على الاعتقاد بما لا يعتقدون. ويحذر فيديل كاسترو "... لا يجوز، بأية حال، طرح المسألة او التفكير بان التغيرات الاجتماعية العميقة، والاشتراكية والشيوعية يجب ان يرافقها التدخل في عالم الناس الداخلي، ونفي حق كل انسان في التفكير والاعتقاد الخاص به" (ص 277).

ولا يصعب على المرء ان يرى ان دعوة القائد الكوبي الى التحالف الاستراتيجي مع المؤمنين على اساس اقصى الاحترام لآرائهم الدينية، تعتمد على موضوعة لينين المعروفة: "لا يمكن تنوير البروليتاريا بأية كتب وبأية مواعظ مهما كانت، إذا لم ينورها نضالها الخاص ضد قوى الرأسمالية الغاشمة. وان وحدة هذا النضال الثوري فعلا للطبقة المظلومة من أجل ايجاد جنة في الارض اهم لنا من وحدة آراء البروليتاريين حول الجنة في السماء" (5).

وبالرغم من مدى أهمية التعاون بين الماركسيين والمؤمنين في المجالين السياسي والاقتصادي، فإن أوسع امكانات التحالف الاستراتيجي مع الحركات الدينية التجديدية تكمن، كما يرى فيديل كاسترو، في المجال المعنوي الاخلاقي. وان القائد الكوبي، اذ يحلل المُثل الأصلية للمسيحية البدائية وأعم القواعد الاخلاقية للماركسية ونمط الحياة الاشتراكي، يخرج بالاستنتاج القائل بقرابة

بينها، وإنها على طرفي نقيض مع "قيم" المجتمع الرأسمالي الكاذبة: "ان المسيحية تتفق مع الشيوعية عشرة آلاف مرة اكثر مما تتفق مع الرأسمالي" (ص 17 - 18). وإذ يؤكد فيديل كاسترو أكثر من مرة ان التعاليم المسيحية توجهت في ينابيعها الى البؤساء والمظلومين واستهدفت النضال ضد الظلم والاستهتار، الأمر الذي تشهد عليه بسطوع "موعظة الجبل"، يلاحظ: "انني اعتقد ان كارل ماركس ذاته كان يمكن ان يوقع على موعظة الجبل هذه" (ص 326).

كما ان معالجة الزعيم الكوبي لصيغة ماركس الكلاسيكية "الدين أفيون الشعوب" تتجاوب تماما مع فكرة التحالف الاستراتيجي مع الاوساط التقدمية في المسيحية. ومن المعروف جيدا ان المضمون الحقيقي لهذه الصيغة كان على امتداد فترة طويلة ينقل احيانا في الترجمات الى اللغات الاخرى بدقة غير كافية، وبالتحديد في صيغة "الدين افيون من اجل الشعب". ولحسن الحظ، لقد تم الآن التغلب التام على هذا التعريف، بيد ان الجدال حول صيغة ماركس المعبرة يستمر.

في تشرين الاول (اكتوبر) 1980، دعت قيادة جبهة التحرير الوطني الساندينية في نيكاراغوا، في وثيقة خاصة بمسائل الدين، وهي تعتمد على خبرة الثورة المنتصرة، الى معالجة هذه المعادلة بصورة ديالكتيكية والتحقق منها، استنادا الى ظروف وحاجات العملية التاريخية الملموسة: "... ان خبراتنا تبرهن: حين يكون المسيحيون، وهم يعتمدون على دينهم، قادرين على تلبية حاجات الشعب والتاريخ، فإن الدين ذاته يدفعهم الى طريق النضال الثوري" (ص 331).

كما أن فيديل كاسترو، بدوره، إذ يأخذ في الاعتبار تجارب الثورتين والنيكاراغوية وكذلك الممارسة الاجتماعية في عدد من بلدان امريكا اللاتينية الاخرى، يقول إن الدين، حسب رأيه "... هو بحد ذاته، من وجهة النظر السياسية، ليس افيونا او وسيلة عجيبة، انما يمكن أن يصبح افيونا او وسيلة سحرية وفقا لطريقة استخدامه/ اما الدفاع عن الظالمين والمستغِلين (بالكسر) وأما الدفاع عن المظلومين والمستغَلين (بالفتح)، أي بمبادرة اخرى، وفقا لطريقة حل القضايا السياسية أو الاجتماعية أو المادية للإنسان الذي يولد ويضطر الى العيش في هذا العالم بغض النظر عن اللاهوت أو معتقداته الدينية. ومن وجهة النظر السياسية الصرفة – واعتقد أنني اتفهم الساسة قليلا – يخيل إليّ أن المرء يمكن حتى ان يكون ماركسيا دون ان يكف عن كونه مسيحيا، وان يعمل بالتعاون مع الماركسيين الشيوعيين على تحويل العالم" (ص 333).

ونظرا لضرورة تعزيز التحالف الاستراتيجي بين الماركسيين والقسم الثوري، الاتجاه من المؤمنين والمراتب الدنيا من الأكليروس، يطرح الكتاب مسألة الدعاية الالحادية ومظاهرها المبتذلة التي تسبب التفرقة بين الشغيلة طرحا مغايرا. ومن المعروف جيدا أن قيادة الثورة الكوبية اهتمت منذ البداية بألا تظهر امام الشعب كعدو للدين. ولاحظ فيديل كاسترو في حينه "انه لو حدث ذلك، لقدمنا فعلا خدمة للمرجعية وخدمة للمستغِلين (بالكسر)، ليس في كوبا وحدها، بل وكذلك في امريكا

اللاتينية قبل غيرها" (6). ولذا بالتحديد يشير فيديل كاسترو الى انه من الضروري "مهما كلف الأمر، تجنب البلاغة المذهبية التي تمس مشاعر السكان الدينية، ومن بينهم العمال والفلاحون والفئات الوسطى، الامر الذي من شأنه ألا يعود بالفائدة إلا على النظام الاستغلالي... اقول انه من الضروري، امام الوقائع الجديدة، تغيير معالجة القضية وتأويلها من قبل القوى اليسارية" (ص 290).

ان دعوة القائد الكوبي الى التحالف الاستراتيجي والتفاهم بين جميع الذين تعز عليهم مُثل السلام والانسانية "تحث" منذ الآن على التعاون حيثما تتمخض مسائل الدين والعلاقات بين الأكليروس والمجتمع عن تأزم اجتماعي. فعلى سبيل المثال، اصبحت بولندا من أول البلدان التي صدر الكتاب والمجتمع عن تأزم اجتماعي. فعلى سبيل المثال، اصبحت بولندا من أولى البلدان التي صدر الكتاب فيها (تموز/ يوليو عام 1986)، وان ظهور الكتاب في هذا البلد مدعو، كما تشهد الرابطة المسيحية التقدمية "باكس"، الى المساهمة في تطوير الحوار بين الكنيسة والدولة. وان رئيس الرابطة، وهو ز.كومندير نائب رئيس مجلس الدولة في جمهورية بولندا الشعبية، اذ قدم الكتاب للقراء البولنديين، أكد أن "الوحدة التي يدعو فيديل كاسترو إليها تتسم بأهمية قصوى ليس في ايامنا هذه وحسب، بل سوف تتسم بأهمية حاسمة في القرن الحادي والعشرين أيضا"(7).

ان هذه الكلمات تستحق التمعن بها، لأنه يستحيل الذود عن السلام وبناء مجتمع كامل بدون توحيد جهود جميع الناس ذوي الارادة الطيبة، بغض النظر عما يكمن وراء سعيهم الى الحياة السلمية في ظل العدالة الاجتماعية، هل هو الفهم الماركسي للتأريخ أم الدين النزيه المخلص.

الهوامش:

1- لمزيد من التفاصيل حول "لاهوت التحرير" انظر: الفارو أوفييدو، ستيبان مامنتوف، "لاهوت التحرير" هل هو "هرطقة" جديدة" – "قضايا السلم والاشتراكية"، 1986، العدد 3. شارك الفراي بيتو (ولد عام 1944) منذ شبابه في الحركة الكاثوليكية اليسارية. اعتقل مرتين. قام في البرازيل في تنظيم ابرشيات مسيحية قاعدية. ألف 16 كتابا. عضو في الجمعية التوحيدية للاهوتية "العالم الثالث" الدولية. زار جمهورية كوبا مرات عديدة، ويعرف منجزها جيدا – المحرر.

2- لينين، المؤلفات الكاملة، المجلد 4، ص 228 (باللغة الروسية).

3- المصدر ذاته، المجلد 25، ص 263 - 264.

4- ماركس وأنجلس، المؤلفات، المجلد 22، ص 467.

5- لينين، المؤلفات الكاملة، المجلد 12، ص 146 (باللغة الروسية).

6- Fidel Castro y los cristianos revolucionarios, Folletos monograficos, - In:Rutililio Grande, No. 6, p. 22.

7- Granma, ll de Julio de 1986.

---

* (الثقافة الجديدة)، العدد182/ شباط 1987، ص 112 – 116.

نصوص مترجمة

بين المصنع والبرلمان والشارع

السياسة الطبقية الثورية لروزا لوكسمبورغ والطريق إلى الاشتراكية *

بقلم: انغار سولتي
ترجمة: رشيد غويلب

ولد الدكتور انغار سولتي، في 14 نيسان 1979، وهو كاتب وعالم اجتماع ألماني. عمل كمساعد باحث في جامعة يورك الكندية. وتشمل اهتماماته البحثية الاقتصاد السياسي العالمي، وعلم الاجتماع السياسي، والنظرية السياسية، وعلم الجمال. ومنذ حزيران 2016 يعمل استشاريا لسياسة السلام والأمن في معهد التحليل الاجتماعي في مؤسسة روزا لوكسمبورغ، التابعة لحزب اليسار الألماني. له العديد من المؤلفات والبحوث في مجالات اهتماماته المختلفة.

1 - مقدمة: ثلاث صور وروزا لوكسمبورغ كأمل في "طريق ثالث"، يتجاوز اشتراكية الدولة والديموقراطية والاجتماعية

كانت روزا لوكسمبورغ، المولودة في مدينة زاموش البولندية الصغيرة، يوم 5 آذار 1871 ثورية اشتراكية، دافعت عن أعمال ماركس، وقدمت في الوقت نفسه مساهمة أصيلة في النظرية الماركسية، من ناحية فيما يتعلق بتحليل العولمة الرأسمالية، ومن ناحية أخرى ما يرتبط بسياسات الثورة.

واليوم يجب تحرير روزا لوكسمبورغ من الصور المبتذلة التي تجعل من الصعب تقييم حياتها وأفكارها وعملها. ثمة ثلاث صور مهيمنة.

الصورة الأولى الأكثر سطحية هي صورة النسوية البرجوازية اليسارية: تقف روزا لوكسمبورغ في سلسلة الرموز التاريخية وسلسلة اسلاف تحرر المرأة ضد سيطرة الرجل. امرأة ذكية للغاية وواثقة من نفسها، حررت نفسها من قيود النظام الأبوي، ودرست في القرن التاسع عشر، وحصلت على درجة الدكتوراه في الاقتصاد؛ واحدة من مجموعة من النساء الأكثر جرأة - كلارا زيتكين، لويز كاوتسكي، وماتيلد جاكوب - والتي كانت ستجتاز كل اختبار من اختبارات بيكدل ((Knobloch, Heinz 1997 [اختبار بيكدل نسبة لفنانة الكارتونية الامريكية اليسون بيكدل، يُستخدم الاختبار كمؤشر قوي للحضور الفعال للسيدات في الأعمال الإبداعية الخيالية -المترجم]؛ امرأة خارج التاريخ العظيم الذي صنعه الرجال تقريباً بالكامل، قائدة في أقوى حزب ديمقراطي اجتماعي في العالم، كان لها تأثير كبير على مصير العالم في العديد من البلدان: ألمانيا وبولندا وروسيا. امرأة مانحة لقوة التمكين وصاحبة اقوال لا تنسى مثل: "الحرية هي دائما حرية أولئك الذين يفكرون بشكل مختلف".

تأتي الصورة المشوهة الثانية المرسومة لروزا لوكسمبورغ من قبل الشيوعية الأوروبية والديمقراطية الاجتماعية اليسارية في السبعينيات، وتهيمن اليوم على الدوائر التي تعتبر نفسها "مناهضة للستالينية"، وتميز نفسها بشكل جذري عن اشتراكية الدولة التاريخية: روزا لوكسمبورغ التي كانت صديقة حقيقية للإنسان، وصاحبة قدرة كبيرة على التعاطف معه، تبدو هنا اشتراكية جيدة، وديمقراطية اجتماعية يسارية وصاحبة موقف أساسي مضاد للرأسمالية، والمعادية الإنسانية للحرب، التي تحب الازهار بحميمية تماما مثل الإنسان، التي كتبت من السجن رسائل حب تفتت القلوب، والتي على الرغم من رفضها الأساسي للرأسمالية، لم يكن لديها أي تفهم للينين وثورة أكتوبر والبلشفية، وهو ما يمكن قراءته في نقدها "حول الثورة الروسية" Luxemburg, Rosa 1918a)) الصورة المشوهة الثالثة أتت من الماركسية – اللينينية التي انبثقت من هذه الثورة، عندما تحولت الماركسية الى عقيدة جامدة للدولة. لقد أصبحت تهمة "اللوكسمبورغية" شديدة الثقل. في الماركسية – اللينينية بدت روزا لوكسمبورغ نصف فوضوية ورومانسية

ثورية. عند تناوله لوكسمبورغ تحدث زينوفييف عن "التصوف العفوي" (Frölich, Paul 1973) وبعض الإيماءات الجنسية حولت نظرية لوكسمبورغ في الثورة إلى "مادية هستيرية".

كان أودو فينكل على حق عندما كتب، أواخر السبعينيات، بمناسبة إعادة إصدار عدة مقالات لكارل راديك، عن روزا لوكسمبورغ: "بالكاد يوجد اشتراكي ثوري في تاريخ الاشتراكية اسيء فهمه وتوظيفه" (فنكل 1979 :4) وفقا لكلاوديو بوزولي، فإن روزا لوكسمبورغ "قُتلت مرتين (...)"، من قبل "الثورة المضادة والديمقراطية الاجتماعية أولاً، و[بواسطة] الستالينية لاحقًا ,Pozzoli (Claudio 1974:13).

رفضت الديمقراطية الاجتماعية روزا لوكسمبورغ لأسباب ليست اقلها دورها في "ثورة نوفمبر" 1918/ 1919. وبالقدر نفسه كانت روزا لوكسمبورغ غير مرغوب فيها من قبل اشتراكية الدولة (البلدان الاشتراكية السابقة- المترجم). أصبحت روزا لوكسمبورغ في أواخر الستينات و"ازمة الماركسية" في السبعينات أملا لليسار. لقد وعدت بتجديد الفكر الاشتراكي، وفي الوقت نفسه بمسار شيوعي أوروبي، جعل نفسه مستقلاً عن الاتحاد السوفيتي كقوة قائدة للأحزاب الشيوعية في الغرب. بعيداً عن الأوهام الإصلاحية للديمقراطية الاجتماعية، ولكن أيضاً خارج البلشفية واشتراكية الدولة، جرائمها التاريخية وأخطاؤها وعيوبها، والتي أدت أيضاً إلى هزيمتها وانهيارها في 1989/1991، ارتبط اسم روزا لوكسمبورغ بأمل ثالث: الطريق الديمقراطي للاشتراكية، إلى الاشتراكية الديمقراطية، وخصوصا بعد عام 1989.

2 - وظيفة لوكسمبورغ المزدوجة التي تبدو متناقضة

يؤدي الجهد النظري لروزا لوكسمبورغ ظاهريا، وظيفة مزدوجة متناقضة. بعد وفاة فريدريك انجلس في عام 1895، كانت روزا لوكسمبورغ - إلى جانب لينين - من ناحية المدافع الأكثر حدّة في المضمون واللغة عن الإرث النظري والعملي الثوري الماركسي ضد تحريفية إدوارد برنشتاين وكونراد شميدت وآخرين. كما يعكس ذلك كتابها "إصلاح اجتماعي أم ثورة" (Lu-emburg, Rosa 1899). ومن ناحية أخرى، مثل عدد آخر قليل جدًا، ساهمت في تجديد وتجسيد تاريخي لفكر ماركس، الذي يجب دائماً تحديثه تاريخياً، وفي مزيد من التطوير لعمل ماركس غير المكتمل.

ان الملموسية التاريخية ترتبط بتأثير ميل القوانين التي وصفها ماركس، ودافعت عنها روزا لوكسمبورغ ضد التحريفية في الواقع التاريخي الملموس للعصر. ان التجديد والتطوير يرتبط بدوره بشكل رئيسي بعقدتين كبيرتين: (ا.) نظرية التغيير العملي للمجتمع (البرجوازي - الرأسمالي) وتكتيك واستراتيجية الثورة. و(2.) التحليل المنهجي للرأسمالية - الملتزمة بطبيعتها

بالعولمة - كإطار هيكلي للعمل الثوري لتجاوزها.

وهكذا، من ناحية، طورت لوكسمبورغ في عدد من الكتابات السياسية - الى جانب "اصلاح اجتماعي ام ثورة"، و"الإضراب الجماهيري، الحزب، النقابات" (1906) و"مناقشة الإضراب الجماهيري مع كارل كاوتسكي وآخرين في نويه تسايت" (Grunenberg, Antonia 1970) - أسساً لتعامل ماركسي، الحزب ونظرية الثورة، ونقدها للبرلمانية. وضعت أيضا الأسس لنظرية ماركسية حول السياسة والدولة. كما خطط لها ماركس ولكن لم يتم تطويرها، وكما تم تطويرها لاحقًا بشكل أكثر منهجية من قبل غرامشي ورالف ميليباند ونيكوس بولانتزاس. ومن ناحية أخرى، فإن نظرية لوكسمبورغ حول الإمبريالية، التي وضعت في عملها الرئيسي "تراكم رأس المال: مساهمة في التفسير الاقتصادي للإمبريالية"، الذي صدر عشية الحرب العالمية الأولى عام 1913، يوضح لماذا لا يمكن التفكير بالرأسمالية بدون الإمبريالية والاستعمار والحرب (Luxemburg, Rosa 1913a). تكمن أهمية كتاب لوكسمبورغ "تراكم رأس المال" في فهمنا للرأسمالية العالمية والسياسة الإمبريالية اليوم في موقع آخر، وفي سياق نظريات الإمبريالية المتنافسة في عصرها - "الموجة الأولى" من نظرية الإمبريالية - تمت مناقشتها وربطها بسؤال حول ما إذا كانت التغيرات في الرأسمالية العالمية اليوم - بعد الموجتين الثانية والثالثة - لا تتطلب موجة رابعة من نظرية الإمبريالية (Solty, I -gar 2021). ولهذا السبب، يهتم هذا البحث حصرياً بمساهمة لوكسمبورغ في النظرية الماركسية للعمل والحزب والثورة وأهميتها للتكتيك والاستراتيجية الاشتراكية اليوم.

3 – الثورية الاشتراكية روزا لوكسمبورغ

على عكس الكليشيهات الشائعة، كانت روزا لوكسمبورغ ثورية متحمسة، بطريقة عملية ومنسقة للغاية. نعم، لقد أرادت أن تعرف بلغة فاوست غوته، "ما يربط العالم معاً في أعماق كيانه"، ولكن ليس من أجل المعرفة الجمالية، أو لتثبت انها على حق أو لتحقق مجدا وظيفيا او موقعا أكاديميا، لكن لتستطيع تغيير العالم الذي يزعجها فيه ألم الاستغلال والاضطهاد وتدمير الطبيعة. عاشت روزا لوكسمبورغ الوحدة الماركسية في النظرية والممارسة. ولأنها كانت تحب الناس كثيراً، كان يغضبها المتاجرون بالبشر بلا حدود. لم يعط تفكير لوكسمبورغ لنفسه مظهر "حيادية القيمة" الوهمي. كانت لوكسمبورغ مصطفة مع المستغَلين والمضطهَدين، ووضعت تفكيرها في خدمة الحركة العمالية، ليس كأستاذة جامعية، ولكن كرائدة في حزب عمالي اشتراكي، وفي جناحه اليساري، وكمحاضرة في مدرسته الحزبية. قال المفكر الماركسي المعاصر ليو بانيتش مراراً وتكراراً: "لو أن لوكسمبورغ ولينين كانا أستاذين جامعيين، ربما ما

كان لثورة أكتوبر ان تحدث".

تميزت الثورية لوكسمبورغ بالممارسة العملية والثبات: لقد جسدت "الروح النضالية المتجددة والإرادة الحازمة والتضحية اللامحدودة بالنفس من أجل مُثُل الاشتراكية". لقد دفعت ثمن إدانتها ودعواتها لإنهاء جرائم القتل المروعة في الحرب العالمية الأولى، هذه "الكارثة الكبرى" في القرن العشرين، بسنوات من السجن، وفي النهاية بحياتها. وفقا لتحليلها يجب أن يكون تغيير العالم في كل الأحوال جذرياً، أي بشكل أساسي وصولا إلى جذور المشاكل: لوكسمبورغ لم ترغب في إصلاح الرأسمالية، ولم تؤمن بإمكانية إصلاحها، لقد أرادت إلغاء الرأسمالية من حيث المبدأ ومن خلال استبدالها بنظام ملكية واقتصاد اشتراكي. لقد فهمت لوكسمبورغ الشيوعية، بمرحلتها الأولى الاشتراكية، على أنها تحقيق الحلم القديم للبشرية، ذلك "الحلم العميق بمجتمع يخلقه أناس أحرار ومتساوون" Luxemburg, Rosa (1909:572)). وصفت لوكسمبورغ مجتمع المستقبل الاشتراكي على النحو الاتي: "في الاقتصاد الاشتراكي، يسقط رجل الأعمال بسوطه. العمال هنا أحرار ومتساوون يعملون لرفاهيتهم ومصلحتهم (...)" Luxemburg,) Rosa (1918c:433.

بالملموس، بدأت فكرة روزا لوكسمبورغ عن الاشتراكية كنظام اقتصادي بديل للرأسمالية، مع جعل طابع الشركات الكبيرة اجتماعيا: "إذا كان ينبغي ان يكون هدف الإنتاج ضمان حياة كريمة للجميع، وتزويد الجميع بالوافر من الطعام والملبس ووسائل العيش الثقافية الأخرى، إذًا يجب ان يكون العمل منتجا أكثر بكثير مما هو عليه اليوم. يجب أن تدر الحقول كميات هائلة من المحاصيل، ويجب استخدام أعلى التقنيات في المصانع، ويجب استغلال مناجم الفحم والمعادن الأخرى بأقصى طاقتها الإنتاجية، وما إلى ذلك. ويترتب على ذلك أولا التوسع في الطابع الاجتماعي للمؤسسات الصناعية والزراعية الكبيرة. نحن لا نحتاج ولا نريد أن نسلب الفلاحين والحرفين الصغار، الذين يكافحون بعملهم في قطعة أرضهم أو في ورشهم وممتلكاتهم الصغيرة. في الوقت المناسب سيأتون إلينا طواعية ويرون ويتعلمون مزايا الاشتراكية على الملكية الخاصة (.(Luxemburg, Rosa 1918c:432

بمجرد أن تتحقق الاشتراكية، سيتكون عندئذ، حسب لوكسمبورغ، "شكل اقتصادي"، "وهو في الوقت نفسه، ومن بدايته شكل عالمي. وبطبيعته وفي حد ذاته نظام منسجم، لأنه لا يعتمد على التراكم، بل على تلبية الاحتياجات الحيوية للإنسانية العاملة من خلال تطوير جميع قوى الأرض المنتجة". (Luxemburg, Rosa 1913:411).

لم تعتقد لوكسمبورغ، بما كان يطرحه الجناح اليميني في الحزب الديمقراطي الاجتماعي الملتف حول إدوارد برنشتاين، أن المرء يمكن أن "يتزحلق إلى الاشتراكية" من خلال إصلاحات تدريجية في البرلمان. ولامتلاكها وعيا

تاريخيا، فقد آمنت بالإمكانية التاريخية وضرورة الثورة. في بعض الأحيان تتسلل إليها فكرة الحتمية. وهذا لا يعني أن لوكسمبورغ كانت تعارض الإصلاحات في حد ذاتها. كانت الإصلاحات ضرورية وصحيحة وهامة بالنسبة إلى لوكسمبورغ، ولكن فقط بالقدر الذي تحسن فيه ظروف النضال من أجل الإطاحة الثورية بالرأسمالية، وتحول ميزان القوى بين الطبقة العاملة والبرجوازية لصالح الأولى. لم تنتظر روزا لوكسمبورغ الانفجار العظيم، لكن الإصلاحات يجب أن تقاس بمدى تهيئتها ظروف الانفجار العظيم. نعتت لوكسمبورغ هذا "بالسياسة الواقعية الثورية". كانت قادرة على التفكير في "هدف اليوم" و"الهدف النهائي"، والتمييز بين الاثنين، وفي النضال من أجل هدف اليوم، لا تغفل الهدف النهائي الاشتراكية والشيوعية. كتبت لوكسمبورغ: "إن أفضل الإصلاحات الديمقراطية" هي (...) فقط مراحل صغيرة في مسيرة البروليتاريا الكبرى نحو الاستيلاء على السلطة السياسية، لتحقيق الاشتراكية" (Luxemburg, Rosa 1910a:303).

في مواجهة برنشتاين والجناح اليميني للحزب، كتبت روزا لوكسمبورغ: "هذه النظرية برمتها لا ترقى عملياً إلى أي شيء سوى النصيحة للتخلي عن التغيرات الاجتماعية، والهدف النهائي للديمقراطية الاجتماعية، وتحويل الإصلاح الاجتماعي من وسيلة الصراع الطبقي الى غاية. لقد صاغ برنشتاين نفسه وجهات نظره على نحو أكثر دقة وحدة عندما كتب: "الهدف النهائي، مهما كان، لا يعني شيئاً بالنسبة لي والحركة هي كل شيء" (Luxemburg, Rosa 1899:370).

4 - مساهمة روزا لوكسمبورغ الاصيلة في النظرية الماركسية - عمل الحزب والثورة

تنتمي القدرة للإرادة أيضا، بكلمات أخرى "فن السياسة" ينتمي للإرادة أيضا، كما اشرت ذلك فريغا هاوغ في كتابها عن روزا لوكسمبورغ (Haug, Frigga 2007). فكيف فكرت روزا لوكسمبورغ في الطريق إلى الاشتراكية؟ آمنت لوكسمبورغ بالانتفاضة الثورية، طاقة الجماهير في الفترات الثورية. لكن لوكسمبورغ لم تكن فوضوية، ولم تؤمن بانتفاضة جماهيرية عفوية بلا قيادة، كما أنها لم تؤمن بالانتقال المباشر إلى الشيوعية/ الفوضى كمجتمع بلا دولة.

ولم تكن لوكسمبورغ نقابية أيضاً. كانت مقتنعة بأن التغلب على الرأسمالية لن يكون ممكنا بدون السيطرة على سلطة الدولة. وبهذا المعنى، كانت لوكسمبورغ ديمقراطية اجتماعية كلاسيكية ما قبل الحرب العالمية الأولى. وتحرك فكرها بين البرلمان والطبقة والحركة النقابية والحزب، بين ميادين العمل والمصنع والبرلمان والشارع، وبين الإضراب (في المصنع) والبرلمان كمنصة للصراع الطبقي والشارع كمشهد للانتفاضات الثورية – وباللعب المشترك مع البرلمان - تمرير الاقتصاد

إلى الصراع السياسي. في إطار هذا الحراك الفكري وفي صفوف الجناح اليساري لحزبها، وقفت لوكسمبورغ بثبات عبر مساهمة أصلية في الحزب الماركسي، الدولة ونظرية الثورة. هذه المساهمة بالتحديد هي التي تجعلها "نقيضا نقديا للينين وكاو تسكي" (Po-zoli, Claudio 1974:12) "بديلا ثالثا حيويا" بين الإصلاحية والبلشفية، بين الاشتراكية الديموقراطية واشتراكية الدولة، كما سماها كاتب سيرتها جي بي نيتل (مقتبس من المصدر السابق).

وان مثل هذا البديل كان ضروريا. يدل على ذلك تصلب وأخطاء اشتراكية الدولة التاريخية، التي ـ مع كل الإنجازات التي لا يمكن إنكارها، الى جانب الجرائم التي ارتكبت باسم الاشتراكية ـ أدت في النهاية إلى انهيارها وهزيمتها من ناحية. ومن ناحية أخرى، الفشل التاريخي للديمقراطية الاجتماعية في منع الحرب العالمية الإمبريالية عام 1914، من تنفيذ الثورة الاجتماعية في 1918/ 1919 بما في ذلك الإجراءات الاجتماعية التي أرادتها الجماهير الشعبية، وكذلك في منع صعود الفاشية في الإضراب العام عام 1933. سوياً، مع النقابات التي كانت تهيمن عليها (على غرار احباط انقلاب كاب عام 1920)، فشل تاريخي أدى، بعد الفاشية وفي ظل ظروف الحرب الباردة، إلى تحويل الحزب الطبقي القديم (المقصود الحزب الديمقراطي الاجتماعي – المترجم) مع اقرار برنامج غودسبيرغ لعام 1959 إلى "حزب شعبي"، أصبح بعد عام 1989 "حزب كوتا"، ومجرد جهاز تكنوقراط لرأسمالية الليبرالية الجديدة (Walter, Franz 2009).

فما هي مساهمة لوكسمبورغ الأصلية في السياسة اليسارية القائمة على أسس طبقية وبرؤية مناهضة للرأسمالية؟ لم تسقط هذه المساهمة من السماء، لكنها كانت قائمة على تجربة تاريخية استثنائية، اتيحت بشكل خاص لروزا لوكسمبورغ، العارفة بعمق في اشتراكية أوروبا الشرقية: تجربة الثورة الروسية عام 1905. لقد أدركت لوكسمبورغ بناءً على تجربة الثورة الروسية عام 1905، أهمية العفوية الثورية فيها كانت هناك إضرابات جماهيرية ثورية وتحركات جماهيرية، تطورت بشكل مستقل إلى حد كبير عن عمل الديمقراطية الاجتماعية الروسية (حزب العمال الاشتراكي الروسي – المترجم) في هذا الفعل الجماهيري العفوي، اكتشفت لوكسمبورغ "طريقة جديدة للنضال" والتي ـ في نظرها ـ "لا ترتبط بالثورات البرجوازية القديمة ولا بالنضالات البرلمانية السابقة للبروليتاريا المعاصرة". وبهذه الطريقة "يُربط النضال" من أجل الديمقراطية مع "النضال ضد رأس المال" (Lu-emburg, Rosa 1906a:8).

فيما يتعلق بالترابط بين الطبقة، الحركة والحزب، انفصلت لوكسمبورغ بعد 1905 عن افتراض "الهوية بين الطبقة العاملة والحزب العمالي، وحدث انقلاب حاسم في نظريتها، أصبحت عندها الجماهير زعيمة للحركة، الحزب منفذا، وأداة للعمل الجماهيري الواعي"

.(Pozzoli, Claudio 1974:15)

عندما يبدأ حجر مرة بالتدحرج، حسب لوكسمبورغ، "لا يمكن اعادته الى حالة السكون" (Luxemburg, Rosa 1906b:152). تتمثل مهمة الحزب في تعزيز دحرجة الحجر والاستعداد للحظة التي يبدأ فيها بالتدحرج، من أجل السباحة في الثورة. كتبت لوكسمبورغ: "ليس من منطلق" الميل للرومانسية الثورية، "بل على اساس الضرورة التاريخية المريرة"، يجب أن تكون الأحزاب الاشتراكية دائماً مستعدة لـ "الصدامات العنيفة". "وإذا قمنا بإحداث ثورة في العقول من خلال النشاط البرلماني مثل أي نشاط آخر، فسيحدث هذا بحيث، في حالة الطوارئ، تنزل الثورة أخيراً من العقول إلى القبضات" (Luxemburg, Rosa 1902:235). وكما سبق القول، لم تكن لوكسمبورغ فوضوية ولا نقابية. كانت مقتنعة بالحاجة إلى تنظيم وحزب، وأن الهدف يجب أن يكون الاستيلاء على السلطة. لقد شددّت بوضوح: "بدون تنظيم، لا يمكن للطبقة العاملة أن تكون قادرة على العمل لفترة طويلة". ان "الروح النضالية المتجددة والإرادة الثابتة والتضحية بالنفس بلا حدود من أجل مُثُل الاشتراكية، هي تلك الصفات التي بدونها يكون أجمل جهاز تنظيمي، خردة لا قيمة لها وقيدا ثقيلا على اقدام الجماهير البروليتارية" (Luxe-burg, Rosa 1917:257).

باختصار: من تجربة روسيا عام 1905، طورت لوكسمبورغ نقدها لـ "البرلمانية المجردة" (Luxe-burg, Rosa (1910b:361. عندما حدثت الثورة الاجتماعية في ألمانيا في 1918/19 وأنهت الحرب العالمية الأولى، كانت لوكسمبورغ مقتنعة تماماً بأن انتصار الثورة الاجتماعية في 1918/19 سيعتمد على منظمة قوية تربط المزاج الثوري. وبمناسبة تأسيس الحزب الشيوعي في المانيا في 1 كانون الثاني 1919، كتبت لوكسمبورغ: سوف يتطلب الأمر "درجة مختلفة تماماً من النضج السياسي والتأهيل والمثابرة عما كان كافياً في المرحلة الأولى. إنها الآن مسألة استبدال المزاج الثوري في كل مكان بالقناعة الثورية التي لا تقهر واستبدال العفوية بالمنهجية. من المهم تحويل نظام مجالس السوفيتات والعمال من ارتجال الساعة إلى الدرع الحديدي الذي يؤمن للبروليتاريا كل السلطة العامة في المجتمع" (Luxemburg, Rosa 1919a:514).

كان هذا الرأي والموقف حاسماً أيضاً لحقيقة أن لوكسمبورغ لعبت في الإضراب العام في الفترة من 5 إلى 12 كانون الثاني/ 1919 دورا مترويا وكابحا لرفيق دربها، كارل ليبخنت، لأنها افترضت أنه بعد أربعة أيام كاملة فقط من تأسيس حزب ثوري، لم يترسخ بعد، واضراب عام اقتصر إلى حد كبير على برلين، لم تحن بعد لحظة الإضراب الثوري. لقد فكرت روزا لوكسمبورغ بان هزيمة الاضراب العام هي "هزيمة للطاقة الثورية المقتحمة ونضج غير كاف للوضع"، و"نتيجة للضعف ولوضع غير مكتمل" (Luxemburg, Rosa

1919b:536). بالطبع، هذا لم يغير حقيقة، على الرغم من أن لوكسمبورغ، وكارل ليبخنت لم يلعبا أي دور تقريباً في انتفاضة عمال برلين، دفاعاً عن ثورتهم، فقد قُتلت على الرغم من ذلك من قبل قوى الثورة المضادة.

سياسيا، كانت روزا لوكسمبورغ تدعو الى ركوب الصعاب واقتحام الأمواج العاتية، فقد كتبت:

لا يمكن ادارة صراع بهذا الحجم بالوسائل التافهة والسياسات الخجولة، ونحن لسنا مسؤولون حالياً عن التحضير "لأي إضراب جماهيري، بل إعداد منظمتنا لكي تكون ملائمة للنضالات السياسية الكبرى، وليس "تربية الطبقة العاملة على الإضراب الجماهيري، بل تربية الديموقراطية الاجتماعية على الهجوم السياسي" (Luxe-burg, Rosa 1913 b:257). عكست لوكسمبورغ العلاقة بين الحزب والحركة، بين القيادة والجماهير، على الأقل، إلى علاقة جدلية بلا أعلى أو أسفل. تنظيم الحزب شرط ضروري في النضال من أجل الاشتراكية، لكن العمل الجماهيري هو وحده الذي يجعل هذا النضال كافياً.

لقد انتقدت لوكسمبورغ حزبها لأن الحركة الاشتراكية ركزت كثيرا على البرلمان وتخلت عن موقفها الثوري، الذي طرحه ماركس وانجلس تحت تأثير "عصر الثورة" بين 1789 - 1848 (Hobsbawm, Eric 1996)، وعندما ذكر رئيس الحزب الديمقراطي الاجتماعي اوغست بيبل في البرلمان بكومونة باريس 1871، باعتبارها نموذجا لـ"دولة الشعب"، والذي كان يتفق مع الاستراتيجية التي تبناها الحزب في برنامج ايرفورت 1891، تسبب ذلك في رعب المحافظين والليبراليين.

لقد كانت روزا لوكسمبورغ مقتنعة عشية الحرب العالمية الأولى، بالنسبة لألمانيا والبلدان الرأسمالية المتقدمة: "إننا نعيش في زمن لا يمكن فيه الحصول على مكاسب للبروليتاريا على أرضية البرلمان" (Luxemburg, Rosa 1913c:263 ff).

يعود اعتماد البرلمانية من قبل الديمقراطيين الاجتماعيين، الذي كان من الناحية التاريخية بلا شك مفهوما، الى ثلاثة أسباب: (1) الخوف من تجدد حظر نشاط الحزب كما حدث أثناء "القوانين الاشتراكية" (1878-1890)، (2) الصعود الذي بدا لا يمكن إيقافه للحزب الديمقراطي الاجتماعي من الانتخابات إلى اخرى، (3) أيضا التوجه الذي تبناه انجلس، بصفته مفكراً مشاركاً طيلة حياته وممثلا للماركسية، بعد وفاة ماركس، فقد أنتج توجهات لمسار برلماني نحو الاشتراكية، وخاصة في "وصيته". قارن: (Solty, Ingar 2020b).

من خلال مراقبتها لاعتماد الحزب للبرلمانية والبيروقراطية وشبه احتواء الدولة للحزب، والتي أدت الى اندماج الحزب الديمقراطي الاجتماعي منذ عام 1910، بالنظام السياسي، ومهد الطريق لاعتماد "سياسة سلام القلعة" (الوفاق الطبقي – المترجم) بعد عام 1914، طورت روزا لوكسمبورغ ثلاثة

موضوعات في نقد البرلمانية: أولاً، "الاشتراكية البرلمانية" تجعل الطبقة العاملة سلبية، ولا تتغلب بشكل أساسي على نموذج حكم النخبة البرجوازي الليبرالي المناهض للديمقراطية. شعرت لوكسمبورغ بميل لتحويل الحزب الديمقراطي الاجتماعي من حزب ثوري صغير إلى حزب انتخابي للطبقة العاملة الواسعة، بواسطة سيطرة الدولة (الدولانية). كتب كلاوديو بوزولي، بالاستناد الى روزا لوكسمبورغ، أن "الأشكال التقليدية لتنظيم الحركة العمالية تعيد إنتاج استبداد المصانع وسياق التعاون السائد في الشركات الرأسمالية: التعاون باعتباره كفاءة مفروضة. يتواصل المرء من خلال مستوى في التسلسل الهرمي، ورابط اتصال بالمنظمة. يتواجد المرء بشكل جماعي، وجود القيادة فقط" (Pozzoli, Claudio 1974:16).

وباعتبارها من دعاة المساواة الكاملة، وديمقراطية متحمسة، أخذت مفاهيم التحرر، التحرير الذاتي، والحكم الذاتي للطبقة العاملة بجدية. كان تفكير لوكسمبورغ موجهاً ضد الدولانية بشكليها: ضد الاتجاه الملحوظ في الديموقراطية الاجتماعية قبل الحرب العالمية الأولى، ولاحقًا في عملها "حول الثورة الروسية"، في اشتراكية الدولة الوليدة. لم تعجبها فكرة "كل شيء للعمال، لكن لا شيء منه بواسطة العمال".

ثانياً، كانت لوكسمبورغ مقتنعة بأن برلمنة الاشتراكية (اعتماد النضال البرلماني فقط - المترجم) يؤثر في نزع الجذرية وفي عدم التمكين، لأن قوة الاشتراكية في جهاز الدولة ستكون غير فعالة بدون السلطة المنظمة للطبقة العاملة الواعية خارج البرلمان. وبقدر ما يكون رأس المال منظما وقويا هيكليا (أكثر من اللازم)، يجب على الحزب تطوير هذه القوة وتفضيلها؛ ففي حالة حدوث الأسوأ، سيكون سريعا بلا حماية ويمكن أن يصبح الحزب بلا حماية، خاصة في حالة تجدد القمع والحظر الحزبي. وهكذا توقعت روزا لوكسمبورغ مصير الحزب الديمقراطي الاجتماعي وجزئياً مصير الحزب الشيوعي في المانيا، ومقاومتهما بعد حظر الحزبين من قبل النازيين في عام 1933 في حالة الحزب الديمقراطي الاجتماعي تلاشت مقاومته بسرعة، وفي حالة الحزب الشيوعي، تم تدميره بسرعة نسبياً، مؤقتاً على الأقل، بواسطة اضطهاد الدولة وقتل المقاومة العمالية الشيوعية.

ثالثًا، ترى لوكسمبورغ أن البرلمانية قلبت العلاقة بين محرك وقيادة الثورة، والجماهير والطبقة والحزب، رأسا على عقب. عارضت لوكسمبورغ "حكمة الفرن المنزلي لدار الحضانة البرلمانية"، والتي بموجبها لا يمكن تحقيق شيء إلا بالأغلبية. "الديالكتيك الحقيقي للثورة يقلب هذه الحكمة البرلمانية الخلدية (نسبة الى حيوان الخلد – المترجم) رأساً على عقب: الطريق لا يمر من خلال الأغلبية إلى التكتيكات الثورية، ولكن من خلال التكتيكات الثورية للأغلبية. والحزب الذي يعرف كيف يقود فقط، أي أن يقول كيف يسير خلال العاصفة

إلى الأمام، سيكسب أتباعاً". واستشهدت صراحة بتجربة البلاشفة كمثل ساطع: وبشعار "كل السلطة في أيدي البروليتاريا والفلاحون! "جعلوا حزبهم" بين عشية وضحاها سيد مطلق للوضع" (Lu-emburg, Rosa 1918a:341).

كانت لوكسمبورغ تدرك بوضوح تام أن العنف كان وسيظل دائماً وسيلة الحكام لتأمين سلطنهم الطبقية. وكانت مقتنعة، في حال حصول الحزب الثوري على الأغلبية البرلمانية، ستلجأ البرجوازية الى العنف لمنعه.

5- بصيرة روزا لوكسمبورغ

أدركت لوكسمبورغ أن الثورات التي تنشأ في الأزمات الاجتماعية يصاحبها مؤثرات سريعة الفعل في الوعي الجماهيري، مصحوبة باللاعقلانية، مثل نظريات المؤامرة من جميع الأنواع والوعي الغريب. وبصفتها مادية تاريخية، كانت لوكسمبورغ على دراية بظواهر مثل "الخوف العظيم" التي رافقت الثورة الفرنسية في بداياتها (قارن: Solty, I-gar, Schäfer Velten 2020). لكنها تساءلت: من الأكثر عرضة للخطأ في الممارسة، النخبة الحزبية أم الجماهير؟ وكانت موضوعة لوكسمبورغ: ليس من النادر أن تكون قيادة الحزب!

قبل الحرب العالمية الأولى بعام واحد، وبالتالي قبل الفشل التاريخي الأكبر لقيادة الحزب الديمقراطي الاجتماعي، كتبت روزا لوكسمبورغ في حزيران 1913: "حتى في ثورة 1848، وحتى أيضا في كومونة باريس ارتكبت أخطاء وحماقات، ألا يرتكب قادتنا، في كثير من الأحيان ما يكفي من الحماقات؟ لا يوفر انتشار الديموقراطية الاجتماعية سوى ضمان ضئيل للأخطاء السياسية والتاريخية بقدر ما يضمن نجاح وانتصار قضية العمال في كل مرحلة من مراحل النضال. يجب علينا أن نتعلم مجددا من التاريخ كل يوم، تماماً كما كان يجب دوما على جميع الفئات الصاعدة والمناضلة" Luxemburg, Rosa1913b:252)).

الثورة لا تصنع من قبل مجموعة صغيرة من الأشخاص يعتمدون سياسة صحيحة، والسياسة الثورية لا تقوم على حفنة من النشطاء السياسيين المستنيرين، الذين يعكسون بلغة صحيحة وعيا صحيحا، بل الثورة التي تلقي بالجماهير كما هي، تشوهها الرأسمالية، وتضللها الآراء البرجوازية وتطبعها أحيانا آراء عنصرية أو متحيزة جنسيا، في العمل السياسي هي بطبيعة الحال مشروع جامح. كتبت روزا لوكسمبورغ: "لا يجب على المرء أن يقود الجماهير العمالية إلى صراع سياسي كبير من المفترض أن يصنع جزءا من التاريخ، مثل مروض حيوانات يستعرض وحوشا برية، خلف قضبان حديدية، وفي يديه المسدسات والقضبان الواقية. إن عنف الجماهير غير المنظمة أقل خطورة بكثير بالنسبة لنا في النضالات الكبرى من عدم ثبات القادة" (المصدر السابق: 255 والصفحات التالية).

تاريخيا، ينبغي ان تكون روزا لوكسمبورغ وبصيرتها تاريخيا على حق.

في عام 1907، في مؤتمر شتوتغارت للأممية الثانية، أقسمت الأحزاب الاشتراكية الأوروبية على منع الحرب العالمية، التي كانت متوقعة منذ أزمة بولانغر عام 1888 (جنرال فرنسي من أنصار الملكية- المترجم) عند اندلاعها، بواسطة الإضرابات الجماهيرية. حينها كتب لوكسمبورغ، لينين، ومارتوف سوية: "في حال التهديد باندلاع حرب ما، فإن الطبقات العاملة وممثليها البرلمانيين في البلدان المشاركة ملزمون، بدعم الأنشطة الشاملة للمكتب الأممي، ببذل كل ما في وسعهم لمنع اندلاع الحرب باستخدام الوسائل التي تبدو أكثر فعالية. والتي تتغير بشكل طبيعي مع تفاقم الوضع السياسي العام". وتابعوا مستندين الى الديالكتيك العام للحرب والثورة، وواضعين تجربة كومونة باريس 1871 نصب أعينهم: "في حال اندلاع الحرب، فمن واجب العمل على انهائها بسرعة، والسعي بكل قوتنا لاستغلال الأزمة الاقتصادية والسياسية التي أحدثتها الحرب لتحفيز الشعب وبالتالي تسريع عملية إزاحة حكم الطبقة الرأسمالية" (مقتبس في: Grune-berg, Antonia (1970:18. بعد سبع سنوات، صوت زعماء الديمقراطيين الاجتماعيين بالإجماع تقريباً (باستثناء كارل ليبخنت - المترجم) لصالح قروض الحرب، ما مكن عمال ألمانيا وفرنسا من ذبح بعضهم البعض مليون مرة. لقد كانت الأحزاب والقيادات الحزبية هي التي سمحت بالحرب ودعمتها مع النقابات العمالية من خلال "سياسة قلعة السلام". وكانت الجماهير المنهكة من الحرب هي التي أنهت الحرب بثورات الجوع في عام 1916، وإضراباتهم في شركات صناعة الأسلحة في عام 1917 وانتفاضة البحارة والجنود في فيلهلمسهافن و كيل في تشرين الثاني 1918. وبالتالي قامت "ثورة نوفمبر" الألمانية. وفي الوقت نفسه، كانت قيادات الحزب هي التي شكلت حكومة انتقالية برئاسة زعيم الحزب الديمقراطي الاجتماعي فريدريش إيبرت، ولم تُقد الثورة التي انتظروها عقوداً، والمدعومة من الجماهير، بل تآمروا ضدها عبر اتفاق إيبرت - غرونر مع العسكريين وكذلك مع الرأسمال، ثم أغرقوها بالدماء خلال الإضرابات العامة في كانون الثاني - اذار 1919، مستخدمين مرتزقة الفيلق الحر اليميني المتطرف (Jörn Schütrumpf, Ingar Solty and Uwe Sonnenberg 2018).

وعلى عكس النخب في الدولة والمجتمع وأيضاً في حزبها، وضعت لوكسمبورغ، بصفتها ديمقراطية ومساواتية بالمعنى الأكثر تأكيدا، ثقتها في الناس العاديين: "في الرجال والنساء العاملين"، كتبت كريستل نيوسوس: "المظلومون، المستغلون في جميع أنحاء العالم، علقت آمالها على عامة الناس كما هم وكيف يوحدوا قواهم ويدافعوا عن أنفسهم. لكن نوادي الرجال، والمؤسسات، والجهاز الحزبي، والبرلمانات، وخزانة وإحصائي الديمقراطيين الاجتماعيين، وقوانين التشريعات، والأنظمة الداخلية

للنقابات، كل هذه الأمور لم تكن بالنسبة لها مريحة" (Neusüß, Christel 1985)).

تميزت روزا لوكسمبورغ، التي لم تكن إنسانيتها غريبة عما هو بشري، بالتسامح الحيوي غير المحدد أيديولوجيا، وربما تنصح اليسار اليوم بالتدخل بثقة في حركات جماهيرية غير محددة سياسياً (في البداية) مثل "شتاء السلام" أو حتى "احتجاجات النظافة" لدفعها إلى توجهات اشتراكية. كتبت: "ليس هناك أكثر طبيعية مما يحدث في أوقات الثورة، الاثارة والمشاعر السياسية التي تعبر عن نفسها بأعلى الاشكال. ربما لا تكون الرؤوس المحمرة حماسا هي الأكثر انتاجا للتربية السياسية للشعب، لكنها أكثر انتاجا من رفيق الحزب المخضرم، ذي الجفون نصف المغلقة في مساء المحاسبة، وهو ينام بسعادة على التقرير الإنجازي لسكرتير منظمته الحزبية (Luxemburg, Rosa 1918b). تتمثل مهمة الحزب الثوري في النضال من أجل الاشتراكية في "توجيه إرادة الجماهير التي تقتحم السماء إلى المسارات [الصحيحة]" (المرجع نفسه)، و"نحن نحاول"، كما كتبت لوكسمبورغ، أن نعطي الجماهير "تفهما واضحا لوضعها ولأهدافها، ولكن نترك لهم كل حماسهم واندفاعهم واقتحامهم من أجل المهام الشاقة التي ينبغي عليهم انجازها. نحن نؤكدها بالعبارة القائلة بأن الأشياء العظيمة لا يمكن تحقيقها إلا بحماس (المرجع السابق 427 والصفحات اللاحقة).

6- لوكسمبورغ والطريق إلى الديمقراطية الاشتراكية

في نهاية المطاف، كانت لوكسمبورغ تثق بالجماهير أكثر من الجهاز الحزبي. في مواجهة ازدواجية الدولانية في الحركة العمالية - ضد كاوتسكية الديمقراطية الاجتماعية وضد اتجاهات في البلشفية أيضًا، اعتمدت لوكسمبورغ على التنشيط بدلاً من السلبية، على حكم الذات بدلاً من حكم الغرباء أو تفويض الإرادة السياسية للبرلمانيين المنتخبين. لقد اتخذت هذا الموقف لأنها، كما قلنا، حافظت على موقف أساسي ديمقراطي شامل وأرادت استبدال حكم النخبة البرجوازية الليبرالية بمجتمع ديمقراطي من الاقتصاد إلى أصغر جزئيات المجتمع، وهو أمر لن يكون ممكناً إلا بطرق ثورية. إن قناعتها الأساسية بالديمقراطية كانت أكثر من مجرد حب للناس والثقة بالجماهير؛ بالنسبة لروزا لوكسمبورغ، كان هذا الموقف شرطا أساسيا لنجاح الثورة الاشتراكية نفسها: أولاً، أدركت لوكسمبورغ أن الثورة، كما ذكرنا سابقا، لن تكون ممكنة بدون عمل جماهيري منظم. ثانياً، كانت مقتنعة بأن العمل الجماهيري ضروري حتى نتمكن أصلا من تشكيل مجتمع اشتراكي. وكانت لوكسمبورغ على يقين من أن الثورة ستخلق الانسان الاشتراكي: الواثق من نفسه، التضامني والنموذجي أيضا، مسكون بحلم، بالجماعية التي تنظم الحياة الجيدة للجميع. اعتمدت روزا لوكسمبورغ فكرة ماركس بأن الثورة تخلق ثواراً. ان كل من مارس يوما عملا

نقابيا او سياسيا، يعلم ان هذه الممارسة غيرت انسان: الناس الذين كانوا من قبل متخوفين يتعلمون التحدث في الأماكن العامة، ويتعلمون تحويل أفكارهم إلى نصوص، والأهم من ذلك يعرفون، في وقت قصير جدا، قدرا لا يصدق عن أنفسهم والمجتمع الذي يعيشون فيه. عندما يرتبطون أكثر بزملائهم ويضربون سوية من أجل مصالحهم، عندما تهاجمهم او تعبر عن مساندتهم فجأة الصحف والمثقفون، الذين لم يعرفوا أسماءهم من قبل، عندما تكون الدولة في شكل شرطة أو هيئة تشريعية عنيدة، وهي التي يجب ان تمثل مصالح الناس، تدخل حياتهم بشكل ملموس وتتجاهل وتكافح مصالحهم المبررة، عندما تقوم المجموعات الاجتماعية، التي لم يعرفوا وجودها من قبل أو يرتبطون بها، بدعمهم أو مواجهتهم، عندما يكون أناس لم يدركوا أي أوجه شبه سابقة معهم، وبدون أن تكون لهم منفعة مباشرة، يقفون إلى جانبهم ويناضلون معهم، عندها يتعلمون في غضون أسابيع قليلة، أكثر من طلاب العلوم السياسية أو علم الاجتماع أو الاقتصاد في سنوات وعقود من المعرفة حول واقع المجتمع. في الوقت نفسه، يتعلم هؤلاء الناس أيضاً اية قوة تكمن في العمل الجماعي: "بمفردك يمكنهم أن يجعلوك واحدا"، لكن لا أحد يوقف جماهير ناقدة، "كل العجلات تقف ساكنة عندما تريد ذلك ذراعك القوية". النقابية الأمريكية موذر جونز حاججت ذات مرة، أنه يجب على العمال "الإضراب كل عامين على الأقل حتى يتمكنوا من معرفة قوتهم".

اعتمدت روزا لوكسمبورغ على الفعل الطبقي الواعي، الذي يخلق الوعي باعتباره الفاعل الذي يصنع الثورة، وكذلك الفاعل الذي ينجز الاشتراكية كوعاء لحياة ديمقراطية: كتبت: "يجب على عامل الاقتصاد الاشتراكي أن يُظهر أنه قادر على العمل بنشاط وانتظام، والحفاظ على الانضباط وبذل قصارى جهده، حتى بدون سوط الجوع، ودون أن يقف الرأسمالي ومراقبه خلف ظهره. وهذا يشمل الانضباط الذاتي الداخلي، والنضج الروحي، والجدية الأخلاقية، والشعور بالكرامة والمسؤولية، والانبعاث الداخلي الكامل للبروليتاري. بواسطة أناس كسالى، متهورين، أنانيين، طائشين وغير مبالين، لا يمكن تحقيق الاشتراكية. يحتاج المجتمع الاشتراكي إلى أناس، كل في موقعه مليء بالحماسة والرغبة من أجل الصالح العام، مليء بالتضحية والتعاطف مع من حوله، مليء بالشجاعة والمثابرة على مواجهة الأصعب، لكننا لا نحتاج الانتظار قروناً أو عقوداً حتى يكبر هذا الجيل. الآن، وفي النضال، في الثورة، تتعلم الجماهير البروليتارية المثالية الضرورية، وتكتسب النضج الفكري في وقت مبكر. من خلال كسب مناضلين كفوئين للثورة اليوم، نخلق عمالا اشتراكيين مستقبليين بالكيفية التي يكونون فيها أساسا لنظام جديد". (Lu-emburg, Rosa 1918c) .

وكان هناك، سبب ثالث حاسم للغاية جعل روزا لوكسمبورغ ترى أن العمل

الجماهيري محوري جدا للاشتراكية. بالنسبة لها، كان تجاوز التضاد بين القيادة والقاعدة، بين النخبة والجماهير، شرطاً أساسياً ليس لنجاح الثورة الاشتراكية، بل لتمتلك مستقبلا كمجتمع اشتراكي. آمنت لوكسمبورغ بحكم الجماهير لنفسها، وبقدرتها على توجيه نفسها ومصيرها، ليس فقط لأن الناس، من حيث المبدأ، يجب أن يحكموا أنفسهم، بل أيضاً لأن استمرار وتعميق تطور المجتمع واستمرار الاشتراكية يعتمد على ذلك. بالنسبة لها، كان العمل والإضراب الجماهيري شرطا أساسيا لتحقيق هدف لينين المتمثل في أن ''الطباخة'' يمكنها فعلاً إدارة الدولة. كتبت روزا لوكسمبورغ في نقدها لأداء لينين في ثورة أكتوبر ''إن السلبي، عمليات الهدم يمكن فرضها بالمراسيم لكن البناء، وما هو الإيجابي فلا يمكن فرضه. ارض بكر، آلاف المشاكل. التجربة فقط قادرة على تصحيح وفتح طرق جديدة. الحياة غير المقيدة والتي تفور في آلاف الأشكال والمبادرات الجديدة، يمكنها فقط أن تخرج إلى النور قوة جديدة خلاقة تصحح بنفسها كل المحاولات الخاطئة''.

''إن الحياة العامة في البلدان ذات الحرية المحدودة هي مصابة بالفقر، بائسة، جامدة، مجدبة، لان استبعاد الديمقراطية فيها يقطع المصادر الحية لكل الغنى والتقدم الروحي. كما هو الحال هناك سياسيا، وكذلك أيضا اقتصاديا واجتماعيا. يجب أن يشارك فيها كل الشعب. وإلا فإن الاشتراكية سيجري فرضها من وراء المكاتب الخضراء لدزينة من المثقفين'' (Luxemburg, Rosa 1918a).

بالنسبة إلى لوكسمبورغ، كانت الاشتراكية مماثلة لإضفاء الطابع الديمقراطي على جميع مجالات الحياة: ''إنها المهمة التاريخية للبروليتاريا، عندما يتم الاستيلاء على السلطة، بناء ديمقراطية اشتراكية بدلاً من الديمقراطية البرجوازية، وليس إلغاء كل ديمقراطية. إن الديمقراطية الاشتراكية لا تبدأ فقط في الأرض الموعودة عندما يتم بناء أساس الاقتصاد الاشتراكي. انها تبدأ عندما يستولي الحزب الاشتراكي على السلطة. وهي ليست سوى دكتاتورية البروليتاريا'' (المرجع السابق: 363).

بالتأكيد من المسلم به أن هذه الديكتاتورية، التي وصفتها لوكسمبورغ بأنها ''آخر هدف ضروري تاريخياً'' (Luxemburg, Rosa 1906b:153)، ظلت بدءاً من ماركس صيغة فارغة. تماماً كما كانت روزا لوكسمبورغ تدرك أن البرجوازية لن تتخلى أبداً عن حكمها عن طريق الانتخابات وتحقيق أغلبية برلمانية اشتراكية، ولكنها ستجد في الحكم الاستبدادي، في الفاشية، مهربا لها للحفاظ على الملكية الخاصة لوسائل الإنتاج باعتبارها الدعامة المركزية لسلطتها، كان واضحا أيضاً أن الثورة لا يمكنها اختيار الظروف التي تندلع في ظلها والتي تكون في العادة غير مواتية، بل ان الثورة المضادة للبرجوازية تساهم أيضاً بشكل كبير في تشويه وجه الثورة و''دكتاتورية البروليتاريا''، أي أن الأغلبية العظمى للشغيلة على

الأقلية البرجوازية، يمكن أن تتحول إلى ديكتاتورية حقيقية. وحتى الصورة التي يرسمها العديد من أتباع لوكسمبورغ وما يسمى بـ "طريق لوكسمبورغ-غرامشي" (طريق ثالث) بعيداً عن لينين باعتباره ثورياً طليعياً استبدادياً لا تتوافق مع شخص لينين الحقيقي. وبينما انتقدت لوكسمبورغ لينين لحل مجلس الدوما، وضع آماله أخيرا في نظام المجلس باعتباره الشكل الأكثر ديمقراطية للنظام السياسي مع مشاركة جماهيرية مباشرة أكثر فأكثر. (قارن: Solty, Ingar 2020a).

يرتبط تطور ثورة أكتوبر بالمسألة التاريخية الحقيقية للثورة، والتي هي في النهاية جدلية: تعتمد درجة العنف الثوري على درجة العنف المضاد للثورة التي تستخدمها الطبقة الحاكمة من أجل الحفاظ على النظام الاقتصادي التقليدي ونظام الملكية الذي لم تعد تريده الجماهير، والذي يخدم القلة فقط على حساب الكثيرين. بالنسبة إلى لوكسمبورغ، كان العنف الثوري "الملاذ الأخير أيضا للطبقة العاملة"، وكان لا غنى عنه "كوسيلة دفاعية" للمنجزات البرلمانية في الصراع الطبقي و"وسيلة لا يمكن تعويضها للهجوم حيث كان الميدان القانوني للصراع الطبقي لم يتم الاستيلاء عليه بعد" (Luxemburg, Rosa 1902).

على أية حال، فإن ديالكتيك الثورة يظل مشكلة لم تحل. ولم تكن روزا لوكسمبورغ تفكر بشكل مختلف، فهي رغم انتقاداتها رحبت بثورة أكتوبر بسعادة ورافقتها بتضامن. ومثلما ربط بعض اليساريين اليوم فشل اليونان بين كانون الثاني وتموز 2015 بالعوامل الخارجية، وبالتحديد بضعف تضامن واستعداد اليسار في الدول الرأسمالية الأساسية مع اليسار اليوناني الحاكم، فإن لوكسمبورغ حمّلت أيضا ضعف الدعم من الحركة العمالية في الغرب، مسؤولية مشتركة عن مشاكل ثوار أكتوبر (Lu-emburg, Rosa (1918a:364.

لم تكن لوكسمبورغ تعلم نظريا فقط أن الثورة ستنتج ثورة مضادة، لا تتراجع عن ممارسة القتل الجماعي. لقد دفعت حياتها ثمنا للثورة التي عملت من اجلها طيلة حياتها. لقد واجهت روزا لوكسمبورغ حملة عدوانية من قبل اعداء الثورة، أصبحوا لاحقا من كبار النازيين، الذين تم تمويلهم من "صندوق معادة البلشفية لرجال الأعمال الألمان"، ومن البنك الألماني (لا يزال حتى الان من اكبر مؤسسات القطاع الخاص المالية في أوروبا - المترجم)، شركة سيمنز، اتحاد الرايخ للصناعات الألمانية وغيرهما. وقبيل موتها المؤكد كتبت من مخبأها السري مقالتها الأخيرة "النظام يسود في برلين"، والذي نشر قبل يوم واحد من تصفيتها في جريدة الحزب الشيوعي في ألمانيا "روتن فانه" (الراية الحمراء)، والتي انهتها بـ"النظام يسود في برلين! ايها الذيول المملون ان "نظامكم" مبني على الرمال. ان الثورة ستصل غدا بسرعة الى ذروتها، ولرعبكم ستعزف الابواق [...] كنت وما زلت وسأكون".

المراجع:

Ackermann, Anton (2005): Der deutsche Weg zum Sozialismus, Das Neue Berlin, Berlin.

Basso, Lelio (1969): Rosa Luxemburgs Dialektik der Revolution, Europäische Verlagsanstalt, Frankfurt/M.

Dath, Dietmar (2010): Rosa Luxemburg: Leben Werk Wirkung, Suhrkamp, Berlin.

Deppe, Frank u.a., Der neue Imperialismus, Distel, Heilbronn 2004.

Deppe, Frank, Salomon, David, Solty, Ingar, Imperialismus, Papy Rossa, Köln 2011.

Frölich, Paul (1973): Rosa Luxemburg – Gedanke und Tat, 4.A., Europäische Verlagsanstalt, Frankfurt/M.

Gietinger, Klaus (2018): Eine Leiche im Landwehrkanal, 2.A., Nautilius, Berlin 2018

Grunenberg, Antonia (1970): Die Massenstreikdebatte: Beiträge von Parvus, Rosa Luxemburg, Karl Kautsky und Anton Pannekoek, Europäische Verlagsanstalt, Frankfurt/M. 1970.

Haffner, Sebastian (2008): Die deutsche Revolution 1918/19, Anaconda, Köln

Haug, Frigga (2007): Rosa Luxemburg und die Kunst der Politik, Argument, Hamburg.

Hobsbawm, Eric (1996): The Age of Revolution, 1789-1848, Vintage, New York.

Jones, Mark (2017): Am Anfang war Gewalt: Die deutsche Revolution 1918/19 und der Beginn der Weimarer Republik, Propyläen, Berlin.

Knobloch, Heinz (1997): Meine liebste Mathilde: Die beste Freundin der Rosa Luxemburg, Fischer, Frankfurt/M.

Luxemburg, Rosa (1899): „Sozialreform oder Revolution?", in: dies., Gesammelte Werke, Bd. 1/1, Dietz, Berlin 1982, 369-445.

Luxemburg, Rosa (1902): „Und zum dritten Male das belgische Experiment", in: dies., Gesammelte Werke, Bd. 1/2, Dietz, Berlin 1983, 229-248.

Luxemburg, Rosa (1906a): „Die russische Revolution", in: dies., Gesammelte Werke, Bd.2, Dietz, Berlin 1986, 5-10.

Luxemburg, Rosa (1906b): Massenstreik, Partei und Gewerkschaften", in: dies., Gesammelte Werke, Bd.2, Dietz, Berlin 1986, 91-170.

Luxemburg, Rosa (1909): „Der 1. Mai und der Klassenkampf", in: dies., Gesammelte Werke, Bd. 7/1, Dietz, Berlin 2017, 572-575.

Luxemburg, Rosa (1910a): „Zeit der Aussaat", in: dies., Gesammelte Werke, Bd.2, Dietz, Berlin 1986, 300-304.

Luxemburg, Rosa (1910b): „Ermattung oder Kampf?", in: dies., Gesammelte

Werke, Bd.2, Dietz, Berlin 1986, 344-377.
Luxemburg, Rosa (1913a): Die Akkumulation des Kapitals: Ein Beitrag zur ökonomischen Erklärung des Imperialismus, identisch mit dies., Gesammelte Werke, Bd.5, Dietz, Berlin 1985.
Luxemburg, Rosa (1913b): „Taktische Fragen", in: dies., Gesammelte Werke, Bd.3, Dietz, Berlin 1984, 246-258.
Luxemburg, Rosa (1913c): „Der politische Massenstreik", in: dies., Gesammelte Werke, Bd.3, 259-266.
Luxemburg, Rosa (1914a): „Ein Schritt vorwärts", in: dies., Gesammelte Werke, Bd.3, Dietz, Berlin 1984, 467-470.
Luxemburg, Rosa (1914b): „Die verkehrteste Taktik", in: dies., Gesammelte Werke, Bd.3, Dietz, Berlin 1984, 473-475
Luxemburg, Rosa (1914c): „Der Friede, der Dreibund und wir", in: dies., Gesammelte Werke, Bd.3, Dietz, Berlin 1984, 476-479.
Luxemburg, Rosa (1917): „Russische Probleme", in: dies., Gesammelte Werke, Bd.4, Dietz, Berlin 1990, 255-257.
Luxemburg, Rosa (1918a): „Zur russischen Revolution", in: dies., Gesammelte Werke, Bd.4, 5.A., Dietz, Berlin 1990, 332-365.
Luxemburg, Rosa (1918b): „Die ‚unreife' Masse", in: dies., Gesammelte Werke, Bd.4, Dietz, Berlin 1990, 427-430.
Luxemburg, Rosa (1918c): „Die Sozialisierung der Gesellschaft", in: dies., Gesammelte Werke, Bd.4, 5.A., Dietz, Berlin 1990, 431-434.
Luxemburg, Rosa (1918d): „Die Wahlen zur Nationalversammlung", in: dies., Gesammelte Werke, Bd.4, Dietz, Berlin 1990, 472-474.
Luxemburg, Rosa (1919a): „Der erste Parteitag", in: dies., Gesammelte Werke, Bd.4, 5.A., Dietz, Berlin 1990, 512-515.
Luxemburg, Rosa (1919b): „Die Ordnung herrscht in Berlin", in: dies., Gesammelte Werke, Bd.4, 5.A., Dietz, Berlin 1990, 531-536.
Neusüß, Christel (1985): Die Kopfgeburten der Arbeiterbewegung oder Die Genossin Luxemburg bringt alles durcheinander, Rasch und Röhring, Hamburg/Zürich.
Panitch, Leo, Gindin, Sam (2012): The Making of Global Capitalism: The Political Economy of the American Empire, Verso, London/New York.
Pozzoli, Claudio (1974): Rosa Luxemburg oder Die Bestimmung des Sozialismus, Suhrkamp, Frankfurt/M.
Radek, Karl (1921): „Rosa Luxemburg – Karl Liebknecht – Leo Jogiches", in: Winkel, Udo, Hg. (1979): Karl Radek: Drei Aufsätze, Beiträge zur Geschichte des Sozialismus und der sozialen Bewegunge in Süddeutschland (Eigenverlag), Stutt-

gart 1979, 45-88.
Jörn Schütrumpf, Ingar Solty and Uwe Sonnenberg, „Wer weitergeht, wird erschossen! Warum die soziale Revolution 1918/19 scheiterte", in Luxemburg: Gesellschaftsanalyse und linke Praxis, 10:3 (Winter 2018), pp.8-15
Solty, Ingar (2018): „Fünfzehn Tage, die die Welt erschütterten", in: Luxemburg: Gesellschaftsanalyse und linke Praxis, 10. Jg. (2018), Nr. 3, 148-157.
Solty, Ingar (2020a): #Lenin150: Theoretiker und Praktiker der Revolution, Online-Publikation, Rosa-Luxemburg-Stiftung, Link: www.rosalux.de/fileadmin/rls_uploads/pdfs/sonst_publikationen/4-20_Onl-Publ_Lenin150.pdf (letzter Zugriff: 26.2.2021)
Solty, Ingar (2020b): „Kein Marxismus ohne Friedrich Engels", in: Z. Zeitschrift Marxistische Erneuerung,
Solty, Ingar (2020c): „Kreativ aus Angst: Zum 100. Todestag von Max Weber", in: junge Welt, 13.6.2020, 12-13.
Solty, Ingar (2021): „Brauchen wir eine vierte Welle der Imperialismustheorie?", in: Thomas Sablowski u.a., Hg., Auf den Schultern von Karl Marx, Westfälisches Dampfboot Verlag, Münster 2021, ####.
Solty, Ingar, Schäfer Velten (2020): „Das verwilderte Denken", in: D.F. Bertz, Hg. (2020): Die Welt nach Corona, Bertz + Fischer, Berlin, 314-324.
Thompson, E.P. (1966): The Making of the English Working Class, Vintage, New York.
Vester, Michael (1972): Die Entstehung des Proletariats als Lernprozeß, Europäische Verlagsanstalt, Frankfurt/M.
Walter, Franz (2009): Die SPD: Biographie einer Partei, Rowohlt, Reinbek bei Hamburg.
Winkel, Udo, Hg., Karl Radek: Drei Aufsätze – Rosa Luxemburg, Karl Liebknecht, Leo Jogiches, Beiträge zur Geschichte des Sozialismus und der sozialen Bewegunge in Süddeutschland (Eigenverlag), Stuttgart 1979.

* الترجمة لنص مختصر من بحثه المنشور في موقع مؤسسة روزا لوكسمبورغ، في أوائل اذار 2021 ، في اطار الاحتفال بالذكرى الـ 150 لميلاد روزا لوكسمبورغ. خصّ به الباحث (انغار سولتي) مجلة (الثقافة الجديدة).

حـــــــــــوارات

حتى لا تتسربل ثورة 14 تموز 1958 بالنسيان!
حوار مع الدكتور عقيل الناصري

حاوره رئيس التحرير، الدكتور صالح ياسر

في تموز هذا العام، 2021، تكون قد مرّت ثلاثة وستون عاما بالتمام والكمال على اندلاع ثورة الرابع عشر من تموز 1958 والجدل الذي ثار حولها، خصوصا في السنوات الأخيرة، هنا وهناك، في اللقاءات العامة، كما في المجالس والأحاديث الخاصة ما زالت نيرانه مشتعلة ولم ولن تنطفئ. يتمحور هذا الجدل، أساسا، حول موضوعات عديدة من بينها موضوعتا العنف والثورة، التحالفات والقوى المحركة للثورة والقوى المضادة لها، طبيعة تركيبة القيادة العسكرية للثورة ودور الزعيم عبد الكريم قاسم في اندلاع الثورة وفي انتكاسها، التأثيرات الإقليمية والدولية والصراعات بين "الاقطاب

الكبار"، وأخيرا وليس آخرا ما إذا كان الذي حدث في 14 تموز 1958 انقلابا أم ثورة.

ومن المهم الاشارة هنا الى ان ثورة 14 تموز 1958 ليست كليشة ثابتة ونهائية، نستطيع ان نحدد حقيقتها ودلالاتها، بل على العكس أنها تحكي ممارسات ومواجهات ومعارك وتعرجات وانعطافات وانقطاعا وانفصالا، وعمليات فرز، في إطار ملابسات موضوعية وذاتية مختلفة. بتعبير آخر، ان حقيقة ثورة 14 تموز ودلالاتها لا سبيل الى تحديدها، إلا عبر حركتها التاريخية العامة البالغة التعقيد، بما حملته من تناقضات عاصفة وتضارب مصالح محلية وإقليمية ودولية وآفاق وآمال ومحاولات إفشال وتشويه مضمونها الاجتماعي - الطبقي. ولعل هذا هو مصدر الصعوبة في تقييمها من ناحية، ومصدر السهولة من ناحية أخرى، في محاولة تزييف حقيقتها.

إن الاحتفاء بهذه الذكرى بما يليق بها يتطلب طرح قضية ثورة 14 تموز 1958 الى النقاش العام مرة أخرى، بهدف التحريض على تقليب الأوراق من جديد وتقديم قراءات تتجاوز الكليشات الجاهزة، قراءات تغوص في عمق الإشكاليات الكبرى التي جعلت حدوث ثورة الرابع عشر من تموز ممكنا وانتكاسها وانحرافها عن الطريق الصحيح ممكنا أيضا لجملة عوامل ومعادلات واستقطابات محلية وإقليمية ودولية. ومن المؤكد أن هذا النقاش سيساهم في الإبقاء على الذاكرة متوقدة، بما يسمح بتجاوز حالات الانكسار والتراجع وعبور الأزمة، ومواصلة العطاء، خصوصا وبلادنا تمر الآن في لحظة تاريخية بالغة التعقيد والصعوبة، لحظة مفتوحة على مختلف الاحتمالات.

*****

حملنا كل هذه الاسئلة وهذه الافكار، وغيرها طبعا، الى الدكتور عقيل الناصري للحوار حول ثورة 14 تموز 1958، وهو الذي يعتبر من الباحثين الذين ابحروا عميقا في نهرها العاصف ليكشف الكثير من خباياها ونقاط قوتها وضعفها ودور قادتها وخاصة الزعيم عبد الكريم قاسم فيها، وممارساته التي ادت الى المسار الذي اتخذته الثورة، وصولا الى انتكاسها ومغادرتها مسرح التاريخ، لتحل محلها ثورة ردة في 8/ شباط/ 1963. ولهذه الاخيرة يجب ان يفرد حديث خاص (خارج هذه المقابلة) لانها حددت مسارات العراق خلال العقود اللاحقة، توجت في احتلال العراق في 2003.

الثقافة الجديدة: نرحب بك زميلنا العزيز د.عقيل، ونقول لك اهلا وسهلا بك ضيفا عزيزا على صفحات مجلة (الثقافة الجديدة) التي تعتز بك كاتبا وباحثا، استمر في التواصل معها عقودا عدة، رافدا اياها ببحوث ودراسات هي موضع تقديرنا واعتزازنا.

ولنبدأ بسؤالنا الاول:

يبدو من خلال طرح القضية ان ثمة شيئا من الغموض، أو سوء الفهم، ربما، يرتبط ببعض جوانب ما نود الحديث عنه. فالثورة، وهي، كما معروف، عملية موضوعية، لها قوانينها ومستلزماتها وشروطها ومحتواها وتجلياته. وتتحقق عندما تنضج شروطها، تطرح هنا مكانها فعلا ارادويا، تجتهد حفنة أشخاص بضرورته، وتنفذه دون حساب لمصالح المجتمع وإرادته.

وقد يتعارض هذا الطرح مع واقع ثورة 14 تموز ذاتها، إذ على الرغم من أنها بدأت بتحرك عسكري، يذكر بالأعمال الانقلابية التقليدية المعروفة، لكن هذا التحرك كان بمثابة الفتيل الذي أطلق النهوض الثوري لملايين العراقيين، الذين كانوا متحفزين ينتظرون التغيير السياسي والتحول الاجتماعي. لهذا يمكن القول ان ما حدث في 14 تموز 1958 لم يكن انقلابا عسكريا تقليديا، بل كان فاتحة تحول اجتماعي عميق، يحمل السمات الأساسية للثورة الأصيلة. وهو بهذه الصفة عملية موضوعية، لم يكن من مفر من وقوعها. ولو لم يكن "الضباط الأحرار" أطلقوها يومذاك، لأنجز غيرهم هذه المهمة. هل يمكنكم – زميلنا العزيز د. عقيل - التعمق في فك الغاز هذه "الحكاية"؟

د.عقيل الناصري: يتمحور تاريخ العراق المعاصر، ونستطيع تلمس الجوانب التغيرية في السوسيولوجيا المعرفية والسياسية والفكرية وتمظهراتها حول منطلقين من المنعطفات الأرأسية، كانت تمثل، كما أعتقد، انقطاعاً تاريخياً مهماً مع أرأسيات التأريخ الماضي القريب، المرحلة العثمانية، من النواحي: الطبقية؛ وانماط الانتاج الاقتصادية؛ والأبعاد الاجتماسياسية؛ والتحولات الفكرية، حسب تاريخية تحققها وظهورها، هما:

1- تأسيس الدولة في آب 1921؛

2- التغيير الجذري في تموز 1958.

أفضى المنعطف الثاني زمناً للتغيير السياسي والاجتصادي الحاسم؛ وكما أفضى إلى إنهيار الملكية وإعلان الجمهورية؛ وتمكين الطبقات والفئات الاجتماعية الوسطى وما دونها في المجتمع العراقي من قبل رسم القرار المركزي للدولة وتنفيذه؛ والرفاه النسبي بخاصة إلى الطبقات الفقيرة؛ وتجريد طبقة الإقطاع من قوتها الاقتصادية والسياسية؛ وانقطاع الاواصر مع السلطة الاستعمارية البريطانية؛ وإعادة بناء الاقتصاد الوطني وتحديث أنماطه الإقتصادية.

ان الثورة تبدل عام وشامل في جميع قواعد الحياة ومقوماتها، على الاقل من الناحية النظرية. انها ليست تبدلا شكليا، انها انقطاع لاستمرار وضع قائم بمختلف مناحيه الحياتية، وقيام عهد جديد. وهذا ما انعكس في المجتمع العراقي بمختلف نواحيه من الناحية النظرية والعملية.

ان ثورة 14 تموز، باعتبارها التحرك الأول للمؤسسة العسكرية من خارج الكتل

الحاكمة، وهو انقلاب عسكري تحول إلى ثورة شعبية بعدما تناوله من إجراءات بنيوية طالت المجتمع العراقي بكل جوابه: الاجتصادية والسياسية والفكرية وبفضل الجماهيرية الملتف حول الثورة.

ومن الناحية المنهجية اعتقد أن أفضل منهج لمعالجة أية ظاهرة اجتماتاريخية/ سياسية، هو أن يتم تناولها ضمن الأطر التالية: نطاقها التاريخي الملموس؛ في تاريخية النشوء والتبلور؛ ضمن منظومة المفاهيم العلمية؛ وعلى ضوء الخصائص المادية الملموسة للظاهرة. وأن الثورة عملية موضوعية، لها قوانينها ومستلزماتها وشروطها ومحتواها وتجلياته، وتتحقق لسنن التطور عندما تنضج شروطها. وتتبين أهميتها وجدلية تطورها والمكابح التي عرقلت تحقيق ذاتها، ولها اسباب موضوعية وذاتية:

- كان العراق يعاني من تخلف اجتماعي واقتصادي وسياسي وفكري، ولم ينفتح على العوالم الفكرية والسياسية إلا حديثاً منذ أوساط الخمسينيات وبخاصة بعد الثورة؛

- مستويات وبنية قوى الانتاج تعاني من ضعف على مستوى التقنيات إلا في صناعة النفط؛

- واجتماعياً، سيطرت القيم العشائرية وكانت تضرب بعمق في المجتمع وضمن شمولية النظام شبه الاقطاعي، والمدن عبارة عن جزارات معزولة عن بعضها البعض خاصة في بداية المرحلة الملكية؛

- التبعية الكاملة للاقتصاد الغربي، بحيث أن سياسة مجلس الإعمار كانت تهدف إلى تثبيت وتشديد التبعية الاقتصادية، وهذه من خصائص الاقتصاد شبه الاقطاعي/ شبه الاستعمارية وإهمال القطاع الصناعي إهمالاً كاملاً؛

- واتساع الهوة الاجتماعية بين طبقات المجتمع بشكل مهول؛

- والمؤسسات السياسية من برلمانية: بحيث أن البرلمان قد يُحل في اي وقت وكان حسب المكلف برئاسة الوزارة ولم يداوم البرلمان سوى 8 أيام كما في اواسط الثلاثينيات، وبعدها وفي الخمسينيات إذ حُل البرلمان بعد خطاب العرش، وكان التزوير السمة الأساسية الغالبة عليه، وكان المفروض طيلة مدة الحكم الملكي 8 مجالس للنواب، في حين بلغ 16 مجلساً.. إلى أحزاب سياسية متخلفة وعياً بخاصة الأحزاب السلطوية، إذ يتوقف نشاط الحزب حسب مزاج رئيسه والظرف الموضوعي الداعي الى تشكيله، وتتميز بفقدان التآزر بين السلطة التشريعية والتنفيذية وغلبة الأخيرة عليه، وانعدام التداول السلمي للسلطة؛

- والأهم من ذلك العوامل الذاتية حيث نسبة الأمية عالية وقدرت آنذاك في مطلع العشرينيات بحدود -90 95%، وارتفعت ابان الخمسينيات بصورة طفيفة، ومدارسه الفكرية مشوهة ما عدا البعض منها؛

- ونقل الاحتجاجات من الأرياف إلى المدن، بخاصة في الاربعينيات، حيث صعدت نقابات العمال والفئات الأخرى،

التي بُنيت على أساس قواعد جديدة، مما أهلتها ذاتياً (الانتقال من طبقة لذاتها إلى طبقة في ذاتها) حسب الظرف العراقي وتجلى ذلك في قيادة الإضرابات العمالية بنجاح مثل كاورباغي وإضراب السكك وساهمت في الاحتجاجات عام 1948، 1952، 1954، 1956؛

- وقد ساهمت، بعد مخاض عسير، في انضاج الظروف الموضوعية والذاتية، في إرساء جبهة الاتحاد الوطني؛

- النضوج في حركة الضابط الأحرار والانتقال من حلقات فردية قبل وبعد 1941، إلى حركة ذات فعالية، ذات غائية تتمثل بسمة كمنت في إسقاط النظام الملكي بالاساس، مع جملة أهداف تبلورت في سياق الصراع الاجتماسياسي مع السلطة.

اما ما متبلور من أهداف معلنة، فقد تمت مناقشتها شفاها بعد تشكيل اللجنة العليا للضباط الأحرار في عام 1952. ولهذا يكتنف هذه الغائيات المتبلورة وتلك التصورات المتبناة الكثير من الغموض والضبابية، استناداً إلى ما عرضه الضباط الأحرار أنفسهم أو بالأحرى الاشخاص المحوريون منهم في اللجنة العليا. هذا الغموض مستنبط من: خلفياتهم الاجتماعية والطبقية؛ ومساحات التباعد النفسي بينهم وبالرتب؛ وفضاءاتهم الفكرية المتباينة التي اتسمت بالتناقض التناحري في بعض مفاصلها. لكن هذا التحرك كان بمثابة الفتيل الذي أطلق النهوض الثوري للعراقيين، الذين كانوا متحفزين ينتظرون التغيير السياسي والتحول الاجتماعي. ومما يؤخذ على برنامج حركة الضباط الأحرار، إنه وجد: تضخيما كبيرا للذات المهنوية للضباط؛ وللإيحاء بكونهم قادرين على استعادة مكانتهم و(دورهم التاريخي) في السلطة ولهم الأولوية في إدارتها؛ ليس لكونهم يتصرفون بوسائل العنف المادي حسب، بل (لمشروعهم التنموي المفترض!) ذي الأبعاد الشاملة للمعضلات الاجتصادية/ السياسية والثقافية، وهذا مجرد هراء.

فالاستنتاج الذي خرجنا به كما اتصور، وأهمها كعوامل أرأسية:

- مما طرحته الحركة الوطنية المعارضة للنظام الملكي وبخاصة من الحزبين ذويّ المنطلق العراقوي وهما: الوطني الديمقراطي والشيوعي العراقي وبقية أحزاب المعارضة العروبية كحزب الاستقلال؛

- من البرنامج المتكامل الذي قدمه الحزب الشيوعي لقاسم قبل الثورة بفترة وجيزة (1)؛

- مما طبقته حكومة تموز في الجمهورية الأولى (14 تموز 1958 - 8 شباط 1963)؛

وعوامل ثانوية:

- من صراع السلطة مع القوى المعارضة في الوثبات المتكررة والقاعدة الاجتماعية لقوى المعارضة وانتزاع الحقوق منهم؛

- ومن اللحظات التاريخية لتفهم سلطة الأقلية (الأوليغارشية) في تحسين الوضع الاقتصادي والاجتماعي عوضا من الانفجار؛

- من الصراع الطبقي بين الاقطاعيين والفلاحين بخاصة في الخمسينيات، إذ تبلور بضرورة تحقيق الشعار الأرض لمن يفلحها. وهذا الأساس النظري في جوهر الإصلاح الزراعي.

الثقافة الجديدة: سؤالنا الثاني هو امتداد للسؤال الاول وربما يتداخل معه. نود الاشارة هنا الى انه وعند تناول ثورة الرابع عشر من تموز 1958، علينا أن نتجنب ذئب التفاصيل، وغواية "السرديات"، وطوفان الأحداث، فكل ذلك كفيل بإغراقنا، وبحصارنا في أنفاق مسدودة، متناقضة، متضادة. فالغرق في التفاصيل قد يكون مغريا، لكنه في نفس الوقت قد يمنع من تكوين نظرة شاملة للحدث والمآل الذي اتخذه، ذلك لأنه يمكن أن ينقضي العمر كله ونحن نناقش التفاصيل، دون أن نصل إلى أي نتيجة، أو تصور كلّي معلل لما جرى!

لكن هذا لا يعني بالمقابل الاندفاع نحو الاختزال المخل، الذي قد لا ييسر لنا الوصول إلى تصور متوازن، بل إلى إصدار أحكام قاطعة، تكون في أغلب الأحيان غير دقيقة.

سوف نترك ذلك كله، لنسأل سؤالا واحدا نعتقد انه سؤال استراتيجي، ويستحق التوقف والتعمق في مدلولاته وهو:

برأيكم، هل كانت ثورة 14 تموز 1958 ضرورية في تلك اللحظة التاريخية التي وقعت فيها؟

د.عقيل الناصري: لم تكن الثورة وليدة اللحظة التاريخية بل أنها كانت لها امتدادات تاريخية، تمثلت بالانتفاضات الشعبية بعموم المرحلة الملكية، وعمق من نضال تاريخي طويل يمتد إلى ثورة العشرين، وما قبلها في انتفاضة النجف عام 1918 بقيادة نجم البقال الدليمي، وهي عتلة التغيير في تأسيس الدولة العراقية. لو حللنا العوامل الكامنة في الظروف الموضوعية والذاتية لتوصلنا لنقطة في غاية الأهمية: تمثلت في خضم واحتدام الصراع الطبقي الحاد، وهو صراع كان تناحرياً، وكانت غائيته استهداف النظام الملكي برمته ونظامه شبه الاقطاعي والمكبل بالمعاهدات الجائرة والاحلاف العسكرية.. ولرأينا المزيد الذي تجسد في: اشتداد الأزمة العامة للرأسمالية وانعكاساتها على الوضع الاجتصادي والسياسي؛ وما لعبته مصالح حكم الأقلية المتمثلة في شبه الاقطاع والكومبرادور والضباط الشريفيين؛ الأزمة البنيوية التي عصفت بالنظام العراقي وبالأخص في الجوانب الاقتصادية؛ والتناقض التناحري العميق، بين البرامج السياسية والاجتصادية والفكرية التي تطرحها السلطة وما تطرحه المعارضة الاجتما/ السياسية؛ ما أدى إلى: نضوج العوامل الذاتية لحركة الضباط الأحرار بفئاتها المتعددة؛ والعوامل الذاتية الخاصة بوعي

الطبقة الوسطى بفئاتها المختلفة؛ والعوامل الخاصة بتصاعد الوعي الطبقي للعمال؛ والتام الأحزاب العراقوية والعروبية في جبهة الاتحاد الوطني.

أثرت الثورة في انضاج الضرورة الموضوعية وهيأت الأرضية السياسية والفكرية للحظة التاريخية. ان الثورة فعل تراكمي نتيجة للتطورات وسائر العوامل الفكرية والاجتماعية والسياسية. إن التبدلات الجزئية تتراكم في حياة المجتمع حتى تبلغ في الكم درجة الاشباع وتنفجر الثورة. وبذلك يتحقق تحول الكم إلى النوع بحكم الضرورة وبحكم الوعي الطبقي للمجتمع وتصاعده. إنها الضرورة التراكمية لنضال القاعدة الاجتماعية لثورة 14 تموز بأحزابها السياسية ذات الجذور العميقة. ولهذا اعتقد أنه ليس في المرحلة التاريخية الضرورية، وإنما ذات بعد يمتد إلى تأسيس الدولة العراقية وما قبلها.

الثقافة الجديدة: حدثت الثورة بالفعل وتطورت الاحداث واتخذت مسارات متنوعة. وهنا لا بد، إذن، من تقويم هذه الثورة من خلال كل ما نسب إليها من انتصارات وانكسارات، لا بد من محاسبتها عما تحقق وما لم يتحقق ولماذا لم يتحقق؟ لا بد من تحليل الظروف الموضوعية والذاتية، المحلية والإقليمية والدولية التي أدت الى اندلاع هذا الحريق الثوري في الرابع عشر من تموز، ولماذا اتخذ هذه الوجهة دون غيرها؟ إنها أسئلة حارقة، وتحتاج الى مقاربات مركبة وليس اختزالية بسيطة، تساعد في الكشف عن بعض جوانب هذا الحدث الكبير الذي نحتفل بذكراه الثالثة والستين.

وبالمقابل، كما هو الأمر بالنسبة لقانون الثورات الاجتماعية لم تواصل ثورة تموز صعودها، بل انتكست في لحظة حاسمة من لحظات تطورها، لجملة أسباب وذلك في الثامن من شباط المشؤوم عام 1963 الذي حدّد مسارا جديدا للصراع، اتخذ طابعا دمويا وقيامات وحروبا داخلية وخارجية لا تنتهي. ولهذا فان المطلوب ليس التباكي على ما حدث من انتكاسة، بل مواجهة النفس، بشجاعة وجهر، بالأسئلة المكتومة في الصدور. نعم، ثمة عشرات من الأسئلة وعلامات الاستفهام، التي تملي مسؤولية الاجتهاد في فهمها وطرحها طرحا صحيحا، من اجل بلورة إجابات عنها، لكي يمكن فهم جذور الانتكاسة وأسبابها الفعلية.

ومن بين تلك الأسئلة التي نرجوكم مقاربتها بتكثيف هي التالية: ما هو البعد الديمقراطي في الثورة ولماذا اخفقت في بناء نظام سياسي ديمقراطي؟ ما هي الائتلافات الاجتماعية - السياسية التي تبلورت قبل ثورة 14 تموز وبعد اندلاعها؟ وما هو المشترك والمختلف في تلك الائتلافات قبل وبعد الثورة؟ ما هي اهداف ثورة تموز وما الذي تحقق منها ومن لم يتحقق ولماذا؟ ما هي الادوار المتباينة للأحزاب السياسية في دعم الثورة والصراعات التي نشبت بين تلك الاحزاب وجذورها الاجتماعية - الطبقية؟

د.عقيل الناصري: البعد الديمقراطي للثورة تجلى في النهوض الجماهيري، في تأليف نقابات العمالية وتكوين؛ وانشاء الجمعيات الفلاحية؛ وإرساء وتعزيز النقابات المهنية الأخرى مثل المعلمين والأطباء والمهندسين والمحامين وغيرها؛ والأحزاب السياسية تمارس في العلن، أو ما اشبه بذلك، من خلال جبهة الاتحاد الوطني؛ والانفتاح على المدارس الفكرية؛ وانتشار التعليم في عموم العراق بما فيها الأرياف. ولهذا يُعد التغيير الجذري في يوم 14 تموز، أحد أهم معالم عراق القرن العشرين، بعد تأسيس الدولة العراقية في آب من عام 1921 ومن الناحية التاريخية، لكنه الأكثر أهميةً من الناحية النوعية لما أثاره من تغييرات بنيوية مستقبلية طالت أبعاد المجتمع العراقي الاجتصادية والفكرية والسياسية والتعليمية قاطبةً، وأرست المجتمع على سكة الحداثة وطرق التطور؛

أما لماذا اخفقت في بناء نظام سياسي ديمقراطي؟

لو عدنا إلى الثورة لا بد من مرحلة انتقال لها، كي ترسي على أسس ديمقراطية. ولهذا قال الزعيم عبد الكريم قاسم، ما معناه انه سينشر مسودة الدستور ليناقشه الشعب بقواه السياسية والاجتماعية وذلك في يوم الخروج من حلف بغداد، أي 24/ 3/ 1963، وتعهد بأن الانتخابات ستجرى في 14 تموز 1963، ومما قاله "فإني أتعهد الآن علنا بأن لجنة من الخبراء ستشكل قبل نهاية شهر شباط هذا، لتكلف بإعداد مشروعين، دستور دائم وتشريع انتخابي جديد... وفي كل الأحوال، أتعهد علناً أمام الشعب بأن يكون عام 1963 هذا عام ولادة الجمعية الوطنية" (2). وسلمت نسخة من الدستور إلى ديوان وزارة الدفاع وكان هذا الدستور على مكتب الزعيم قاسم عندما ألقي القبض عليه ومن ثم قتله. ولذا أن حدوث الانقلاب الدموي في 8 شباط 1963 قد أوقف هذه الصيرورة الارتقائية البرلمانية.

كانت الائتلافات الجبهوية قد تكللت بنجاح في انتفاضة 1948، وبعدها من خلال انتخابات 1954 حيث انتخب 11 نائبا في مجلس النواب مما اشترط نوري السعيد على أن يحل المجلس. وأخيرا في جبهة الاتحاد الوطني المتكونة من اربعة أحزاب هي: الوطني الديمقراطي، والشيوعي العراقي، وحزب الاستقلال، والبعث العربي الاشتراكي. وفي الوقت نفسه وضع فيتو على قبول الحزب الديمقراطي الكردستاني في الجبهة من قبل حزبي الاستقلال والبعث. لكن للأسف لم يستمر هذا الائتلاف رغم ما بذله الحزبان الشيوعي والوطني الديمقراطي من مفاوضات لم تتكلل بالنجاح، لأن ميشيل عفلق حضر إلى بغداد، ضمن وفد الحركة الوطنية اللبنانية، بعد اسبوعين من قيام الثورة، ورفع شعار الوحدة الاندماجية الفورية مع الجمهورية العربية المتحدة، رغم اعتراضات رئيس الحزب آنذاك فؤاد الركابي وأغلب القيادة القطرية على

ذلك، واغلب الرموز القومية من امثال د. عبد الرحمن البزاز وصديق شنشل وغيرهما.

ولو عدنا للتاريخ السياسي لفترة بعد نجاح ثورة 14 تموز المقترن بالصعوبات الأمنية والتخوف من التدخل الخارجي، وعدم الاعتراف الدبلوماسي من قبل الدول، لأتضح لنا من المسؤول من خلال ذلك رفع الشعار الذي اقترحه ميشيل عفلق، وهنا تطرح عدة أسئلة:

- ما غائيته من رفع هذا الشعار غير المتوائم مع الماهيات الطبقية لثورة 14 تموز وللمجتمع العراقي المتعدد القوميات والاثنيات؛

- ولِمَ تم رفع شعار الوحدة والثورة لم تكتمل من حيث أمنها والحفاظ على ذاتها من التدخل الخارجي؛

- وما هي دوافعه التي لم تأخذ بنظر الاعتبار طبيعة الظروف الموضوعية والذاتية للمجتمع العراقي المتعدد القوميات والأديان؛

- ربما لأنه في الوزارة الأولى جاءت ممثلة للفئات العرقية والمذهبية الأساسية في العراق، العربية والكردية والشيعة والسنية، وهذا ما لم يرق إلى التوجهات الرأسمالية، أم مدفوعاً من قبلها؟

- وهل الدافع يكمن في أن ميشيل عفلق أراد بفرض شعار الوحدة الفورية، أن يبقي دوامة الصراع فيما بين التوجهات العراقوية وتلك العروبية، منذ بدء الثلاثينيات؟

- أم بسبب تناقض ميشيل عفلق مع الافكار التقدمية وبخاصة اليسارية، وهو المعروف بعدائه للأفكار الماركسية، ما قبل تأسيس حزب البعث، بعد أن رأى سيطرة القوى اليسارية على الشارع السياسي؟

- أم بسبب أهوائه الشخصية بغية احراج قيادة الثورة العراقية من قبل ميشيل عفلق، وبغية الصراع مع عبد الناصر الذي منع الحزبية في الجمهورية العربية المتحدة، حتى يخلو له كرئيس يتمتع بالسلطة المطلقة، ولما استولى حزب البعث على السلطة اصبح شعار الوحدة في خبر كان؟

ما هي أهداف الثورة؟

كان لأحداث فجر الرابع عشر من تموز، وقع هزّ العالم كله، فأثار الهلع في جانب، وأنعش الآمال في جانب آخر. ولو تصفحنا الأهداف المعلنة، ولهذا يُعد التغيير الجذري في يوم 14 تموز، أحد أهم معالم عراق القرن العشرين، ومن هذه الاهداف الاجتصادية والسياسية:

- الاصلاح الزراعي، وإلغاء قانون دعاوى العشائر؛

- اعتماد مبدأ التوجيه الاقتصادي وتحرير الاقتصاد من التبعية الاستعمارية؛

- اعتماد التصنيع قاعدة للتطور الاقتصادية وشموليته لجغرافية العراق؛

- الاستفادة من واقع جغرافية المكان الطبيعية والبشرية والسياسية وتوظيفها لمصلحة الشعب وعلى رأسها السياسة

النفطية، حيث إصدار قانون رقم 80 لسنة 1961، وتأسيس شركة النفط الوطنية في عام 1962، وانشاء منظمة أوبك؛

- ومن الأهداف الأرأسية التي سعى النظام إليها هي العدالة النسبية في توزيع الدخل القومي؛

- الانطلاق من أولوية مصالح العراق، ومن أولوية عراقية العراق بامتدادها الأرحب نحو الأمة العربية؛

- إعادة التوازن الاجتماعي للمجتمع بين مكوناته: الاجتماعية والدينية والمذهبية والقومية، والحد من الطائفية السياسية؛

- محاولات التخفيف من التطور المتفاوت بين المدينة والريف؛

- إن سعي الثورة لاستيعاب الحداثة والانفتاح كممارسة وصيرورة مستهدفة للاندماج العضوي في ماهية العصر؛

- تطوير الوعي الاجتماعي بماهياته وتجلياته السياسية والجمالية والفلسفية والحقوقية؛

- أصبحت المواهب قوة اجتماعية بفضل ما وفرت لها من شروط مادية ومعنوية لتطويرها الذاتي ونضوجها الاجتماعي؛

- التحقيق المادي لأسس الهوية الوطنية من خلال توحيد السوق الوطنية؛

- الممارسات الثقافية التي رفعت من المستويات التعليمية للطبقات للفقيرة؛

- والطفرة الثقافية في مختلف المجالات على عدة مستويات؛

- استكملت بناء مؤسسات الدولة وهيكلها وتسخيرها لخدمة ابناء الشعب بكل طبقاته وتعديلها بما يتلاءم مع التطور الاقتصادي؛

- الاعتراف الدستوري بحقوق الأكراد باعتبارهم شركاء في الوطن بموجب المادة 3 من الدستور المؤقت؛

- تحرير المرأة والطفل من خلال قانون الأحوال المدنية؛

- اضعاف الهيمنة الغربية على العراق وبخاصة البريطانية والخروج من الكتلة الاسترلينية؛

- الانفتاح على المعسكر الاشتراكي؛

- الغاء القوانين والمراسيم التي تخالف منطق الثورة وغائيتها.

وان التركة التي خلقتها ثورة 14 تموز أبانت عن وجهها الحقيقي الأرأس، وقد تمثلت في:

- امكانية قيام دولة غير طائفية؛

- سمحت بقدر كبير من الخميرة الثقافية والسياسية لكي تتجسد في مجتمع مدني؛

- سمح النظام بتكوين بيئة لحراك ثقافي جدير بالاعتبار؛

- تمثلت في الإصلاح الاجتماعي؛

- الحراك الثقافي والفكري؛

- وخلق كادر من المثقفين العضويين إلغاء فكرة العسكريين وحدهم.

ويعتبر العراق مرتكزاً رئيسياً في التفاعلات والصيرورات الاستراتيجية الغربية لعدة أسباب: لموقعه الجغرافي ووقوعه بين الشرق والغرب؛ وخطورة موقعه تكمن في تناقضات مصالح شعبه

والمشاريع الاستعمارية؛ وفي ثرواته البشرية والطبيعية وبخاصة الثروة النفطية.

بمعنى آخر لا يمكن الكشف عن مضامينها الحقيقية إلا بمعرفة درجة ترابطها وتجانسها مع ضرورات العلاقات الاجتماعية والأوضاع التاريخية المحسوسة والغائية الاجتماعية المستهدفة، بل لا بد من الأخذ بالحسبان: الضرورات الملموسة؛ والمصادفات المفاجئة؛ ودور الجماهير المستهدفة؛ وأدوار القادة وممارستهم في إدارة الصراع الطبقي؛ وتغيرات الزمن وتأثيراته على مسار تحقيق ذات الثورة وماهياته النظرية.

14 ومن أين تكتسب شرعية سلطة تموز؟

- من قبول للأغلبية الشعبية بالحكم؛
- ومن تبني مصالح هذه الأغلبية مقارنة بالقاعدة الاجتماعية بالحكم الملكي؛
- امكانية الغاء الفوارق الطبقية والتساوي أمام القانون.

أما ما متحقق من الأهداف ومن هذه الأرأسيات:

- التيه ميز مسار الثورة وهذا ناجم عن عدم انسجام الطبقة الوسطى بفئاتها المتعددة؛
- عدم سن الدستور الدائم وافتتاح الجمعية الوطنية؛
- عدم تكوين الكتلة التاريخية المفترضة، من الاحزاب السياسية والمثقفين العضويين.
- الثورة بنسفها بنية السلطة والتركيبة الطبقية قد أخلت بالتوازن الدقيق القائم آنذاك؛
- معرقلات أمام تطبيقات الإصلاح الزراعي؛
- هيمنة السلطة التنفيذية على باقي السلطات وهيمنة الزعيم قاسم على السلطة التنفيذية؛
- عدم قدرة قائد الثورة على أنه يمثل الكل؛
- عدم إرساء الحياة الحزبية على أسس صحيحة؛
- إرساء البنى المادية لتحقيق الهوية الوطنية صادفه بعض التلكؤ؛
- عدم استكمال المشاور بالنسبة لحل القضية الكردية بسبب تحالفاتها مع إعدائهم الأستراتيجيين.

هذه النواقص يجب النظر إليها على ضوء الانهماك الكبير بالصراع السياسي، الداخلي والخارجي فالمؤامرات المستمرة وسيل الدعاية المعادية من الإذاعات الخارجية تعكس تيارات عقائدية من جهات مختلفة، وتخلق جواً من عدم الثقة. وكثيرا ما تحول الاهتمام عن اعمال البناء والإعمار والتطوير الداخلي.

أما لماذا؟.. من هذه الأرأسيات:

- شيوع الانقلابية العسكرية المتبناة من التيار القومي بفصائله المتعددة؛
- التصارع بين النزعتين العراقوية والعروبوية وبتبني الحالة العنفية المتبادلة؛

- المؤامرات التي كانت تحاك في المراكز الرأسمالية وبصورة خاصة في واشنطن ولندن؛

- قانون رقم 80 وبصورة عامة السياسة النفطية ككل؛

- الحركة القومية للأكراد في تحقيق الحكم الذاتي والمنزع الاستعجالي الذي تميزت به؛

- اعتماد الثورة في تحقيق أهدافها الجديدة، الكثير من أدوات السلطة القديمة وبخاصة الأجهزة الأمنية والاستخبارات العسكرية؛

- لم تستوعب الثورة شمولية وعمق عملية التغير الاجتماعي؛

- على عظم المسؤولية من أهداف التي أخذت الثورة على تحقيقها؛

- تبني سياسة خارجية تنبع من مصالح العراق مما اوقعها في تناقض بين الهيمنة والتحرر.

ما هي الادوار المتباينة للأحزاب السياسية في دعم الثورة والصراعات التي نشبت بين تلك الاحزاب وجذورها الاجتماعية - الطبقية؟

كما بيننا، لعب الحزبان الاستقلال والبعث، دورا تخريبيا من خلال رفع شعار الوحدة الاندماجية الفورية، ولهذا تبنيا الحركات الانقلابية كوسيلة لتسلم السلطة. ولذا أن رفع شعار الوحدة الفورية كان خطأ استراتيجياً بدلا من الاتحاد الفيدرالي، بضغط من مشيل عفلق، كما اعتقد. ولو رجعنا إلى اللجنة العليا لحركة الضباط الأحرار التي ناقشت موضوع الوحدة وتوصلت الى نتيجة مشروطة مفادها: انه إذا تمت مهاجمة العراق من قبل دول أعضاء حلف بغداد أو أمريكا أو بريطانيا، تعلن الوحدة الفورية مع العربية المتحدة.

وايضا اللجنة العليا لجبهة الاتحاد الوطني التي سبق وان حددت ولم تذكر في بيان تأسيسها مشروع الوحدة الفورية الاندماجية، وبخاصة أن حزب البعث قد أيّد قبل ثلاثة أو أربعة أشهر من ثورة 14 تموز، قرار جبهة الاتحاد الوطني الداعي إلى الارتباط بالجمهورية العربية المتحدة باتحاد فيدرالي. فما الذي دفع بعد الثورة إلى الانقلاب على موقفه ويندفع إلى الإلحاح على الوحدة الفورية؟

هذا العامل المباشر إضافة إلى عوامل أخرى: تكمن في إدارة السلطة بصورة عامة؛ وعدم تلاحم أحزاب جبهة الاتحاد الوطني؛ وعمق الارتباط بالإستعمار الغربي. أما غير المباشر: فيكمن في الطبيعة الطبقية للسلطة المتكونة من الطبقة الوسطى بفئاتها المتعددة؛ وفشل جبهة الاتحاد الوطني في استيعاب الثورة وبخاصة حزبي البعث والاستقلال؛ تبني الفكرة الانقلابية من الأحزاب القومية؛ وصعوبات العمل على تحقيق السوق الموحدة والهوية الوطنية؛ وما رافق ذلك من تآمر من المركز الرأسمالية.

الثقافة الجديدة: من بين القضايا التي احتدم الصراع حولها بعد ثورة 14 تموز هي القضية الزراعية وضرورة تغيير

شكل الملكية الذي كان سائدا حين ذاك في الريف العراقي. وعند طرح قضية تغيير شكل الملكية في الريف عبر تطبيق الاصلاح الزراعي دارت معركة سياسية وفكرية عاصفة بين خطين متناقضين: خط يريد تطبيق اصلاح زراعي جذري (اجتثاث القاعدة المادية للإقطاع في الريف)، وخط يريد تطبيق اصلاح زراعي يقوم على تحديد سقف الملكية وتعويض مالكي الاراضي من الاقطاعيين؟

وبعبارة اكثر تبسيطاً يمكن القول إن جوهر الصراع، في حقل المسألة الزراعية بعد ثورة 14 تموز 1958، كان يدور حول سؤال حاسم قوامه: أي إصلاح زراعي يحتاجه الريف العراقي آنذاك؟

نطمح الى مزيد من التعمق في هذه النقطة.

د.عقيل الناصري: في الحقيقة يلعب الاصلاح الزراعي الجوهر في كل ثورة وطنية تحررية، ويستهدف تغيير العلاقات الانتاجية في الريف. وهذا ما نص عليه قانون الاصلاح الزراعي، ويرمز للعدالة الاجتماعية وارتباطاتها المحورية.

اما اهداف الاصلاح الزراعي فتتجلى بـ: القضاء على الملكية الاقطاعية؛ اقامة نظام تعاوني على أساس الملكية الخاصة والصغيرة؛ السماح بإقامة قطاع خاص متوسط على أن يوجه من قبل الدولة لمنع ابتلاعه للقطاع التعاوني؛ والهدف الأخير هو انشاء قطاع دولة. وهذا مقترن بزيادة وتجديد قوى الانتاج في الزراعة وتعميم المكننة واستخدام الاسمدة الكيماوية.

وعيوب الإصلاح الزراعي: بعضها بسبب القانون ذاته، وبعضها الآخر متعلق بالوضع السياسي وتناقضاته التناحرية ومدى انعكاساتها في أجهزة ومؤسسات الدولة. ولهذا انقسمت القوى والأحزاب السياسية في النظر إلى القانون، فسيطرت القوى اليسارية على مديرية الاستيلاء، وقد شمل على أكثر من 1147 ملاكا، يملكون حوالي 7,5 مليون دونم، أي حوالي ثلثي المساحة المؤمل خضوعها للاستيلاء. وبالعكس سيطرت القوى اليمينية على مديرية التوزيع، وتلك تريد ابطاءً في إنهاء الاقطاع. وانعكس هذا الصراع على الاقطاعيين وبعض الأوساط من البرجوازية العقارية حيث قاوموا الاصلاح الزراعي. وهذا ما اخل بالإصلاح الزراعي ذاته، ورافقه بمستويات متعددة: عدم الاستقرار السياسي، وتلكؤ الوحدة الوطنية، وولاء بعض الأجهزة التنفيذية في المرحلة الملكية، والمسؤولية الجماعية من قبل أحزاب جبهة الاتحاد الوطني إزاء الثورة، وتدخل الزعيم قاسم في تعديل بعض بنود القانون.

وانقسمت رؤية المفكرين الاقتصاديين بين: خط يريد تطبيق اصلاح زراعي جذري (اجتثاث القاعدة المادية للإقطاع في الريف)، هذا الرأي ينطلق من الرؤية الاشتراكية بنموذجها الصيني، ولهذا لا بد من توفير شروط منها: جهاز تنفيذي قوي وولاؤه لسلطة الدولة، وهذا لم

يتوفر بسبب انقسامه للأحزاب؛ وبسبب تخلف البنية الفنية للقطاع الزراعي؛ ولسياسة العلاقات القبلية القريبة من الأبوية؛ والعصبوية بين العشائر وسيادة القيم المعرقلة للانتاج؛ ولطبيعة الفترة الانتقالية المقترنة بالإضطراب والتخلخل الاجتماعيين؛ وغيرها من المسببات.

وخط يريد تطبيق اصلاح زراعي يقوم على تحديد سقف الملكية وتعويض مالكي الاراضي من الاقطاعيين.. ولكن التعويض فيه إجحاف وتجني على الفلاح ويدفعه من كدحه، على هذه الملكية القانونية للعشيرة قبيل تشكل النظام شبه الاقطاعي، وأيضا تحديد سقف للملكية للإقطاعيين فيه شيء من الإجحاف، بمعنى 120 دونما للفلاح، و2000 دونم للاقطاعي في الأراضي المطرية مقابل النصف في الأراضي السيحية، وهذا يزيد اكثر من 15 مرة، وهذه قسمة ضيزى.

وأعتقد أن كلا الخطين خاطئ، لأنهما لا يأخذان بطبيعة الظروف المادية التي تتوطن بالريف، من عشائرية وابوية. ويجب الأخذ بنظر الاعتبار الطبيعة الطبقية لثورة 14 تموز، وهي ذات نظرة إصلاحية وتسيطر عليها الطبقة الوسطى بفئاتها المتعددة؛ ثم أن الزعيم قاسم صاحب النظرة الوسطية ويرى في ذاته تمثيلا للكل؛ وتخلف علاقات الانتاج الاجتماعية بصورة عامة، بخاصة في الانتاج الزراعي؛ وعدم وجود الأسس الموضوعية والذاتية لكلا الحلّيَن. وأميل الى الخط الثاني من بعض التعديلات بشأن الملكية والتعويضات، لأنه يتناسب والنظرة الطبقية لطبيعة السلطة الطبقية، وبما ساد العراق من العنف المتبادل بين الاحزاب رفاق الأمس، واضطرابات تهدد الاسس الاجتماعية والسلام الأمني في الريف والمدن. ولم يكتف الاقطاعيون بمقاومة الاصلاح الزراعي سلميا بل اقرنوها بالقتل المتعمد.

الثقافة الجديدة: إن دروس ثورة 14 تموز 1958 غزيرة سواء في اندلاعها وتطورها وأيضا في انتكاسها. ومن بين كل دروس الثورة ثمة درس مهم هو ان هذه الثورة انتصرت لأنها اعتمدت على وحدة القوى الوطنية والديمقراطية التي ناهضت الحكم الملكي، وناصرت الثورة وساهمت في اندلاعها ونهوضها.. في حين كان من بين عوامل انتكاستها هو الصراعات التي نشبت بين هذه القوى حيث عجز العديد منها عن فهم طبيعة المرحلة التي دشنتها الثورة وترتيبها – أي تلك القوى- ترتيبا خاطئا للتناقضات بتغليب الثانوي منها على الرئيسي. علما ان النزعات الدكتاتورية لبعض قادة الثورة، وخصوصا قائدها الزعيم عبد الكريم قاسم، وعدم رهانهم على الجماهير الشعبية وترددهم كان من بين العوامل التي ادت الى انتكاستها، وتتويج ذلك بثورة الردة الفاشية في الثامن من شباط 1963. هل يمكنكم ان تقدموا لنا ولقراء المجلة قراءة مكثفة لدور الزعيم عبد الكريم قاسم في انجاح ثورة تموز، وفي انتكاسها ايضا.

د.عقيل الناصري: أنا لا اتفق عندما تصنف عبد الكريم قاسم بصفة نُوازع (دكتاتور)، لأن هذا الوصف يبعدنا على حقيقة وضع الزعيم قاسم، وافضل وصف الذي يتصف به (السلطة الأبوية وعبادة الشخصية) لأن هكذا كان المجتمع العراقي في القرون السابقة. كان الزعيم قاسم يرى في ذاته تمثيل الكل وهذه إحدى دعائم الطوباوية. ولهذا الوصف الدكتاتور مميزات نلخصها بـ: الدكتاتور يصل الى السلطة بطريق غير مشروع، فقد يغتصب الحكم بالمؤامرات أو القهر؛ ولا يعترف بقانون أو دستور بل تصبح ارادته هي القانون؛ يسخر كل موارد البلاد لإشباع رغباته الحسية والمادية؛ ولا يخضع للمساءلة ولا المحاسبة؛ ويقترب من التأله فهو يرهب الناس ويذلهم بالقهر والقوة. وهذا ما لا ينطبق على الزعيم قاسم، وينطبق على الدكتاتور الأول في تاريخ العراق المعاصر صدام حسين.

وان دور الزعيم قاسم في ثورة 14 تموز، كان هو المخطط للثورة، والمنفذ كان عبد السلام عارف، واختار الوزراء من بين مكونات المجتمع العراقي، تتجلى فيها الأبعاد القومية والمذهبية، وليلة 14/13 كان هناك تمرين ليلي أخرج اللواء التاسع عشر وسار به الى بعقوبة، وهذا لم يكن مصادفة وانما مخطط له.

وان الدراسات التي كتبت عن دور الزعيم متوفرة بما فيه الكافية، ولكن أنا اريد أن أسطر المزايا التي انفرد فيها الزعيم قاسم وأقول: له إيجابيات وسلبيات كأي فرد حاكم، ولو عدنا إلى إيجابياته في إدارته الصراع السياسي بين الفئات الاجتماعية في الوسط المتزاحم بالتناقضات المصلحية والايدولوجية/ الفكرية، وبين كتل الضباط الأحرار والأحزاب السياسية وما إلى ذلك. وهذا الموقف والدور مستنبط من:

- دوره في تأسيس اللحظة التاريخية الخاصة بتطور العراق والسير به على طريق الحداثة وبصورة خاصة ما رسمه البيان الأول؛
- فرضته عملية الصراع الاجتماعي ليلعب الدور الحيوي النشيط بين الطبقات؛
- تراجع الهويات الفرعية عن مكانتها، ولتسمح لمكانة الهوية الوطنية التي ازدهرت؛
- والمنجز المتحقق لصيرورات التقدم الاجتصادي والسياسي والفكرية؛
- تبني مطالب الاغلبية الشعبية من الفقراء وذوي الدخل المحدود؛
- والربط الجدلي والعملي بين النزعتين الوطنية (العراقوية) والقومية (العروبية)؛
- وإبدال التغيير الجذري لفلسفة الحياة وغائيتها وقد ضعت المجتمع على طريق التطور والحداثة، وذلك باستبدال الطبقات المتضررة من الثورة، بالطبقة الوسطى بفئاتها المتعددة؛
- كانت الإصلاحات الاجتماعية والاقتصادية التي جاء بها نظام 14 تموز مهمة أخلاقية في جوهرها، والتي أحدثت تأثيرات نوعية فاقت كل التغييرات الجوهرية للعراق المعاصر؛
- احترامه لاستقلالية القضاء، ولم يتدخل في اعمال القضاء. وللعلم كانت تصدر الاحكام باسم الملك، اما بعد الثورة فحلت كلمة الشعب محل الملك لتنسجم مع

مبادئ الدستور المؤقت وجملة التشريعات التي سنتها حكومة الثورة؛

- أنقذ نظام 14 تموز على الأقل العراق من أن يكون سالبة في أيدي القوى الخارجية بخاصة الرأسمالية ومركزها وبالأخص بريطانيا والولايات المتحدة.

- وخلص البلد من الاحلاف العسكرية، من خلال تبنيه سياسة الحياد الايجابي؛

- (كان رجل الوسطية في عصر التطرفات، وبذا كان سابقا لزمانه. جاء ورحل قبل الاوان .. هذه تراجيديا شكسبيرية فريدة)، كما قال الأكاديمي الراحل د.فالح عبد الجبار؛

واستنتاجنا الأرأس المستنبط من ماهيات هذا التغيير الجذري/ الثورة، فقد سبق وان تمخض عنه اصطفاف طبقي وجملة من الغائيات والمصالح الاجتصادية والسياسية والفكرية، التي تحقق منها الكثير في الواقع العراقي، رغم قصرها الزمني. وانقسم المجتمع بين مؤيد لها أو معارض، بحيث طردت طبقات وفئات اجتماعية كل من: العوائل الملكية؛ طبقة الاقطاع؛ وفئة الكمبرادور؛ والنخب السياسية الأولغاركية؛ والضابط الشريفيين.

وكما قلنا سابقاً، لا بد من أخذ الطبيعة الطبقية لسلطة 14 تموز، وعدم اعتمادها على الجماهير الشعبية، لأنها {حكم لهم ولم تحكم بهم}، وفي ذات الوقت لعبت الجماهير دورا مسانداً في نجاح الثورة، ولولا هذه الجماهير الشعبية المساندة للثورة، بحيث احبطت التدخل الخارجي موقف عبد الناصر وتأييد الاتحاد السوفيتي. ولهذا ارسل رسول الثورة رشيد مطلك ليُخبر الحزبين الشيوعي والوطني الديمقراطي فقط، أنه في يوم 14 تموز موعد الثورة لتخرج الجماهير المساندة. ومن هنا عرف الحزبان الاستقلال والبعث المشاركان في جبهة الاتحاد الوطني.

وغالبا ما تتشظى الجماهير الشعبية (البروليتارية الرثة) المساندة للثورة في أكثر الثورات الجذرية، ويعود سبب ذلك إلى الظروف الموضوعية والذاتية لما لعبه شعار الوحدة الفورية. ولهذا فقد أخذت: الأحداث الواقعية والصراع غير المبرر لرفاق الأمس القريب، موضوعيا من تموز ونهجه؛ وبروز التأثيرات السلبية على الحركة الكردية؛ والتخفيض المتعمد لإنتاج النفط والاسعار؛ وكثرة المحاولات الانقلابية بالتعاون مع المراكز الرأسمالية؛ وغيرها من العوامل، التي يقف على رأسها تدخل الزعيم قاسم في كل صغيرة وكبيرة، مما أخذت دورها في احتواء قائد الثورة، ما ادى به إلى ممارسة غير مخطط لها، قدر كونها كانت تعبر عن مضامين ردود الافعال.

وهذا بالضبط ما قام به بشأن الجماهير الشعبية ودورها من شطط، والسيطرة على الشارع السياسي وأخذت تلعب لعبتها المفضلة الكامنة في إجراء تطبيق العقوبات بنفسها. بالإضافة إلى كتابة التقرير من مديرية الأمن العامة والاستخبارات العسكرية وتخويفه من بعبع الحزب الشيوعي. وهذه الظروف أفرغت الثورة من ذاتيتها إلى حد ما.

الثقافة الجديدة: حول النشاط الامبريالي ضد الثورة، هناك الكثير من الباحثين الجادين من يرى ان من بين اسباب

انتكاسة ثورة تموز، كان النشاط الامبريالي المحموم الذي لعب دورا مهما في عرقلة الثورة والوصول الى غاياتها المنشودة في تحرير العراق من الهيمنة السياسية والاقتصادية الأجنبية. هل يمكنكم – ولو بتكثيف – تحديد ابرز محاور واشكال هذا النشاط بالفعل، وهل كانت قيادة الثورة في مستوى هذا التحدي؟

د.عقيل الناصري: من خلال استقرائنا لتاريخ 14 تموز، وأتفق مع آراء الباحثين المطلعين أن هناك مسارات، حاولت التدخل لكبح جماح الثورة:

- مسار التدخل المباشر ولما فشل في يوم الثورة بفضل التفاف الجماهير تحول:
- إلى مسار سياسة الاحتواء ولما فشل تحول إلى المسار الثالث:
- مسار التغيير بالقوة (انقلاب عسكري أو/ والاغتيال).

ولعبت الجماهير المحتشدة أمام وزارة الدفاع في يوم الانقلاب المشؤوم في التصدي لوقائع الانقلاب وهم يطالبون بالسلاح دفاعا عن ثورة 14 تموز، إلا أن الزعيم قاسم أبى أن يسلموهم السلاح، وهذه الخطيئة الكبرى للزعيم. بالإضافة إلى أخطائه الأصغر في إدارته للصراع السياسي في المجتمع.

رأت وكالة الاستخبارات المركزية الامريكية (C.I.A)، على إمتداد من اندنوسيا الى المغرب العربي، في كل زعيم مسلم لا يتعهد بالولاء للولايات المتحدة، هدفا مشروعا للعمل ضده. بمعنى آخر تكاثفت في الظاهرة السياسية للحكم الجديد صيرورة متكونة من ستة أبعاد، اعتبرت من محرمات السياسة الدولية على وفق المنطق الإمبريالي أثناء الحرب الباردة، وهي:

- حكم وطني مستقل في توجهاته، ذو نزعة اجتماعية إصلاحية تقدمية لمصلحة قاعدة اجتماعية واسعة؛
- سياسة نفطية مستقلة عن الاحتكار العالمي؛
- سياسة عربية ذات منطق تحرري لواقع انتمائه القومي؛
- سياسة خارجية بعيدة عن التكتلات والأحلاف الغربية وتبني مفهوم الحياد الايجابي؛
- القضاء على الحركات اليسارية وبخاصة الحزب الشيوعي وتصفية جماهيريته؛
- تدمير الأسلحة السوفيتية المتطورة كفكر عسكري، وإبعاد الاتحاد السوفيتي عن منطقة الشرق الأوسط.

ولا بد من الاشارة الى ان سلطة تموز النيرة تعرضت إلى 39 محاولة انقلاب، أي بمعدل محاولة كل 43 يوما، آخرها كان انقلاب 8 شباط 1963 المشؤوم. عند قيام ثورة الرابع عشر من تموز 1958 استنفر الاستعمار كل قواه واستعان بقوات الليفي وبالعملاء والمتآمرين وطلاب المصالح للإطاحة بالثورة وبمنجزاتها، وكل المشاكل التي يصادفها المجتمع العراقي تعود إلى جذور الانقلاب المشؤوم للحركات الانقلابية الأولى، عندما قام العقيد عبد السلام عارف بمحاولة إغتيال الزعيم عبد الكريم قاسم، واشراك حكم عبد الناصر في المؤامرة الأخيرة.

علما بأن علي صالح السعدي لخصها

عندما قال: جئنا بقطار أمريكي، وهذه العبارة تفسر العلاقات المشبوهة في حزب البعث من خلال أساطين البعث: وعلى رأسهم صالح مهدي عماش وأحمد حسن البكر ورشيد مصلح وحردان التكريتي وغيرهم من صغار الضباط وبخاصة في المؤسسة الأمنية. فقبل هذه الانتكاسة كان تسلم المسؤولية يعتمد، بشكل عام، على الكفاءة وليس العضلات، حيث استوزر الاقتصادي محمد حديد لوزارة المالية، والاستاذ إبراهيم كبه لوزارة الاقتصاد، ود. طلعت الشيباني للتخطيط، ود. نزيهة الدليمي للبلديات. ولكن بعد الردة أوكلت المسؤولية للأميين ورجال العنف المختصين الذين لم يمر إلاّ أشهر على انقلابهم حتى بدأوا "يتحاورون" بالمدافع والطيارات والقذائف لينهار حكمهم بعد حين، وليكشف حليفهم عارف جزءاً من جرائمهم في "الكتاب الأسود"، وآخر كتاب "المنحرفون".

إنّ الدور الذي قامت به السفارتان البريطانية والأمريكية بالتهيئة للانقلاب عام 1963، هو أنه (أهم اتصال أجرته السفارة البريطانية ببغداد مع البكر وعماش في الرابع والعشرين من كانون الثاني 1963، ابلغتهما فيه، أن بعض الكتل القومية وبالاتفاق مع حركة القوميين العرب سوف ينفذون عملية الاطاحة بالنظام في الاسبوع الأخير من شباط 1963. وبالاستناد إلى الوثائق نفسها ذكر بأن حزب البعث سارع إلى انتداب أعضاء من المكتب العسكري هم: صالح مهدي عماش وعلي صالح السعدي وعدنان القصاب ببحث المستجدات الأخيرة مع السفارة البريطانية لوضع خطة محكمة للانقلاب، لعلها آخر خطة تم الاتفاق عليها. وقد تم اللقاء بمبنى السفارة البريطانية مساء يوم السابع والعشرين من كانون الثاني 1963. حيث وضع هورد .هـ. أستفين أحد موظفي السفارة البريطانية خطة وموعدا لتنفيذ الإنقلاب، وأشار عليهم بضرورة اعداد الجناح المدني لحزب البعث وتجهيزه بالأسلحة الرشاشة من نوع بور سعيد المصرية الصنع ونزولهم إلى شوارع المدن الرئيسة حال سماعهم البيان الأول للانقلاب من اذاعة بغداد. وفي الشأن نفسه، ذكر أن البكر طلب من عماش في الثلاثين من كانون الثاني، الاتصال بالسفارة البريطانية لتحديد موعد له لغرض مناقشة تفاصيل الخطة (3).

وبصورة مكثفة لعب المحور الأنكلو/ امريكي في التآمر على ثورة 14 تموز دورا خطيرا، تتضح أهميته من الأدوار التي لعبها الحزبان: البعث والاستقلال من خلال تخريب أسس جبهة الإتحاد الوطني. أمسى انقلاب 8 شباط 1963 واحداً من أكبر النكسات في تأريخ العراق المعاصر: فالإنقلاب بالمعيار الأخلاقي سبة تأريخية وإنتهاك للذات العراقية الجمعية والفردية؛ وبمعيار التطور ارتداد وانتكاسة إلى الوراء؛ وبالمعيار السياسي العودة إلى التسلطية المتمذهبة؛ وبالمعيار الجمالي هو القبح بذاته؛ وبالمعيار البنائي هو التهديم والانحطاط؛ وبالمعيار الاجتماعي هو تفكيك للبنية الاجتماثقافية؛ وبالمعيار التوحيدي هو الانغلاق على الحزب الواحد دون بقية الأحزاب.

ساهمت في الانقلاب المشؤوم كل من

القوى والاحزاب السياسية: حزب البعث، والحركات القومية من أمثال حركة القوميين العرب، وحزب الاستقلال، الرابطة القومية وغيرها، والحركة الكردية، والمؤسسة الدينية (الشيعية) والحركات الاسلامية السنية، وبقايا الاقطاع، وبقايا العهد الملكي، وعوائل الضباط الشريفيين وغيرها.

بصورة عامة، نخلص الى ان التغيير الجذري/ ثورة 14 تموز قد نقل الاوضاع الاجتصادية والفكرية والسياسية من مرحلة إلى اخرى أكثر ملاءمة للعصر الحديث، ووضعت الثورة العراق على سكة الحداثة والتطور. ومن الناحية العددية فأغلبية سكان العراق هم من المؤيدين للتوجه العراقوي القائم على الهوية الوطنية الموحدة، سواء كانوا من القومية العربية والكردية والتركمانية وباقي الاثنيات؛ ومن الأديان المسلمة والمسيحية والصابئة المندائيين والأيزيديين.

الهوامش:

1- عامر عبد الله، خواطر وذكريات، بمناسبة الذكرى 25 لثورة تموز المجيدة، (الثقافة الجديدة)، العدد 144، تموز 1983. كان ضمنها: الخروج من حلف بغداد؛ إجلاء القوات البريطانية؛ إلغاء اتفاقية الأمن المتبادل مع الولايات المتحدة؛ وبالتالي تصفية جميع الارتباطات والمواقع الاستعمارية؛ كما تضمنت ضرورة استئناف العلاقات الدبلوماسية مع الاتحاد السوفيتي؛ وتوثيق التضامن مع مصر وسورية ودعم القضية الفلسطينية وثورة الجزائر.. الخ. وبالطبع جرى التأكيد في المطاليب على إطلاق سراح السجناء؛ وطائفة من المطاليب المتعلقة بتوزيع الأراضي على الفلاحين؛ وتلبية حقوق العمال ومكافحة البطالة؛ وحل مجلس الاعمار؛ وانتهاج سياسة وطنية مستقلة معادية للاستعمار.. كنا نؤكد على حق التنظيم السياسي والنقابي، وعلى شرعية الحزب الشيوعي والاحزاب الوطنية الأخرى".

2- آخر مقابلة صحفية مع مراسل اللموند الفرنسية، تجدها في كتابنا، ثورة 14 تموز وعبد الكريم قاسم في بصائر الآخرين (دمشق: دار الحصاد، 2012).

3- د. طارق العقيلي، بريطانيا ولعبة السلطة في العراق، التيار القومي والطائفية السياسية (بغداد: دار مرتضى، 2010)، ص 81.

سيرة ذاتية مختصرة للدكتور عقيل الناصري:

*** خريج كلية الاقتصاد والعلوم السياسية/ جامعة بغداد في العام الدراسي 1966 - 1967.**

*** خريج معهد بليخانوف بموسكو في عام 1978 - 1979، فرع اقتصاد العمل.**

*** عمل بالجزائر/ جامعة وهران خلال الأعوام 1979 - 1987.**

*** كاتب وباحث اكاديمي. ولديه أكثر من ثلاثمائة بحث منشور، ومحاضر في الكثير من النوادي الاجتماعية والعلمية.**

*** مختص بثورة 14 تموز وحياة عبد الكريم قاسم. وأصدر ما ينوف عن 18 كتاباً بهذا الخصوص. ولديه تحت الطبع كتابان: الأهمية التاريخية لثورة 14 تموز، ودور دول الجوار في تغييبها؛ دور المؤسسة الأمنية في اسقاط ثورة 14 تموز من خلال تقاريرها الرسمية.**

أدب
و
فن

تموز.. إرث وطن

حسب الله يحيى

للأوطان إرثها وجذرها وأفقها كذلك..
ولا يمكن لأي وطن ان يفتح ابواب المستقبل، من دون ان يكون له جذر اصيل في وعي الناس وإرادتهم الحية.
من هنا كانت ثورة 14 تموز 1958 الانموذج الاهم في وعي العراقيين في ماضيهم التليد ومستقبلهم المنشود.
صحيح ان تلك الثورة الوطنية الباسلة، كانت نتيجة طبيعية لسلسلة من الانتفاضات التي قادها شعبنا ضد الظلم والطغيان.
وصحيح ان قيادة الزعيم الراحل عبد الكريم قاسم قد حفرت هويتها الوطنية عميقا في ضمائر العراقيين، بحيث لم يتمكن حتى خصوم هذا الزعيم الوطني الحميم من تلويث تلك الهوية النقية؛ إلا أن خصوم هذا الامتداد الوطني الثوري هو الذي جعل غلاة الرجعية يمارسون دورهم التخريبي في وأد تلك الثورة الباسلة، ومن ثم حكم العراق بقبضة دكتاتورية تفردت بالسلطة وقادت البلاد الى سلسلة من الحروب التي ادت بدورها الى هذا الخراب وهذه الفوضى والازمات التي نشهدها في عراق اليوم، وعلى الاصعدة كافة ..
وهو الامر الذي قابله شعبنا بانتفاضة آذار 1991 التي ما ان تخفت قليلا حتى تشتعل نيرانها من جديد وذلك بسبب تمادي السلطة في سلسلة من الاجراءات التعسفية التي ألحقت الضرر بالبلاد والعباد، وحولت العراق الى وطن تسوده الأمية والجريمة والجهل والمرض والبطالة والفاقة الى جانب فقدان الامن وغياب العدالة وتفشي الظلم وتبوء اليمين المتطرف الذي لا خبرة له في ادارة الدولة وتسيير مقاليد الامور جميعا، ما جعل البلاد تعيش واقعا مرّا ومستقبلا مجهولا مثقلا بالديون والفساد العارم من دون ايجاد اية حلول موضوعية لما يجري من سلبيات.
إنّ انتفاضة تشرين وهي تتجدد في بغداد والمحافظات، ما هي إلا ردود افعال طبيعية لمعاناة الشعب العراقي الذي تتلاعب بمقدراته قوى خارجية وعناصر سلبية، لا يحكمها سوى المنافع والاطماع الذاتية.
إن هذه الانتفاضة التي جددت نضالها الباسل على نطاق واسع، هي ذاتها الانتفاضات والثورات الذي قادها شعبنا واحزابه المدنية الوطنية التي اوقدت بهاء 14 تموز 1958، وهي ذاتها التي ستأتي أوكلها في نهاية الامر، ذلك ان ارادة الشعب هي التي تقوى على كل قوى الظلم والتعسف والعدوان وهي القادرة على ان تتخذ من ثورة تموز المنار الوطني الذي سيعيد ارادة الوطن الحر والشعب السعيد والعدالة الاجتماعية والرفاه الاقتصادي والحياة الامنة.. وهذا ما ينشده ويسعى إليه كل وطني غيور.

خطاب المقابر الجماعية

قاسم عبد الأمير عجام

باعتزاز بالغ واحتفاء كبير، يهمنا نشر هذا المقال النادر وغير المنشور من قبل للناقد والمفكر الشهيد: قاسم عبد الأمير عجام، الذي استشهد اغتيالاً في 17/ 5/ 2004، وكان يشغل منصب مدير عام دار الشؤون الثقافية العامة في وزارة الثقافة.

وإذ ننشر المقال باعتزاز، لا بدّ ان نقدم الشكر والامتنان للباحث والمفكر الأستاذ ناجح المعموري رئيس اتحاد الادباء والكتاب في العراق، لتفضله بتزويدنا بهذه الحروف النيّرة بوصفها احد مقتنياته الخاصة، التي كان الشهيد عجام قد أودعها عنده وائتمنه عليها.

أدب وفن

الخطاب، أياً كان من يوجهه ولأي كان التوجيه، وأياً كان الهدف منه، يبقى مؤشراً لحياة او صوتاً لها، بل وحتى تعبيراً عن الرغبة في التأثير في الحياة باتجاه ذلك الهدف.

هذه الحقيقة تؤشر مفارقة ذات مغزى في الخطاب الذي نحن بصدده، وهي مفارقة لا تعني الغرابة بقدر ما تنتمي لجوهر هذا الخطاب. فالبث هنا لا يأتي من كائن حي.. بل من بؤرة للموت! وليست بؤرة موت اعتيادي! الخطاب الذي نحن بصدده تبثه مقبرة او مقابر جماعية كدست فيها الجثث على بعضها، بينما تحتفظ المقابر الاعتيادية بصمتها الخاص، ولها هيبتها الخاصة.

وفي كل تأمل لأية مقبرة في العالم، مهما صغرت او اتسعت، لن يزيد معناها عما تحمله من دعوة او حفز للاعتبار بحتمية الموت، وما في تلك الحتمية من عبر يختلف وزنها وتأثيرها او اتجاهها باختلاف من يتأمل في تلك المقابر او في حتمية الموت بوصفها المحصلة المهيمنة لامتداد تلك المقابر حيث المصير الاعتيادي لمن ينهي الموت شوطه الحياتي.

لكننا، كما قلت، هنا إزاء مفارقة صارخة حين تقف عند المقابر الجماعية التي ضمت رفات العراقيين، الذين قتلهم الطغيان البعثي والتي ما تزال تكتشف هنا وهناك من ارض العراق.. فهذه المقابر تبث خطاباً مختلفاً لا يحيل الى

عبرة الموت وحتميته، بل يثير قضايا هي في الصميم من الحياة الإنسانية، والحياة المعاصرة بالذات!

لماذا.. وكيف؟

اول أسباب ذلك انها بالأساس ليست مقابر انتهت اليها الأجساد بعد نهاية شوطها الحياتي – طال ام قصر – بقدر ما هي حواجز قطعت الحياة عنوة او موانع أوقفت مشاريع حياة كانت في فورة انفعالها بمجتمعها او انشغالها بآمالها، فصارت شواهد لعملية القطع الدامية تلك محتشدة، طيلة صمتها، بخطاب الحقائق والآمال والمشروعات والانفعالات التي دفنت في رؤوس أصحابها وصدورهم قبل أن تدفن هذه في التراب.

ولأن تلك الآمال والرغبات ومشروعات الحياة متصلة بمن حولها: أهل، أصدقاء، أصحاب علاقة عملية – او حتى أعداء – فإن قطعها بالشكل الذي قطعت فيه لم يلغ تلك الصلة وانما نقلها من مستوى الاعتياد وهدوئه الى مستوى الاستغراب او الصدمة بكل ما فيهما من ضجيج الأسئلة والهواجس وحرقة البحث والتقصي.

بل ان هذا الضجيج الذي كان مكبوتاً، كان اول مستويات الخطاب الذي استمرت عملية قطع الحياة تبثه من مراكزها المجهولة على موجات الحيرة او التساؤلات الحائرة! وهو المستوى الذي يمكننا اعتباره اليوم المستوى الابتدائي الذي كان يمهد او يكتب السطور الاولى في خطاب اليوم بعد ان تكشفت مراكز اغتيال الحياة، فتوقف سؤال الـ (اين) عند هذه المقبرة الجماعية او تلك، فتوقفت أسئلة (كيف)، و (لماذا) عند الجواب بوحشية القتلة ودموية شهوة التسلط والاستبداد، لتبدأ أسئلة جديدة، وتنهض استحقاقات جديدة ومتطلبات جديدة تشمل الشهود جميعاً.

بذلك وجدنا انفسنا في هدير الخطاب الذي غادر مستواه الابتدائي حيث صمت الكبت وهمس القمع الى مستوى الدلالات المعلنة وضجة المعنى، وغضب الأسئلة الجديدة ولغة الاتهام وثقتها.

إذن، فإن خطاب هذه المقابر الجماعية – التي ما تزال تزداد عدداً – خطاب حياة. لأنها كانت قطعاً دموياً لحياة كانت قيد التحقق ولم تكن محطات انتهت اليها رحلة حياة او اشخاص لم يبق لها سوى عبرة الموت، فلنستمع لمفردات من ذلك الخطاب.

من أولى مفردات ذلك الخطاب ان هذه المقابر التي اكتشفها او كشفها هذا المواطن او ذاك ممن كان يعلم بها، لكن الخوف كان يشل لسانه.. أولى مفردات الخطاب اجابتنا عن سؤال مأساوي دمر عوائل كاملة، او ألقى بها في عتمة مخاوف وتساؤلات او ورثتها كآبة مقيمة.. سؤال: أين ذهب ابناؤنا؟ اين ذهبت بناتنا؟ اخوتنا، امهاتنا.. آباؤنا؟ اين؟ شباب يختفون كهول، أطفال بمن فيهم أطفال رضع، نساء، صبايا.. اين ذهبوا؟ وكيف اتفق ان يختفي الاصحاء والمعاقون؟ لكنهم اختفوا وكأنهم لم يكونوا! فأين ذهبوا؟!

هذه المقابر اجابتنا دونما مجاملة او تملق مشاعر.. لقد قتلوا، نعم، دفنوا جميعاً. احياء او بعد القتل دونما صلاة جنازة..

دونما قبر خاص.. وما كان يفرق بينهم في العمر أو الجنس لحظة وجودهم في ساحة القتل، تلاشى بعد ان جمعتهم حفرة واحدة.. أكلتهم جمعاً فكانت بهم مقبرة جماعية!

أين ذهبوا؟ لقد قتلوهم. هكذا تجيب المقبرة الجماعية وتنفتح، إذ تبوح بخفاياها على آليتين مدمرتين، كانتا تعملان معاً بالتوازي والتوالي في آن واحد بهدف واحد، هو تدمير الانسان في العراق.

الآلية الأولى هي إخفاء الناس، إخفاء المصائر. الآلية الثانية التصفية الجسدية بشقيها.. القتل ودفن الاحياء. آلية الاخفاء كانت هي الآلية الأساس بالنسبة لسلطة القتلة. فهي المعول عليها في:

1 - نشر الرعب العام في صفوف الناس.. رعب من يد خفية تشطب الوجود الإنساني، وكأنه لم يكن. رعب من مصير مجهول قد يلفك في أية لحظة فيلحقك بمن اختفوا!

2 - تعظيم هيمنة السلطة واظهارها بمظهر قدر خرافي لا رادّ له.. وسلطة تنفي أي علم لها باختفاء من اختفوا فتعيد الناس الى حيرة اعمق ويعمقها الرعب المتزايد مع كل فرد يختفي، فتجدد السلطة نفيها ان تعلم شيئاً عنه، وتجدد نفيها بأوراق رسمية ترسلها هذه الجهة تستفسر من تلك عن هؤلاء او أولئك!

وفي ذلك ادامة للرعب وتعميق الهيمنة.. فالرعب يتحول من مجرد الشك بالسلطة الى الإحساس بطغيان هيمنتها ورعب جرأتها والضحك على الضحايا اهل المحنة.

3 - ادامة الاخفاء: ادامة لعملية تعذيب لمن هم خارج مخالب السلطة المباشرة – او الذين لم يختفوا بعد – وإقامة شرطة قاسية داخل كل صدر وكل عقل، تعمق بدورها الرعب من السلطة ونشر الشك بكل شيء وبكل الناس. بأقربهم، الشك بالمفردات. واحتمال ما قد تحمله من معان لا يقصدها المتحدث، بينما تكتفي بها السلطة لتسليط مخلب الاخفاء على من لم يختف بعد.

4 - وما بين الشك والعرب والشك المتجدد، يدمن الناس الوهم او الأوهام او التعلق بحبال كاذبة الآمال.. يلعب بها افراد شبكة خاصة من اهل السلطة.. وبينهم من هو في شبكة الاخفاء او شبكة القتل، او منهما معاً:

- ادفع لنا نأتيك بمصير فلان او خبر عنه.

- تعاون معنا في تقديم معلومة عن جارك، نقودك الى رؤية ابنك.. لقد شاهده من نعتمد عليه في المعتقل الفلاني، وهو بخير!

- سنعاونك في مقابلة الرفيق فلان لتسهيل مسعى وصولك الى خبر عن ابنك او اخيك – ان تجرأ اخ على السؤال عن أخيه - ! ويتبسط (الرفيق) فلان في الحديث بمكتبه المكيف المعطر. ويتحدث عن أن الانسان هدف الثورة ووسيلتها. وعن العدل الذي هو أساس الملك، وعن الرئيس الحنون وقلبه الكبير! وو .. حتى يعاد الباحث او المتسائل الى نقطة الصفر.

فأين ذهبوا اذن؟ آثارهم في بيوتهم. علاقاتهم مع الناس، انتظارهم. كلها عوامل تديم وجودهم عائلياً، اجتماعياً..

فتديم في الوقت نفسه آلية الاخفاء وفعلها المدمر طويل الأمد! ولاحظوا كيف يديم الخوف نفسه من خلال آلية الاخفاء هذه، ويديم معها احساساً أخطر.. يديم معها الاعتياد على الخسارات الكبرى دونما حق في السؤال عن السبب او عن المسبب! هذا الاعتياد رهان السلطة على ترسيخ فكرة المستبد الذي يعلو على المساءلة، لأنه يرى نفسه كذلك فعلاً! ولو لم يمنح نفسه هذه الدرجة الخارقة من الاستبداد لما كان القتل الجماعي او القتل اليومي السهل بالنسبة لآلة المستبد وعقله.

بل ان فكرة المستبد المتعالي على الأسئلة هي الأصل عند سلطة القتلة ولذلك كان القتل اولاً. اما الاخفاء فهو الآلية التي تشتغل كي ترسخ تلك الفكرة. كان القتل اول الشوط في إخفاء الحقيقة بكل ما في الاخفاء من تعذيب لذوي القتيل/ القتلى وأصحاب الصلة بهم. وهكذا صار القتل مطلوباً لتصفية الخصوم واخفاء ما يحملونه من حقائق الرأي الآخر وصار الاخفاء لتعذيب ذوي الخصوم ولتحقيق أهدافه الأخرى التي وقفنا عند ابرزها.

هل كان الاخفاء أسلوباً افرزه تفاقم الطغيان بعد انتفاضة العراق عام 1991 مستغلاً الحرب وما اعقبها ذريعة او غطاءً لتفسير اختفاء الآلاف؟

كلا، نعم ان الأسلوب تفاقم بعد الانتفاضة لاشتداد صراع الشعب في مواجهة الطغيان، غير انه كان أسلوب المستبد البعثي منذ بدأ حربه على الرأي الآخر. ولقد بدأها منذ قفزوا الى السلطة.. وكان القتل هو الآخر يتكامل مع الاخفاء في إشاعة العرب وترسيخ فكرة المستبد خارج المساءلة، باتباع أساليب العصابة المسلحة ومنها:

* قتل الخصوم السياسيين بحوادث غامضة بدأت بسلسلة حوادث السيارات التي تمت فيها تصفية العديد، ربما العشرات، من البعثيين القدامى غير المرغوب فيهم. عندنا في بابل مثلاً: ذهب بهذه الطريقة عبد الوهاب كريم، علي عجام، عامر الدجيلي.. وغيرهم وتكررت الحوادث في محافظات أخرى. ومن يقرأ نعي (الرفاق) الذين ذهبوا بتلك الطريقة في صحف تلك الفترة يشعر انه أسلوب تم اعتماده مسبقاً!!

* قتلهم في الشوارع، كما حدث للعديد من الكوادر الشيوعية.. ستار خضير، شاكر محمود، حمزة سلمان وغيرهم كثير. بينما كانت الأصوات تتعالى عن (وحدة القوى الوطنية) و (الجبهة الوطنية التقدمية).

تلك الحوادث كانت عملاً مبكراً لترسيخ فكرة ان السلطة خارج المساءلة، بينما كانت تحقق أهدافها في القضاء على من لا ترغب فيهم.. ولكي ترسخ فكرة كونها خارج المساءلة اعتمدت سلطة الاستبداد طريقة (يقتل القتيل ويمشي في جنازته) فلقد اطلقت أسماء وضحايا سيارات البعثيين على الشوارع والمدارس. وكان القادة البعثيون حاضرين في مجالس الفاتحة للقادة الشيوعيين الذين قتلوهم أنفسهم!

في الثلث الأخير من سبعينيات القرن الماضي، رفعوا شعار تبعيث كل الشعب حتى عام 1980، وبالقوة. وخلال هذه

السنوات من عام 1975 حتى عام 1980 اختفى الآلاف من المواطنين ممن رفضوا التوقيع على استمارات التبرؤ من معتقداتهم والانتماء لحزب البعث، بل واختفوا لمجرد رفضهم التوقيع على القرار 200 سيئ الصيت القاضي بإعدام كل من دخل البعث وله انتماء سابق لم يكشف عنه او ما يدخل في ذلك! وقلة من هؤلاء واولئك المختفين ابلغ ذووهم بإعدامهم! هكذا ببساطة.. وبذرائع واهية كان اكثرها شيوعياً.. الارتباط بتنظيم سياسي غير البعث، في القوات المسلحة وهو من اشد المحرمات البعثية حراماً، وكان اشدها فتكاً بالشيوعيين خاصة.. حتى مع سريان او دوران أسطوانة (الجبهة الوطنية) على قاعدة (التحالف)!

وحتى في الحوادث القليلة التي سلّم فيها ذوو الشهداء جثث أبنائهم تم ذلك في مسعى منظم لترسيخ الاستبداد الخارق المتعالي على المساءلة:

* ارغام اهل الضحية على دفع ثمن الاطلاقات التي قتلت ابنهم.
* ارغامهم على دفع أجور نقل جثته إليهم.
* ارغامهم على دفنه سراً وعدم إقامة مجلس الفاتحة.

هذه الممارسات كما نرى متكاملة في تحقيق هدف واحد هو تدمير الانسان جلاداً او ضحية! تدمير ذوي الضحايا قهراً وارغاماً على الصمت على الندى، وهو هدف دائم تدمير اكبر عدد من ازلام النظام انفسهم بغمسهم عميقاً بتلك الجرائم كي يأتوا بالمزيد وبالأبشع، قتلاً او ارغاماً على الصمت باذلال ذوي الضحايا، والا تخيلوا كم من (الجرأة) او الوقاحة يلزم لشخصٍ ما كي يقف امام أبٍ حملت له جثة ابنه بعد غياب او اختفاء ربما لسنوات ثم يقول له اعطني ثمن الرصاص الذي قتلنا به ابنك! كم من الوقاحة يلزم لذلك بحق السماء؟! وكم من الصلف يلزم كي تحرر له ايصالاً بذلك؟! وكم من الصلف والوقاحة والقسوة يلزم لإرغام المفجوعين بولدهم او ابيهم او .. على عدم إقامة مجلس فاتحة للضحية؟ وكم منها يلزم لمراقبة المنزل بعد تسليم الجثة والداخلين اليه والخارجين منه؟

وتأملوا، مع ازدياد عدد الضحايا، كيف يزداد المنغمسون في الجريمة عدداً وصلافة وكيف يتناسل فيهم النزوع السادي ويستشرس المجرمون فعلا و(اجتهاداً) في الأساليب الاجرامية!

ولأن الحوادث المماثلة بالمئات، ثم بالآلاف.. تأملوا أي تخريب متصاعد ومنظم للضمير يتسع مع اتساع عدد المجرمين واتساع دائرة الرعب.

* ولكي تأخذ آلية القتل دورها الكامل لا بد من ان تكون شاملة ودائمة ومتعددة الاشكال كي يسقط ضحاياها وذووهم والمساهمون بها، المنفذون والمجتهدون، في دائرة الاعتياد.. وهكذا كان:

- قتل في الشوارع: بالرصاص او بالسيارات او حتى داخل حافلة ركاب عامة يصعد اليها المنفذ ملاحقاً ضحيته ليكون (الصيد) أسمن: المطلوب وإرهاب الناس واذلالهم بالتخويف والذهول!
- قتل في البيوت بالمداهمات.. نهاراً او ليلاً.

- قتل تحت التعذيب. بما في ذلك اذابة الأجساد في احواض حامض النتريك – الكبريتيك او حتى بالثرم!!
- القتل شنقاً.. او بالرصاص او بالسيف على ان يكون السيف صدئاً!!
- المخابرات .. تمارس القتل بما لها من طرق.
- دوائر ما كان يسمى بـ (الامن) تمارس القتل بطرقها.
- سجون ولدي الطاغية تقتل يومياً بطرقها المتفردة.
- القتل في خطوط الجبهة، وهي طويلة متعرجة، بذريعة الجبن او الهرب او التخاذل او الخيانة!
- قتل جماعي بالهجوم على الاهوار بذريعة مطاردة الهاربين والمخربين.. الطائرات تقتل، النار تحرق الاكواخ وساكنيها.. وو.
- قتل جماعي للكرد والتركمان.. بالطائرات، بالمدفعية الثقيلة، بالغازات السامة، بالمواد الكيماوية الحارقة.. بدفن الاسرى احياء.
- قتل .. قتل .. في أي وقت بأي شكل بأية ذريعة.. او حتى بدونها!

المهم، ان يعود الجلادون بحصيلة اكبر من الضحايا.. ان يعم القتل فيتعمق الرعب ويسود الذهول!

* بتلك العدوانية المستدامة المحمومة سقطت هيبة الموت وفقدت حرمة القتل حرمتها! فلقد كان عليك ان تنسى او تتناسى ما نشأت عليه..

- في القرآن "من قتل نفساً بغير نفس فكأنما قتل الناس جميعاً". "ولا تقتلوا النفس التي حرم الله الا بالحق..".
- في الحديث "كل المؤمن حرام على المؤمن.. دمه وماله وعرضه". وكان القتلة يخوضون حملة اسموها ايمانية!!
- وفي المأثور عن علي بن ابي طالب "الانسان بنيان الله، ملعون من هدمه.. ملعون من سعى بهدمه"!

فكيف لا تسقط حرمة القتل وهيبة الموت وقد اصبح قتل الانسان مهمة يومية لمئات من الجلادين او القادة؟! وكيف لا وماكنة تدمير الانسان بالخوف والرعب لا تتوقف لحظة واحدة؟! وكيف وقد اصبح (القائد الحزبي) الجيد هو من يدير العملية باتجاهيها: القتل والتخويف؟! قتل يومي مستمر يخفى اكثره ويتكفل القليل المعلن منه بترسيخ رعب المخفي. وبتلك الآليتين اختفى آلاف من شبابنا منذ عام 1980.

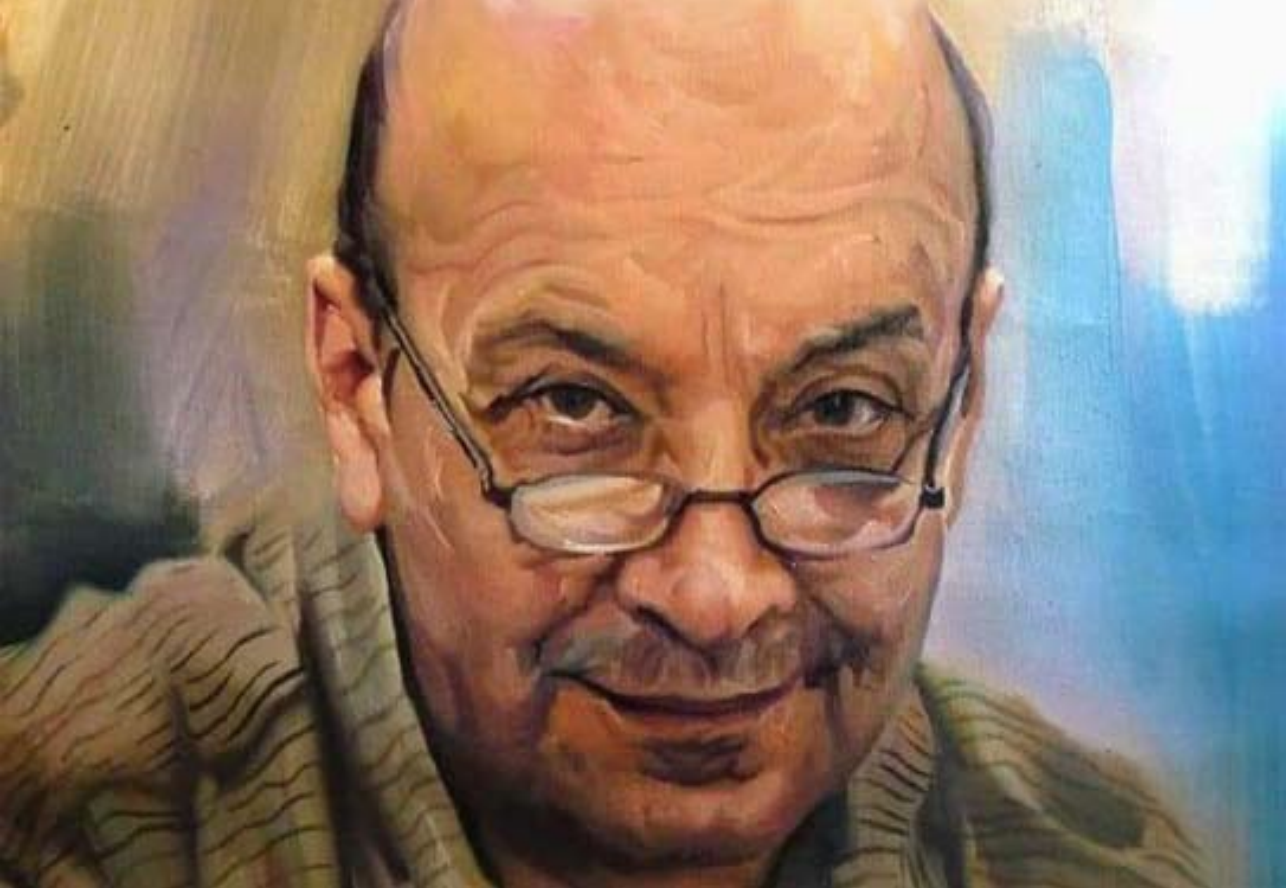

ملف الفنان التشكيلي الراحل : د . بلاسم محمد

هذا الملف :

لماذا نكرّس كل هذه الصفحات لفنان راحل، وامامنا عدد من الكفاءات والقامات الحية . . التي غادر معظمها البلاد، وبقي البعض الآخر مغيبا عن لعب اي دور فاعل في بناء الحياة العراقية الراهنة؟

جوابنا . . يحمل في اول اهتماماته قدرا كبيرا من الوفاء لمن اعطوا للعراق ثمارا تتخذها الاجيال اللاحقة نماذج حيّة .

مثلما يعرف معظم كتاب (الثقافة الجديدة) اننا في تواصل مستمر مع قاماتنا الفكرية والعلمية والابداعية في الداخل والخارج ونحرص على التواصل معهم، بهدف اغناء صفحات مجلتنا التي تعبر عن اصواتهم . .

لذلك نجد في طاقات شعبنا الفكرية والابداعية الخيرة مسارا نتفاعل معه من دون ان نطوي صفحة النسيان على من اعطى كنوز عقله وألق روحه للآخرين .

من هذا المنطلق نقدم بحفاوة ملف د .بلاسم محمد، شاكرين للدكتور علي المرهج والاستاذ علي حيدر الحساني، جهودهما الكبيرة في اعداد هذا الملف .

محرر (أدب وفن)

بلاسم محمد العاشق للحياة والرسم

د. علي عبد الهادي المرهج

فقدان فنان تشكيلي مبدع وأكاديمي من طراز خاص مثل د. بلاسم محمد أمر صعب، لكن لكل بداية نهاية. ويبدو أن بلاسم محمد أراد أن يكتب نهايته بشكل يليق بإبداعه في الحياة والفن والفكر، لأن وفاته كانت بمثابة لحظة عشق رسمها بشكل مفارق ومغاير، وكأنه يريد أن يكون متفردا في الموت، كما كان متفردا في الحياة.

كلنا يعرف أن زوجة بلاسم وحبيبته قد غادرت الحياة بسبب اصابتها بوباء كورونا اللعين، ولم يطق بلاسم فراقها، وقد صرح أكثر من مرة أنه لا يُجيد الحياة من دون وجود (أم سارة).

زرته بعد وفاتها لأواسيه، فوجدته منكسرا، فقال لي (علاوي) ما أكدر أتصور البيت من دونها...!

في حوار معه حول جائحة كورونا قال: "إن كورونا تُعلمنا أن هناك أشياءً لا يُمكن التكهن بها، ويُمكن أن تنقلك إلى تغيير حياتك".

أظن أن واحدة من الأشياء التي لم نتكهن بها في (زمن الكورونا) هي فقدنا للكبير د.بلاسم الذي لم يمت بسبب الكورونا، ولكنه مات من فرط هيامه بمحبوبته التي أخذتها منه كورونا! وأخرى لم يتكهن بها هو أن تموت زوجته بهذا الوباء بشكل مفاجئ بلا وداع، ولم يحسب بلاسم حسابه

للتعامل مع هكذا حدث جلل!

والأفجع الذي توقعه هو أنه لا يستطيع العيش من دونها، وقد حصل ما توقعه وتكهن به. إنه يُجيد التكهن في الحُب والحياة الفاضلة، ولا يُجيد العيش حينما تذوي زهرة الحياة (الحُب).

ابن النجف والكوفة الحالم القادم لبغداد مدينة الحب والجمال ليندمج فيها ويعشقها لأن من طبعه العشق، عشق الأمكنة التي يختارها للعيش، وعشق الناس، وعشق المدن التي يرسم لها جمالها الأخاذ مستمدا من عبقها التاريخي، وهو لا يفعل شيئاً سوى مسح ما لحق بها من دمار سببه خراب نفوس الحاكمين والمستعمرين والدخلاء والجهلة.

مذ عرفته لا هم له سوى العمل على نثر الجمال والكشف عنه في لوحاته وتصاميمه التي صارت (ماركات) أو أيقونات نعرفه

بها.
جاء في الكتاب المقدس (الإنجيل) قول للمسيح (ع) "من ثمارهم تعرفونهم"، وهذا ينطبق على ما أنتجه بلاسم محمد في التشكيل والتصميم.
قرأ الفلسفة المعاصرة، وكتب أطروحته بعنوان "الفن التشكيلي.. قراءة سيميائية في أنساق الرسم" لا ليجعل من السيمياء منهجاً لادعاء الفهم والحذلقة اللغوية كما حصل ويحصل عند الكثير من الكتاب، بل ليجعل منه وسيلة لفهم معنى العلامة ودلالتها في سياق العمل التشكيلي أو السطح التصويري الذي يجمع بين الكاتب (الرسام) والمتلقي واعادة انتاج الفهم أو التمثل الهيرمونطيقي للعمل الفني.
في تشكيلاته اللونية تجد هناك فسحة يتركها بلاسم للمتلقي كي يجعله مشاركاً له في منح اللوحة معنًى آخر له الحق في تبنيه.
تمكن بلاسم محمد وبعض الفنانين التشكيليين العراقيين من إعادة الفن التشكيلي العراقي على ما كان عليه أيام الرواد، وهو الابن البار لهم، ولكنه يُبدع لوحته من فيض وعيه بتحولات الرسم عالمياً، ولم يُقلد حتى أساتذته، بل من الصعب أن تكشف عن تأثيرات الموروث العراقي القديم أو الكوفي أو البغدادي أو العراقي المعاصر في لوحته. أما تصاميمه فيُمكنني القول أنه تمكن من رسم هويته الخاصة في التصميم، هذا إن لم يكن هو رائداً من رواد التصميم الإبداعي في العراق.
تصميم مجلات للأطفال، وتصميم الإعلان التجاري، وتصميم الشعار للعديد من المؤسسات الحكومية والمدنية.
كان بارعاً في التصميم، ويصح القول أنه كان مُغايرا عن ذاته كتشكيلي، ففي التصميم نجده يقرأ التراث والحداثة، ليضع تصميمه على وفق تحديات الواقع المستمد من الماضي تارة، ومن الحاضر تارة أخرى.
إنه فنان وراءِ في التصميم، ولن تجد له تصميما على غرار تصميم آخر، لا من نتاج سبق له ولا من آخرين، لأنه يبحث عن توجيه في التصميم لهدف المؤسسة والكتاب والمجلة التي يُصمم لها غلافا أو شعارا.
اللافت في أعمال بلاسم في التشكيل والتصميم أنها أعمال تُحيلك لاكتشاف وعيه الأكاديمي وقدرته على جذب المتلقي العام لفضاءاته الإبداعية في الرسم والتصميم، لأن مهمة الفن عنده في خدمة الحياة، أو جعل الحياة أفضل.
ولا ننسى اتقانه رسم الخط العربي وتوظيفه في رسوماته وتصاميمه، فهو كما يقول عنه د.مالك المطلبي "رسام ومصمم ومخرج"، وهو الممسك بعشبة الخلود، بتعبير المطلبي، وأظن أنه ممسك بعشبة الخلود هذه بأعماله.
أسس مطبعة (إيكال) وكانت هذه المطبعة بمثابة حلقة فكرية وفنية فيها من الإبداع في الفن بقدر ما فيها من وعي بالحياة وتحولاتها، فقد كان الهم الأكبر عنده جعل الفن مشاركا في صناعة حياة أجمل، بسعي منه لما أسماه "تبديل الذائقة العراقية" وجعل الفن بكل تحولاته من الواقعية إلى الغرائبية إنما هو فن عراقي لترميم الذائقة وتوقع التلقي الجميل لها.

قيل عنه أنه "سيد الألوان"، وهو كذلك لأنه يختار اللون ليصنع البهجة، فلا قيمة للفن إن لم يمنح الطمأنينة للمتلقي، وكأنه يُعيد لنا تطبيق مقولة (وليم جيمس) عن الدين ليجعلها مناظرة للفن، وهو (براجماتي) بامتياز، لأنه (بيرسي) الفهم للواقع، فهو يبحث عن المعنى الذي قد يتعدد بين المؤلف والمتلقي، ولا يبحث عن مرادفة بين الصدق والنفع كما ذهب إلى ذلك وليم جيمس، لأن بلاسم محمد يجد في تلقي الفن شبهاً مع تلقي الدين، ألا وهو الكشف عن معنى مضاف، وكأنه يحذو حذو (تشارلس بيرس)، ولم لا وهو الذي كتب عن توظيف المنهج السيميائي الذي ابتكره (بيرس) لفهم العلامة في الحياة والتشكيل، ودور المؤول في توظيفها، على الرغم من أنه يستفيد من (وليم جيمس) في التعامل مع الفن والدين بوصفهما مجالين إنسانيين لمنح الطمأنينة، ولكن طمأنينة (جيمس) طمأنينة مؤقتة، لأنها من قبيل تسويغ أو تسويق القبول بالقول الفني والديني.

انشغل بلاسم في الرسم الذي تخدم فيه اللوحة الحائط الذي توضع عليه، وعمل على انتاج تصاميم لها وقعها وتأثيرها في فهم القصد مقدار التلقي البراجماتي لها.

يُميز بلاسم بين نوعين من المتلقي، ما يُسميه المتلقي الثقافي، وهو يتكهن المعنى للسطح التصويري، وآخر هو المتلقي المشارك الذي يعيش معك ويعرف ما تعرفه، وهو الأكثر قربا من إدراك المعنى في السطح التصويري.

هناك المتلقي الذي يشبه ما وصفه (أيزر) "السوبر ريدر"، وهو المتلقي الذي يمنح العمل الفني أو النص الإبداعي رؤية جديدة قد تكون بعيدة عن قصد المؤلف أو المنتج للعمل الإبداعي، وهذا المتلقي النادر هو ما يبحث عنه بلاسم محمد الذي هو في تلقيه الأعمال الفنية الأخرى ينطبق عليه هذا الوصف "القارئ السوبر".

قيل عنه أنه "واهب الأنس" وهو معنى ينطبق على بلاسم العاشق والمعشوق، إذا فهمنا مفردة "الأنس" بدلالتها على وفق ما أنتجه بلاسم من أعمال فنية أو سلوك أنسني شابه فيه المتصوفة في زهدهم، على الرغم من أنه يعشق التصوف منهجاً وليس طريقة حياة، لأن نزعته الأنسية أو المؤنسنة كانت تنفذ لأصحابه وتلاميذه ومتابعيه.

وُصف بأنه "كائن عولمي" يرسم بلا هوادة، مشغول بالكتابة عن "شغب الفن"، وينتقد التكلس الفني الذي لا يستوعب "عصر التغريب".

شغوف ببغداد وجماليتها، ويقول عن بغداد بأنها مدينة فيها "روح فن"، يجد ويجتهد ليجعل من الفن في خدمة الحياة والناس.

ينتقد الثابت والراكد ليقدم لوحاته في معرض خاص به في عمان بعنوان "رجيم الصفر" لينتقد بها الثبات، ويصفها بالصفر يسار الرقم، ليبحث عن انتاج المعنى ببهجة حياتية تصدم مع السائد التشكيلي، لتصنع هوية فنية عراقية، يكون فيها الفن في خدمة الحياة.

يصنع بلاسم سعادة وبهجة في رسوماته ليكون صديق المتلقي، حتى في حال تفضيل المتلقي "موت المؤلف" أو "مبدع العمل الفني"، لأن همّ بلاسم الكشف عن بهجة اللون والفن في أعماله التشكيلية.

بلاسم محمد فنان التشكيل للحياة والمدينة

يبحث عن السعادة، لأن السعادة لحظة والحياة مثل سيل جارف فيه من العتمة أكثر من الفرحة، ومهمة بلاسم كشف العتمة والعمل على أن تكون أعماله بمثابة ضوء في آخر النفق.

كتب مؤلفه عن ''عزلة الفن'' وهو يتأسى لأن الفن والرياضة غابت وغُيبت، لأننا نأتي للحياة من نهايتها، والفن والرياضة والأدب، مجالات تمنح الحياة معنى.

كان مع الفن والانتفاضة التي شارك فيها الشباب في خلق رؤية جمالية وثورية للعراق الذي يستحق حياة أفضل.

يبحث عن مواطن حر تُوفر له الدولة قاعدة تأسيسية لفهم الفن والذوق والجمال، لأن بناء الذوق يحتاج لتأسيس بنية ثقافية، فكل حكومة لا تخدم المواطن ولا تعرف قيمة الجمال، لا ينبغي عليها أن تُطالب المواطن بتهذيب ذوقه، في حال تغافلها عن دعم الفن.

وصفه السيناريست حامد المالكي بأنه ''شهيد الحب والوفاء''، وكما ذكرت في عنوان المقال بأن بلاسم أعاد لنا قيمة الحُب في ''العشق'' وفناء الحبيب في روح المحبوب وفقا لقول الحلاج:

أنا من أهوى ومن أهوى أنا / نحن روحان حللنا بدنا

فإذا أبصرتني أبصرته / وإذا أبصرته كان أنا

روحه وروحي روحه / من رأى روحين حلا بدنا

المدن القاحلة ليست مدن بلاسم محمد، وبغداد القديمة الحديثة هي مدينة الحب والجمال، وكل من حكمها لا يعرف قيمتها الجمالية والمعرفية.

واحدة من لوحاته التي أظهر فيها حبه للحياة هي ''حلم البنفسج''، هذه اللوحة التي استعار لون زهرة ''الفيوليت'' بكل تمظهراته الجمالية في بهاء اللون لا في عتمته، وكأنه يستمد من لون الورد هذا برودته وقدرته على التكيف مع الظروف البيئية الصعبة، فضلًا عن جاذبيته وعطر المحبة الأخاذ فيه، وهذه صفات يحملها بلاسم الفنان والإنسان الذي يتميز ببرودة أعصاب وهدوء مع اتزان، وقدرة على التأقلم مع شتى الظروف ومختلف البشر.

وأوراق البنفسج توجد في أغلب الأحيان على شكل قلب، وبلاسم هو قلب مرهف يحوي الجمال ويحتويه.

عن تحولات الفن في ما بعد الحداثة يكتب لنا بلاسم محمد كتابه الأخير ''الفن والقمامة''، وهو في ملخصه توظيف لمقولات فن ما بعد الحداثة في التعامل مع القبح على أنه من الممكن أن يتم العمل عليه لتحويله لفن جمالي. وقد كتب عما سُميَ ''القبح في فن ما بعد الحداثة'' منطلقا من ''التغريب'' بوصفه العنصر الفاعل لإنتاج فن مغاير سُميّ ''جماليات القُبح''، يخرق قوانين الفن المألوفة كما خرقت السوريالية من قبل الفنون التقليدية لتكون فيما بعد على قمتها.

لقد أشار لفن ''الكولاج'' الذي وظف كثيرا من مخلفات القمامة ليصنع منها أعمالا تشكيلية مبهرة.

ليس شرطا في فن ما بعد الحداثة أن يُحيلك العمل الفني إلى سحره الجمالي، بل ربما قد يُحيلك إلى ما فيه من رؤى لافتة فنيا، تجعلك تقف منبهرا أمام هذا العمل الذي قد يبعث فيك الرهبة والخوف أكثر مما

يبعث فيك الطمأنينة والراحة التي كانت من مقاصد الفن التقليدي.
عنصر "الإبهار" مع فنون ما بعد الحداثة، هو العنصر الجمالي الذي ينقلك لمناطق جديدة، مناطق عجائبية وغرائبية فيها من الإثارة والدهشة الفلسفية أكثر مما فيها حينما تتأمل الجمال أو الإحساس به.
ما كان يُميز بلاسم محمد الفنان والأكاديمي أنه مستمر في البحث عن مناطق بكر ليحرث بها، ويبذر بذور معرفة تجديدية في مختبر الفن التشكيلي العراقي.
لقد حرث وبذر وزرع وحصد نتاج تأثيره الفني في حياته إبداعا ومسيرة فنية حافلة بالعطاء، وستستمر لنقطف ثمار أعماله إبداعات فنية وجمالية في نتاج تلاميذه طلبته الذين تأثروا به.

اخر لوحة نشرها الفنان بلاسم محمد بعد وفاة زوجته

بلاسم محمد: المكابدات الساخرة

د. نجم حيدر

الكتابة عن صديق عمر تخطت مرافقته حدود 40 عاماً، امر لا يخلو من مصاعب اهمها الانفعال العاطفي الذي يقوض الخطابات التحليلية النقدية، فضلا عما تحمله من صورة الم، لان مغادرة الاحبة عندما تكون مفاجئة غير متوقعة ولو بزمن قصير قبل صدمة الرحيل يفاقم الحس الانفعالي ويهيمن عليه. هذا ما حصل مع د. بلاسم الذي تعودت ان اشاكسه بكنية يبتسم عند سماعها (بلسومه)، وكأنها متطابقة مع شخصيته المفعمة بالمرح والسخرية والاستخفاف بالوجود بكل صوره. هذه الشخصية التي تبدو مفعمة بالتمويه ومداراة آلام دفينة، اعرف بعضها اليسير ولاسيما عواطفه الجياشة نحو المرأة، فهو يمتلك طاقة حب لا تستطيع جموع النساء التي لاقهن ان يستبعدْنها، وقصته مع احدى جميلات كلية الفنون في زمن دراسته البكالوريوس في سبعينيات القرن الماضي، كانت مفعمة بمغامرات وانفعالات، اسست لآلام راكمت دفين مكابداته التي يداريها بالضحك والسخرية. وعندما فقدها بإرادة منها ارادته هو، بدأ يبحث عن الحب الدفين في ذاته للتعويض عن ألم امتزج بآلام مختلفة، اسست لوجودية مكبوتة وكانه

(اندريه جيد) الشاعر الساخر الذي عالج ضغوطات حياته بالشعر، فقدم بلاسم شعره رسماً، وتصميماً ليشغل الذات بهروب قصدي ساخر.

يُستقبل باحتفالية، تَعَم ابتسامة وجوه الحضور، تَتَحول إلى قَهقهات من الضِحك، ذاك الضحك الغائب الضرورة، يود الكل مجاورته، يركزون العيون فيه، ينتظرون ما يضفي على كآبتهم وحزنهم الدفين من مرح إلقاء بل مرح النفوس الغائبة والمغيبة، لعله من جديد يُفرح ويَفتح القيود ويسترجع الطفولة والصبا إلى نفوس شاخت وكبلت بأيقونات مخادعة كاذبة،

حتى قديمه مما ذكره لهم مفرح و ممتع، يتوسلون إعادته.

تجده راقصا يحرك الأجواء المتجمدة، يمنح المكان حرارته.. يمتلك تدفق رأي

وسرعة بديهة، يعلن انتماءه بشجاعة، فيه ما ندر من المواقف.

يحبط المرجعيات من النفوس ويسقط المقدسات من الذاكرة، ويرفع الأشياء.

فيه من الوجودية بقدر ما فيه من التفكيكية والتأويلية. في الدرس يحيل الابتسامات إلى وسائل علم وتعلم، في قفشاته درس، تجده سيميائياً حداثويا، بنيويا، برجماتيا، تأويليا.

فكره بفن.. وفنه بفكر، هكذا هو بلاسم

في فنه غربة واغتراب. اغتراب بتفاعل مع الاخر، وكأن سخريته وتهكمه، دعوات رفض يحقق فيها افتراضا متعاكسا مع المرفوض بأمل وجودي، يكتنفه دوما في حرية الحياة، يعلنها مركزا وانتماءً، تقودها الرغبات وتسقطها المقدسات، مزدرياً مستهيناً بها، يعلن تهافت الماضي وهفواته، وفي المقابل يستخف من رعب المستقبل، تعلن رسوماته مركز لحظة في زمن، وآنية في الوجود فيها يتألق الوعي المتجسد بفن، وبأسلوب استطاع أن يستل من تقنيات الحداثة ما يخصه. وكما يقول سارتر: "اننا ندرك اختيارنا بوصفه مفارقة لأي واقع سابق، وينبغي ان يكون مؤسساً على عكسه، لمجموع المعاني التي تكون الحقيقة الواقعية".

فالماضي مقيت مؤلم، يقيد الفكر والمستقبل، وهم يقود إلى تفجر الألم بضاغط الخوف المعزز برغبات (الأنا) المريضة المسيطرة على كل شيء.

وما الحقيقة إلا في لحظة الوعي، وعندما تسترجع لحظات الماضي فإنك موهوم وعندما تفترض لحظات المستقبل، فان وهمك يعلن غباءك..

هكذا في لوحاته إسقاط وازدراء لكل قيم القياس، ومنها المكان والزمان...

ان انجازاته تفضح مخيلة خصبة تستدعي البناء بتقنيات متمازجة بين التلوين والتخطيط، يعلن التعالي في الوجود (حسيا، ماديا، غرائزيا)، من شأنه احالتنا إلى وجود متسامي حاضر أمامي يلغي التداول الزماني في المكان.

إنها قدرة على تخطي الواقع والانفصال عنه. وكما هي في وجودية سارتر - فان ((إعطاء محتوى حسي للصورة يجعل منها شيئاً خاضعاً لقوانين الأشياء لا لقوانين الوعي، وبذلك تنتزع من التفكير كل إمكانية للتمييز بينها وبين أشياء العالم الأخرى.. وإذا أدخلناها فيه، دخل الكون كله معها، وتحول الوعي دفعة واحدة، مثل محلول مفرط التشبع)) - سارتر. التخيل.

مخيلته تستدعي الإنسان في جسد حلم. حلم يقوض الواقع لحظة انفصام عن مادياته. حلم نجده في ضبابية الوانه.

وفي تشكيلاته تعامل مع المادة بقيمتها الفيزيائية كيفيا لا كميا، بتأويل يستهدف المتلقي ليصنع تناصاً بوعي، فضلاً عما قدمته لوحاته من حركة تأويلية، وصولا إلى تأويل جديد مفعم بشكلية متفردة، وهكذا نجد في منجزه الجمالي تعاملا قصدياً وتحليلاً تركيبياً، يُحلل مُعطياته (الميثوسسيسولجية)، ليعيد تركيبها على وفق نظامها (الجمالي) المستحدث، وكما نجَد خامته متفاعلة جماليا في صميم رؤيته الفنية، تحمل في طياتها نظماً إيحائية تأويلية،

تعلن حركتها وتأثيرها في صميم النسق الفني المعاصر. يعمل بنسق جمالي ليعلن المعاصرة في فنون التشكيل وعيا وتأويلا، بل تأويل مفرط لمواد بناء أو اظهار العمل الفني، متداخلة بين تقنيات ما تلبث إلا ان تكون جزءاً من حركةٌ هارمونطيقية..

لوحاته في أعمها الأغلب متحركة، بل متباينة أحياناً. وهذا التباين يُعد دفقة الحداثة ونموها، وكأنه يعلنَ جدل الشكل في اللون، محققا جدلا مفرط التركيب. انها فلسفة الحداثة التي شغلت الخطابات النقدية المعاصرة.

في أعماله وحشية ممتزجة باغتراب وجودي متمظهر بشخوصه المنحلة في بنية لونية تعلن تهافت التثبت والمراكز، وها هيَ (وحشيته) استطاعت أن تحطم بوعي مفرط كل الأنساق السائدة و المتداولة، كما عملت بجهد على تحطيم تلك الأيقونات برفض (عابث)، وعلى الرغم من تلك الثورة على الرؤى وآلية التخيل، ألا أننا نجد تأسيساً لرؤية فلسفية تنبث في أرجاء الأنساق الفكرية والمعرفية المتجاورة، أن رغبته في (العبث والرفض) اعتمدت الفكر المحلل المركب وهو في أعلى مراحل القصد، بل قدمَ التحليل والتركيب لأنساقه الجمالية المتداولة رؤى تمثل الضفة الثانية أو المقابلة من الصراع. أنها رؤى أعلنت الرفض، كما أعلنت التحطيم لكل (أيقونات) الجمال والجميل. إنها ثورة تعلن المجابهة مرمزة بالشكل واللون. وكأن بلاسم يؤكد رأي ماتيس عندما أعلن "أن الصورة قبل أنُ تكون حصاناً أو عارية أو نوعاً من حكاية. كل ذلك في حقيقته ما هو الا سطح مشوب بالألوان، جمعته على وفق نظام معين".

"ان الحاجة للألوان تقودني إلى تحرير الشكل من حدوده الفيزيائية".

إنّ رؤية بلاسم كما هي رؤية ماتيس المبثوثة في تداعياته الحرة والمقيدة حسب (فرويد)، تمثل دلالة الرفض وصورة الانتماء بافتراض. افتراض رافض لكل واقع وواقعة، يتجسد في تشكيلاته اللونية محيلا المعنى إلى المتلقي.

وفي انجازاته يعلن الهرمينوطيقية مبدءاً جماليا، كما يلتزمها مبدءاً نقديا.

وعندما تتلاقى مخيلته كفنان بمخيلة التلقي وتتناغم الأفكار بتأسيس نظم تذوقية جديدة، يعلن العاطفة تشكيلا. انه اندماج بين الوعي المفرط للوجود، وحركة فهم وتفسير الأشياء والظواهر بعواطفه. إن هذا الاندماج بين العاطفة والشكل يحقق أسلوبية إظهارها لنصوصه، وعلى وفق (البنيوية) أو الفكرة التي أطلقتها في جعل الإبداعات حركة نسيج لا صلة لها بالمنتج. نجد أن الأمر متحقق في أعمال بلاسم بتأكيد حتمية التحول في الذائقية الجمعية والفردية. إنه تصدع في الأنساق وتخلخل في حركتها، والأمر لا ينافي النظرة (الجدلية) في تحليلها لحركة الوجود، وعليه نجد متحولات النسيج بصورتها الكلية في لحظة توقف معين لمخاض النسيج المستمر، لا بد له من متحولات في أنساق النسيج ذاته، وكأنه يعلن الفنَ (جرثومة) تصيب الأنساق المتجاورة والمتباعدة عن

مركز الشرارة. وعليه تتضح تلك التوافقية بين الأنساق المتجاورة والمتباعدة حتى في الهدم.. هدم (مؤسسات الماضي) وها هي ثورة (الحداثة في التشكيل)، وأعمال بلاسم صورة منها...

ان المتحول في انجازاته الأخيرة تلك المسرحة، مسرحة اللوحة، وكأنه يعلن أن الوجود مسرح كاذب مخادع، بل مسرح وهم وإيهام. وفي بناء لوحاته هندسة خفية أخفتها ضبابية قصدية لألوانه، في هذه الضبابية عزز الحلم والإيهام.

لوحاته استدعت الإنسان كمركز بناء و تشكيل، بحداثوية متأرجحة بين هنري مور وجاكومتي، كما ان تشكيلة الفضاء بترك قصدي في جغرافية لوحاته على كيانها الأبيض أعطى استمرارية حركة، وديناميكية في التكوين والتأويل. إنه يعمل جاهدا على استفزاز مخيلة المتلقي، ونجح.

ويبقى بلاسم كرافيكيا في رسوماته، وملونا رساما في منجزه الكرافيكي، وهو بذلك يحاول باستمرار تعويم الهوية بين الرسم والكرافيك.

وهذا اخر ما اردت ان اقوله له، قلتها.. سمعها وابتسم،

احذر يا صديقي، انتبه..

جراد، جراد، جراد.

المحابس والسبح تنتشر وتنتشر،

حداثويتك تقاوم،

اجعلها مفردات لوحة،

اسقط قدسيتها، أرجعها الى كيانها، أعلن شيئيتها،

إنها حجارة،

لا تغري طفل..

قاوم بابتسامتك.. واجعلنا نبتسم..

ابتساماتنا تقدم الحياة على الموت والحاضر على الماضي..

كم نحتاج الحاضر يا صديقي.. قتله الماضي، تباً له.

التشكيل المرئي لدى بلاسم محمد

د. صالح الصحن

منذ أكثر من عقدين، تفرد الفنان التشكيلي الراحل بلاسم محمد في طروحاته الجمالية والفكرية والسيميائية الجريئة في الوسطين الأكاديمي والفني بالكشف والتشخيص والعرض والمعالجة والآراء النقدية الماهرة، مع الرفعة العلمية والمعرفية العالية في قراءاته الفلسفية لفن التشكيل وعلم السيمياء وفن الرسم ومهارات التصميم وفلسفة الشكل والصورة والفن المرئي، وعلى وفق منهجية علمية حديثة قادرة على تخطي الأساليب والاطر التقليدية في فلسفة الفن وميادين اشتغالاته، مع خط فاعل في الميدان والوسط الأكاديمي، وهو الذي يتسابق مع الزمن في الانتاج الفني من خلال العدد الوفير من تقديمه أشكالا جذابة وفضاءات من التصميم المميز، وسلسلة طويلة من اللوحات الفائقة الصنعة في التشكيل واللون والخطوط والتكوين وما تحمل من علاقات وعلامات سيميائية ناطقة، وكأنها في سلسلة من التشكيل المرئي. ربما احسبها محاولة لقراءة هذا الدفق المرئي الذي يعد جزءا من تجربة الفنان القدير المتألق بلاسم محمد والذي حمل اسماء وعناوين لوحاته، غالبا ما

تمسك بمفردة واحدة فقط لجرأة اختزال الظاهرة، والتمكن من التعبير عنها، بما يلوح به الافق البصري واليات صياغاته، ذلك ما اطلعتنا اللوحات على درس في الذائقة الجمالية، لما تشهره من قوى تعبيرية كامنة بسردية التشكيل اللوني، وتقنيات التركيب المتمسكة بمعايير التوازن والفراغ والمسافة وأطر التكوين، الامر الذي اثار فينا إشعاع اللون ومستويات التوهج والإثارة، مع الحرص الشديد على ترويض الذات وذائقتها في تداول خاص أخذ منحى معين في الانسجام، والتناغم، والتضاد، مع إطلاق خيارات الخيال والايحاء والانزياح وتشظي الرؤى، بما يفتح منافذ المعنى ودلالات، على الرغم من اننا لن نجد ضبابا في لوحة تحمل اسم الضباب، وقد لا نجد جدارا في لوحة

تحمل اسم الجدار، أو قد لا نجد نقطة في لوحة تحمل اسم نقطة، ذلك ما يحيل الى عوالم اخرى صنعتها المخيلة المرئية للرسام الفنان المفكر، وهي بحد ذاتها دعوة للمتلقي المتذوق، ان يبحث فيما يمكن لديه من قدرات وثقافات، ان يكتشف بذاته فضاءات وتكوينات وعوالم تحمل أسماء وعناوين كأجواء وأوهام ومنظورات وغناء وغفوة وأوهام، وكذلك رغبة، ووخزة، وغموض، كما للمسميات التي حملت الانعكاس، والترحال، والخرافة، من كنوز وافكار ونقوش وتفاصيل، وكلها محمولات مرئيّة جريئة. عوالم وظواهر ومواضيع لم نجدها ضمن هذه السلسلة، لربما هي في طريقها وانضمامها لها، وما شاهدناه من عروض اقتربت كثيرا من مديات التأويل والتداول وعبرت بقصدية التمثل العالية في البحث عن حروف اللغة اللونية ومحاكاة تشكيلها الحداثوي.. اقولها انها محاولة لقراءة التشكيل المرئي وإضمار ما حملته بنائية نص التشكيل اللوني وبما نسجته من علاقات ومشتركات تواجدت هنا وهناك في هذه اللوحة أو تلك، بما يعبر عن حرفة الخطاب المثقل بالفكر والجمال، والممتدة من تجارب عديدة ومتراكمة قادت الى مثل هذه الرفعة في التناول التشكيلي فكريا وجماليا عند اسلوبه.

بلاسم محمد: رسوم تدون خرابنا

أ. د. عاصم عبد الأمير

رسوم الراحل (بلاسم محمد) تنسل لرسم مشهديتها من دون زوبعة، وبعيداً عن الفضاء النقدي. رسوم تلد مسرعة لأن بها حاجة لقول شيء ما. كان الراحل يراهن على محمولاتها وشكلانيتها معاً. ثمة اتحاد بين ما يراد له من اشهار وبين ضرورات الخطاب التي كثيراً ما تساير نزعة رسام يتأمل لوحته على مهل، بعيداً عن الوصايا حتى لو كانت آتية من منهجه الاشاري المسحور به بالفعل فإن خلافية من نوع ما تظهرها رسوماته وتدفعه قدماً لأن يعلو من شأن لحظة الرسم بمعونة من حاجة لمراجعة ما يمكن مراجعته في محيطنا الشيئي، وأبعد من ذلك حزمة الهواجس الحسية وما تجذبه من لذائذ آنية. هو رسام يهمه ترك مسافة جمالية بين مشاغله التأملية، وبين اللزوميات النظرية التي اعتاد السير بهديها وهو يواجه خطاب الآخر أنّا كان منهله البصري.

عرفته عن قرب، يرسم بلا هوادة، ثمة قوة دفع شخصية تجره جراً لعالم يريد ان يغرق في إغواءاته، مستعيضاً عن هجران طويل، كان يعاقر فيه عوالم التصميم الصناعي، والاعلان وتصاميم (اللوكو)، زد على انغماره في الخط والرغبة في احداث خروقات من نوع

ما في لغته المعجمية أو التجويدية، مشاغله هذه على سعة فضاءات التعبير لم تنسه شغفه في الرسم، وإن طال الفراق مع لذة كامنة تنتظر فرصة للشروع منها، مما يفسر غزارة المنجز البصري الذي وإن بدا متأخراً نسبياً، الا أنه مضى مسرعاً إلى واجهة الاشهار.

بدا بلاسم محمد، في رسومه أكثر استجابة لإعلان موقفه الثقافي مما يحدث في محيطنا السياسي، زد على استدعاءات تلوح له عن بعد من أيامه الكوفية (نسبة إلى الكوفة)، وكان يترك لفرشاته أن تعيد مراجعة الأحداث من دون أن يلقي بالاً بما يحدث بموجات التحديث وما وراءها من موضات أسلوبية، بدت أكثر اغواءً لمن يريد أن يتظاهر بالتجديد. إنه ببساطة شغوف بنزعته الارسالية لهواجس ذاتية تعطي للموتيف بعده الدلالي، والقيمي،

والجمالي على حد سواء في مصاهرة لافتة، فهو لا يعترض فرشاته حين تتهادى على السطح الأبيض لتقول ما لا يمكن توقعه، فهي لوحدها تقرر وجهتها بلا مراقبة عقلية تفسد لذة التلامس مع جغرافية السطح التصويري والانطباع الفردي المراد له أن يضع ولادته بسلاسة، ودونما فبركة. فرشاته على الأرجح، طليقة تجترح مداخل ومخارج لرؤية عذرية ولمواضيع تتخالط فيها نزعة الارتجال، مع طاقة شعرية، وكثافة في الموقف بما يلهب الأداء وتجعل منه قاب قوسين أو أدنى من روح الفن غير المجاهر بالنمطية، أو الترديد المنصاع لهواجس تبحث عن استقرار من نوع ما على السطح البصري دائماً ثمة من يصوب عوالمها وصولاً إلى اكتمال روح الرسالة المتوخاة، فيما يمارس الرسام ابتداءً دوراً تبادلياً بينه وبين الوسائط التي تأخذ على عاتقها كشف مسارات الرؤية من دون عوائق تقف حائلاً إزاء سيولة المشاعر التي تحتاج لفضاء يفعل قوتها المحركة هذا ما يفسر تشاكلية النتائج التي كثيراً ما يتوصل لها شكلاً ومحتوى.

في مرحلة الدراسة العليا، شغف بالفراغ، وكرّس لأجله بحثاً يفسر أوجه الوجل من هذا العنصر البصري الذي فرض مهابة كثيراً ما تجذب معها أصناف المخاوف وتداعياتها بما في ذلك تخيلات غولية وتصورات وهمية، تدفع الفنان المسلم الى ملئه بالزخارف، والعناصر كي يطرد عنَّا وحشة المنظر الخالي ... أطروحته تلك لم تذهب للرفوف المتربة من دون استثمار أمثل، وكانت رسومه تلهج بمغزى الفراغ الذي لا يراد له أن يسحق نزعتها السليقية لإحداث جلبة فيه وتجعله أكثر احتمالاً وجمالاً حتى لو كان ذلك يترجم بلحظة شعور فردية، لكنها محفوفة بمشاعر جياشة.

لم تكن رسومه تساير وجهة نظرية نقدية من نوع ما سوى شغفه بالعلاماتية التي كرس لها وقتاً مضنياً، لأنه يعرف أن الرسم شيء والكتابة عنه ضمن خيار نقدي مرجح شيء آخر. صحيح أن اللوحة بحد ذاتها، نص ليس تابعاً لمرجع ما، ما دام ثمة تحويلات يحدثها الرسام كي تسير في فضاء وهمي، لكنه أكثر بلاغة مما يمكن أن يأتي به الواقع. وصحيح أيضاً أن ما تجذبه التحولات هذه من رواسب ليس الا حزمة من المثيرات تجد نفسها بالطواعية الممكنة حين يحدث الرسام فيها اختلالاً من نوع ما في نظامها الوافد من خارج لعبة الرسم.

بلاسم محمد من حيث مراقبته لما يحدث في الأمكنة، والشوارع ، والبيوت والعملة النقدية ، هاجسه ضرب الفوضى البصرية، وايقاف نزفها المريع وتخريب الذوق الجمعي، خياله يوحد لا يشتت، يأخذ من وعيه في الحقل الرمزي الكثير ما يدفع إلى تكريس الهوية، من الكوفة إلى بغداد وخطواته تحمل ثقل النبوغ اللغوي والمكاني، ومراسيم الزخرفية وطقوسيتها باستثناء لغة الرسم ثنائي الأبعاد الذي نما واستطال في مخياله وإن بدا متأخراً نسبيا، ومثل لوعة خبيئة

تحتاج إلى تفجر ومساحة من الزمن كي يحدث توازن من نوع ما مع مزاجه الشخصي.

جرب الخطوط وتجويدها، وكره منها الخط الكوفي، ربما لعقلانيته الصارمة التي يخسر الفنان فيها حريته لصالح الهندسية ولوازمها، خلافا لما عثر عليه في ممارسته للرسم الذي يجرف معه كل ما يلزم من مواقف ، ومشاعر وبلا قيود ، مع تطلع في تثبيت الهوية الشخصية.

خاض غمار صحافة الأطفال رسماً وخطوطاً وتصميماً طباعياً، وبدا التيه يزداد اتساعاً وما بين ارتحاله من عوالم الحروفية إلى عوالم التصميم في المطبوعات المعدة للأطفال منها مجلتي والمزمار، لكنه كذاكرة ظل أكثر مكوثاً في رواسم تأتي عفو الخاطر، وكثير ما يستعيدها من حين لآخر في رسومه مثل أبواب الحانات الكوفية، والمفارقة أن بلاسم محمد شخصية اشارية لكنه أكثر استمالة للمعنى، هو رسام مضامين والاشكال عنده تلد حين يكون للمعنى وجود مرجح على سواه.

فلسفته مبدئياً، تتنكر للفن الذي لا يصب في مصلحة الانسان وجوداً ومغزى، ودلالة، ويتيح للشكل أن يستبدل مزاجه تبعاً لما تريد اللوحة أن تقوله، أو تبثه من محتوى مضمر لكأنه يريد للوحة أن لا تحمل ما يمثل عبئاً على الفضاء البصري، لتكوين ثنائي الأبعاد يكون البعد الثالث فيه وهماً بفعل تدخل عناصر الرسم كاللون والخطوط ولغة الايحاء التي تدل أكثر مما تعين، خلاف ما يحدث في النحت أو العمارة التي تتعامل مع الفضاء كوجود فيزيائي بإمكاننا الطواف من حوله.

الفضاء عند بلاسم محمد، يسهم في تمدد الرسالة المراد ايصالها للقارئ، وعنده لا يحتمل الحشو، أو الحشود، والعلاقات الزخرفية التي تفسد سلطة الشكل الموازية للمحتوى المراد تكثيف حضوره البصري، وتثبيت أمكنة افتراضية لائقة. بلاسم محمد تشغله البساطة كثيراً في احتواء مهابة الفضاء المتاح، ويوفر وقتاً لطرائق التركيب التي عنده أهم من الوسائط الموصلة لمغزى الرسالة، خلفيته في التصميم الطباعي أتاحت له محاكمة جغرافية السطح على لوازم الرؤية الاخراجية التي تعيد ترتيب العناصر على وفق ضرورات التصميم وليس الايحاء الذي تحمله كتله البشرية المحررة من شخوصها المبالغ فيها. كل ما يفعله بلاسم محمد، الذهاب لتقشير فائض الكتل وصولاً إلى علتها الجوهرية التي تديم الاحساس بقوة فعل الرسم حين يكون حاملاً لمغزى إنساني ما. رسم مخاوفه، وضجره، وانتفاضة تشرين، التي تدين خرابنا الذي لا نهاية له... ثمة احساس بالاغتراب تكفلت به رسومه الآتية من زمن كل ما فيه مشوش وقابل للهدم في كل حين.

رسومه تقوم بمهمة الدفاع عن تواريخنا الشخصية ، والثقافية والحضارية بالضرورة، ولأنها كذلك ، لم تلق بالاً لما يحدث في حوار الأساليب التي جلبتها فنون ما بعد الحداثة واتساع مساحة الانقضاض على أساليب الرسم

الحداثي، والفوضى التي جلبتها هذه الفنون تحت طائل الاحساس بإنتاجٍ المختلف، والصادم بما يوفر فرصاً واسعة للتهريج والتخالط بين قوة ما يحدث في الفن وبين رغائب عابرة أقرب إلى موضات سريعة الزوال.

بلاسم محمد عاد كرة أخرى ما فعله أسلافه من المحدثين في الفن العراقي، لكن من دون ان يخسر فرديته، وهنا مكمن الاثارة في أعماله التي تسير بتؤدة في تعميق روحها السرية التي تخاطبنا غنائية وأحياناً كثيرة بفجائعية ليست الا انعكاس لما يرى في محيطنا السياسي والاجتماعي من تدمير منظم جلبه المحتل الأمريكي مع جوقة الطائفيين الصغار الذين قصموا ظهر الوحدة الوطنية.

رسومه لا تسعى لتوفير أجوبة جاهزة للمتلقي، وكثيراً ما يترك لنا فرصة الامعان في هياكله الانسانية المخربة التي يتعذر على الخطاب الشخصي للفنان أن يهبها كوجبة جمالية متكافئة وشديدة الوضوح مما يدفع القارئ لتفعيل لذة التأويل جرياً وراء مخابئ النص، أعماله الرسومية تظهره رساماً ذا خلفية أكاديمية لكنه يظهر تمرداً محافظاً على الرغم من عدم مجاراته للهندام الجمالي للوحة، وعنده أن الارتجال والانفعال هما من يقرر المشهدية النهائية حين تبدو وكأنها فضاءً تتطاير عليه الوحدات وأطياف الأشياء التي تبوح بثقل المأساة وتناثر وحدة العرض.

فهل كان ينوي انتاج معادل صوري لما يحدث في عالمنا من تدمير منظم؟ هذا مما لا شك فيه، فهو كرسام ومصمم وأستاذ فن تشغله إعادة تأثيث فضاءاتنا المشوشة والموحشة وادخال الفن في النسق الحاضر الذي ارتد بقوة على البيئة الثقافية والمدينية، وظل هاجساً شخصياً حتى نزعه الأخير.

عرفته رساما انكاريا لما تعلمه، فهو لم يأخذ من بيئته الكوفية شيئاً الا اشارات الرسم البكرية ومدوناتها الأولى على أبواب الكوفة، وأطياف استدعاءات من وحي طفولة بعيدة تبرق من حين لآخر لحظة الرسم، لكأنه يريد من اللوحة أن تدله على ما يشتهيه وحسب فليس لمرجعياته أياً كانت وجهتها أي سلطة في تأثيث لحظة الرسم التي كثيراً ما تدار تحت سلطة قوة دفع داخلية تقرر وجهة الجمال الذي ينبغي أن يسود في عالمه الافتراضي.

بلاسم محمد.. رسام يوازن ما بين الشخوصية والتجريد بين التراجيديا والحلمية، لكنه غالباً ما يظهر نفسه مصلحاً ونذيراً لمخاطر قادمة وسط لجة الفوضى وغياب القيم التي سممت حياتنا وجعلتها أبعد احتمالاً. ببساطة، هو رسام خرابنا الذي نجحنا في فضح فشلنا عن طريقه.

بلاسم محمد.. الفن مشروعاً للحياة

د. فاخر محمد

تتخذ الكتابة عن تجربة الراحل د. بلاسم محمد الفنية ابعاداً مختلفة، كونها تجمع بين سيرة حياة لها مواصفاتها وطبيعتها التي تميز بها من تمرد وقلق مستمر وتساؤل عن معنى الوجود والحياة، يرافقها حب كبير للإنسان والاصدقاء ومواضع السخرية إزاء احداث كبيرة انعكست بشكل او باخر على نشاطه ونتاجه رسماً وتصميماً وتدريساً، فالراحل امتلك عقلية معرفية وأكاديمية رصينة وحبا للقراءة والبحث، استطاع عن طريقها الكشف عن نفسه كتعليمي وتدريسي مناور ومحاور في محاضراته، وفي الآراء والافكار التي تدار اثناء الدرس الاكاديمي خاصة تلك التي تتعلق بثقافة العلامة والبنية ومعارف الثقافة التداولية وجمالية الفنون المعاصرة.

لم تكن اشتغالات الفنان بلاسم محمد امراً طارئاً بل جاءت نتيجة لسنوات العمل المستمر في التصميمي الطباعي وما يتطلب من قدرة عقلية وثقافية، فالمتابع لمسيرة الفنان حياتياً وفنياً في الثمانينات والتسعينات من القرن الماضي، يجد ان العمل الطباعي وتصاميم العلامات التجارية وما يتعلق بالإنتاج الصناعي اكسبه قابلية المناورة على اليات الاشتغال

بجماليات التصميم وخبرة التعامل مع الفضاء والحجوم والعناصر المشتركة, فالمعروف عن المصمم هو القدرة على الاختزال وتجميع الوحدات الى عنصر واحد، او علامة واحدة، تتسع لمعنى مفتوح.

فالعلامة التصميمية تحتاج الى عقلية ابداعية خلاقة.

بلاسم محمد وبما يمتلك من وعي ثقافي متميز ودراسة مسبقة في جماليات الخط العربي ومتابعته لما يحصل من تحولات في بنية التراكيب البنائية والعناصر في العمل الفني, اكسبته خبرة مضافة ساهمت بشكل او بآخر في الكثير من نتاجه التشكيلي لاحقاً بمقومات جمالية وادائية تلك التي تتعلق بالسطح التصويري.

ثمة تساؤل سبق وكررته مع الراحل وفي حديث مباشر هو في كيفية التعامل

مع الوحدات التصميمية ذات الوحدات العقلية والهندسية وكيفية تجانسها مع شخصية، اتسمت في الكثير من احوالها بالتوق المستمر الى الحرية والتحرر من اثقال يومية وحياتية وتساؤل مستمر عن اللاجدوى وثنائية الحياة والموت والتي وجدت اصداءها لاحقاً في اعماله الفنية التي شاهدناها بعد 2003 حصراً. فالفنان ذو طبيعة متمردة ومتحررة من قيود كثيرة. وله موقف وجودي عن اشكالية الحياة والعمل ومبرراته والانسان وقلقه المستمر ووجوده الهش. فالثقافة الموسوعية وحبه للقراءة اكسبه وعيا متميزا باليات التعبير والترميز سواء تعلق الامر بالاشتغالات التصميمية ام البنى التشكيلية ذات الطابع الحر والبنية التجريبية .. يمكن القول ان هذا النتاج كان التعويض عن زمن خسره لإيجاد ذاته او التعبير عن حريته ورؤيته الجمالية التي يصعب تحقيقها في البنى والوحدات الهندسية ذات البعد العقلاني المنضبط؛ ففي العديد من الزيارات التي التقيت فيها مع الفنان وجدت الكثير من اعماله الفنية، وتحديدا تلك التي انتجت خلال الخمس عشرة سنة الماضية اكتسبت روحاً متمردة وتكوينات حرة سابحة في فضاءات مطلقة. هذا النزوع الى التوق والتحرر والافلات من محددات العقل والمنطق اجابة مباشرة من الفنان وكأنه يريد ان يخبرنا ان لا جدوى للعقل ومنطق الاشياء في محيط اتسم بالاحداث والموت المجاني اليومي. لذا وجد الراحل وسيلة وطريقة يتخذ عن طريقها نوعاً من المصالحة مع نوازعه الداخلية باعتماده على ذاكرة مستعادة، تلك التي تنتج نصوصه البصرية بعيداً عن املاءات الواجب الاجتماعي والوظيفي وضرورات العمل والحياة .. وبعض اعماله المنتجة بين عام 2006 – 2015 نرى فيها الانسان وقد تجرد من ملامحه، تائهاً وسط دوامة من الوان رمادية وسوداء في فضاء مفتوح. هذه الانشاءات اختلفت كلياً عما كان يشتغل عليه الفنان سابقاً ففي السنوات الاخيرة اتخذ من الحرية منهجاً وطريقاً لتحقيق نوع من اللذائذ والفرح المفقود او ربما نوعاً من التعويض عما آلت إليه الحياة العراقية.

بلاسم محمد ينتمي الى جيل الحروب والهزائم والانكسارات السياسية والامنية؛ ففي مثل هذا المحيط المحبط ما الذي يبتغي على الفنان فعله سوى محاولات اثبات وجوده الانساني بوصفه كائناً حراً وسط محيط وبيئة تناوشتها وقائع الموت المجاني. ثمة اشارات وعلامات لشوارع محترقة او لطيور مجردة هاربة او لإنسان بلا ملامح ينتظر مصيره. هذه الاعمال نوع من الاجابات المرمزة والمخفية لما رآه وعاشه خلال الخمس واربعين سنة الماضية، وتأكيد على حقيقة الانكسار الموجع والآمال الضائعة والخسارات المستمرة للوطن والانسان. انه تركيبة متداخلة من الوعي الثقافي والقراءات، وحب الحياة والناس والاصدقاء والفن والجمال مع المشاركة والمشاكسة والاعتراضات، يرافقها كرماً وعطاء..

هذه التركيبة وجدت حضورها في كل تجاربه حياة وفناً.

وفي السنتين الماضيتين عاش الفنان نوعا من العزلة المكانية، فرضتها ظروف جائحة كورونا والارتداد الى مكان محدد: البيت والمرسم وجهاز اللابتوب، ومحاولات التواصل مع الاصدقاء والاقارب. هذه التجربة تكاد تكون جديدة على حياة الراحل المعروف بصلاته الاجتماعية ومواقفه الطريفة مع الاصدقاء، وحبه المشاركة في الطروحات الثقافية. حالات عزلة المكان هذه ولدت ما يمكن ان نعده بالتناسب الطردي بين ما يحيط به من احداث ومواقف وكيفية ترجمتها برؤى وتصورات واعمال فنية، ربما هي نوع من الحلول او ايجاد طريق آخر للتعبير عن اللاجدوى التي عاشها ويعيشها اغلب العراقيين نتيجة لسنوات الحروب والحصار والأوبئة، نتاجاته.. محاولات الانتصار على الموت المجاني واليومي، ربما يريد ان يخبرنا بأن لا طريق آخر للإنسان سوى كفاحه العنيد والحياة والجمال هو بموسوعيته الثقافية وتجربته الانسانية وتمرده على كل ما هو عقيم ومشوه، حاول رفع راية الجمال والفن بوصفه تحدياً وانتصاراً لقيم الحياة ومكانة الانسان. وفي اعماله الاخيرة نرى الانسان مركونا في زاوية ومغيبا ولكنه حاضر بملامح تحيطها غلالة رمادية او سوداء مع خطوط عشوائية. الانسان هنا هو ذاته الفنان المتصالح مع متطلبات العناصر والوحدات، بعد ان خسر جولات الصراع مع الحياة اليومية والاحداث التي عاشها وشاهدها، تلك التي تفتقر لأبسط مقومات الحياة في الامان والسلام. نتاجاته هذه تنفتح على قراءات وتأويلات مختلفة اساسها الحرية التي تصبح اكثر قدرة على الاتساع رؤية ونتاجاً، وهذا ما كرس له وقته لتخفيف ضغط العقل والمعرفي والتعليمي من جانب ولتحقيق لذائذه الخفية من جانب اخر؛ فهل هو نوع من التيه المرغوب فيه. لقد اتعبته الحياة اخيراً وانهكه الحزن برحيل شريكة حياته ورفيقة دربه، حياته في ايامه الاخيرة ذكرتني بجملة قالها فان كوخ في اخر رسالة لأخيه ثيو قبل ان يطلق النار على نفسه ''عزيزي ثيو وداعاً قريباً سأرحل باتجاه الربيع''.

خطاب اللوحة عند بلاسم محمد

د. معتز عناد غزوان

إن الحديث عن تجربة غنية في الفضاء التشكيلي ولاسيما الرسم لفنان عراقي استطاع ان يشكل ظاهرة اسلوبية جديدة في الرسم الا وهو الفنان بلاسم محمد، تعني الكثير بوضع اتجاهات متحولة في سياق بناء اللوحة المعاصرة من حيث التشاكل المتناغم ما بين الالوان والاشكال والكتل المختلفة في فضاء اللوحة. لقد كان الحقل التجريبي في مخيلته واسعاً في اتخاذ العديد من القرارات البصرية المغامرة التي حول فيها كل ما هو شاخص وكائن الى سيمياء ومرمزات يتلاعب من خلالها في ايجاد وشائج ايهامية ما بينها، وايهام المتذوق بان هناك حركة وخطاب ومعنى ودلالة وراء تلك المرمزات التي كانت تختفي تارة وتعود للظهور تارة اخرى.

إنّ حقل التجربة والتجريب كان مهماً في اسلوب بلاسم محمد واعماله الفنية التي امتدت لعقود من التحولات التقنية والجمالية والموضوعية. انها محصلة جسر طويل من الدراسة والمران والتجربة والمثاقفة والتهجين والغموض والبساطة والرمزية والتعبيرية والايحائية. لقد تعامل الفنان مع كل تلك المتغيرات التي لم تقبل لنفسها الثبات عبر تحولات الزمكان. لم يكن لأسلوبه الفني المتميز سمة ثابتة، او ساكنة، بل كان اسلوباً متحركاً متدفقاً

حيوياً من خلال مكونات اللوحة وتوزيع الكتل والأشكال والألوان وتمثلات الملمس وقيمها الضوئية المختلفة.

لقد جاءت اعمال بلاسم محمد لتؤكد الحضور المهم في استثمار اندماج الفن المعاصر بمختلف تجاربه الفنية الابداعية، ولا سيما الرسم مع الابعاد الحسية والبصرية للفنان المجرب الواعي والساعي الى تحويل تلك المدركات الجديدة الى ظواهر بصرية فاعلة وجديدة على وفق قولبة تحتاج الى التأويل والتحليل والتفسير. انها الدهشة المتمايزة الناتجة من محاكاة الألوان وتمازجها ببعضها البعض مع تنوع من حيث الهارمونية التي تشعرنا بصفاء ووئام مع مكونات اللوحة، والتضادات اللونية التي تجعلنا متفاعلين مترقبين متابعين لحكاياتها الخفية وراء تكوينات تناغمت بموسيقية اللون، وكأن ايقاعها التجريدي يوحي لنا بانها تسير نحو التعبير

الصريح عن واقعنا اليومي وانفعالاتنا مع ذاتنا، والارهاصات التي تعيشها ذات الفنان وهو جزء من بيئة عراقية عاشت في السهل الخصيب ما بين الكوفة وبغداد. ان غابة الالوان التي يعرضها بلاسم محمد هي غابة احلام قد تجاوزت الواقع مبحرة نحو فضاءات تجعلنا نحلم بعوالم جديدة يسودها السلام والجمال والسميترية التي يبحث عنها العاشق العفيف، وكأنه ولد الآن بدون خطايا بنقاء طفولي وروح شفافة، لا تعرف سوى الصراحة والصدق والحقيقة والبراءة.

تميزت لوحات بلاسم محمد بانها كانت وسطاً ما بين الرسم التجريدي وما قدمته التجريدية من معطيات وافكار جمالية اثرت في العديد من الاساليب الفنية المختلفة في الاداء والتقنيات والانجاز، وما بين القدرة التعبيرية التي يفرضها الواقع من تحولات يومية تختلف من حيث الايديولوجيا والسوسيولوجيا وغيرها من المتحكمات بأفكار وعمل اي فنان يعيش لحظة الحياة ويواجهها بفضاء بصري ملون. وكما يشير الفنان التجريدي (بول كلي) الذي أكد ان رغبة الانسان في التعبير ليست فقط موضوع الهام او وحي، ولا يمكن ارجاعها الى الرغبة الخارجية لممارسة فعل التعبير وحدها، وانما هي احد شروط الوجود، يشترك فيها البشر عامة، وهناك رغبة داخلية تدفع هذه الرغبة للتشكل والنمو والخروج، كي تكتسب شكلاً ظاهراً، وفقاً لفهم داخلي يوجه عملية التشكل. وهذا المحدد ما يطلق عليه (كلي) المحدد الداخلي، الذاتي، هو ما يسميه طريقة النظر للعالم او رؤية العالم. لقد حاول ان ينتفض من سيطرة العالم المحيط بسلبياته وبإيجابياته نحو ايجاد لغة بصرية تحاكي زمنها بمنطلقات جديدة، جسدها عن طريق رغبات جامحة متمسكة بالانتماء لجذور وهوية عراقية، لم تغادره في اي مكان كان، يمسك فرشاته ويرسم. كانت مرمزاته مختلفة فطالما جعل سيادة تكوين ما وسط اللوحة ينمو باتجاهات غير معلومة، وكأنه صراع نحو الخروج بعيداً عن الالم والمشقة والحزن، رسم المرأة والرجل كأحد الثنائيات التي لا يمكن لاحدهما ان يعيش بعيدا عن الاخر، وسط زمكان مختلف ومتحول لا ثابت ولا ملامح تميزه عن زمكان اخر، هكذا كان يجول بأحلامه الملونة وسط حدود اللوحة، انها السيميائية التي حاول ان يعبر منطلقاتها الفكرية وعن كل تلك المرمزات التي وضعها في معظم اعماله الفنية، انها المدينة العراقية وما تشكله الابنية ومآذن المساجد وتجمهر الناس حولها مجتمعين تارة، ومتفرقين تارة اخرى، انها محاكاة للفرح والألم والحياة المتقلبة التي لم تعرف السكون في مجتمع قلق من المستقبل المجهول. لقد وضع بلاسم محمد كتله واشكاله الرمزية وكأنها علامات تحكي نصاً شعرياً نثرياً واضحاً. تلك العلاقات المتداخلة بينها، فالمرأة كانت حاضرة في خطابه البصري مع الرجل احيانا او منفردة تبحث عن مكانها ووجودها وسط الحصار والتقاليد والاعراف. انها الحرية المطلقة في التعبير عما يجول في خاطرها، وهي رمز الحياة والخصب في حضارة بلاد الرافدين، انها الحياة.. انها ايناننا... هكذا كان يعبر عنها ولم يكن بعيدا عن واقعه وحياته التي كانت جزءا من شخصيته المتفاعلة مع تحولات واقعه وزمكانه الذي

رسخه بحق في خطابه البصري المعاصر. وكما يشير الى ذلك (سيغموند فرويد) بان المشاعر الاجتماعية تقوم اساسا على تقمص شخصيات الاخرين، اي تعتمد في الاساس على الانا المثالي الشبيه بتلك الشخصيات، التي تختلف بحسب تعاملها مع الواقع بمختلف تحولاته وتأثيراته في الحياة المختلفة، التي يعبر عنها الفنان بصراحة مطلقة تتقمص الواقع وتستعد لمواجهة المستقبل. لقد تمكن من امتلاك موهبة خاصة في ميدان التصميم الكرافيكي الى جانب مقدرته العالية في الرسم؛ اذ استطاع ان يقدم للتصميم الكرافيكي العراقي سفراً مهماً جديراً بالدراسة، ومثاراً للإعجاب. انه بحق الفنان العضوي المنتمي لوطنه والمخلص لفنه الخالص بنقاء وجمال وحيوية.

من اعمال بلاسم محمد

فقدنا الكثير لكن الفارق أنك لا تعّوض

د. قاسم محسن حسان

رحيل مبكر لإنسان وفنان مفكر.. رحل الكثير من المؤسسين في الثقافة الفنية البصرية العراقية، وكان من بينهم الفنان التشكيلي والاكثر تأثيراً فيها، المفكر الدكتور (بلاسم محمد جسام الموسوي). هذا الفارس النبيل الذي ترجل من على صهوة جواده مبكراً، وكان مازال لديه العديد من المشاريع الثقافية والفنية المؤجلة، والتي لم تمهله المنية لانجازها، للأسف الشديد.

إذ يعد د. بلاسم محمد ابن مدينة النجف الاشرف المولود في (مدينة الكوفة)، عام (1954)، قد مارس الرسم على ابواب الخانات للأسواق الشعبية القريبة من مسكنه، والتي سببت له بعض من تلك المشاكسات اشكالية مع والده وبتحريض الجيران المحيطين ببيئته، التي كانت بيئة تعنى بالخط العربي والكتابة اكثر ما يكون من دور للرسم فيها. ذلك الفتى الممشوق القادم الى العاصمة بغداد عام (1968)، المكتظة بالحياة وفاعليتها ليكمل دراسته الابتدائية والمتوسطة ومن ثم يدرس الفن في معهد الفنون الجميلة - قسم الاكرافيك والخط العربي عام (1975)، ويذهب بعدها الى هنغارية ويعود ليكمل دراسته في كلية الفنون - جامعة بغداد ويحصل على شهادة البكالوريوس تخصص فن الكرافيك عام (1979)، وبعدها حصل على شهادة

الماجستير عام (1988)، ليكمل دراسته في فلسفة الفن ويحصل على شهادة الدكتوراه عام (2000). تأثر بالعديد من اساتذة الفن في بغداد، لكنه خط له مساراً فنياً يميز به فنه وبعيداً عن محاكاة فنون الاخرين. بعدها سافر الى المانيا وزار مختلف المتاحف الفنية العالمية ليكون ايقونة الثقافة الفنية والمؤثث لدعامات فنية جمالية حقيقية ومعاصرة تهتم بالذائقة الفنية الجمالية للمجتمع، وهو الواضع لقيم الجمال في الفضاء الحضري للمدينة، فلقد عمل على الاعلان الجماهيري وكان اول اعماله في ملعب الشعب، وتوالت نشاطاته الفنية، ومنها بعد عام (2003)، ليكون اول المتصدين بفكره وقلمه للهجمة التشويهية لمعالم المدينة التاريخية، والتي كان يتغنى بها الشعراء والكتّاب مدينة (بغداد) هذه العاصمة التي بناها العباسيون سنة (796_808) م. وقد سمى

المؤرخون المدينة بأسماء عدة ومنها: (المدينة المدورة، الرُوحاء، الزوراء، مدينة المنصور، مدينة الخلفاء، عاصمة الرشيد، مدينة النور، ودار السلام). التي كانت تستقبل الضيوف من جميع بقاع الارض وكانت قبلة للأنظار. هذه المدينة العريقة والتي اصبحت من اكثر المدن الحزينة في العالم لما لحق بها من خراب الحروب ودمار الغزاة الطامعين. كما تكشف لنا المعطيات عن مدى الاجحاف بحقها ومحاولة طمس معالمها الحضارية والتاريخية وتذويب وتمييع طرز بنائها المعماري والانماط التي كانت سائدة في عمرانها، والتي شكلت عبر الحقب الزمنية هويتها المتميزة عن سواها.

انه قامة كبيرة في مسار فن التشكيل العراقي، وفي مسار الثقافة النقدية للفنون البصرية الجمالية، وهو يؤسس لحراك فني بدوافع تطوعية مخلصة لثقافة بلده. ناهيك عن امتلاكه موهبة الخط العربي، لكن لم يدخل الحروفيات في رسوماته الفنية، بل كان ينتقد من استخدم الكتابات والجمل الحروفية داخل اللوحة التشكيلة، لكننا نجد تصاميمه الكرافيكية لا تخلو من الكتابات لايصال المضامين. لقد كان نتاجه الفني بأسلوبية اصبحت مميزة ما بين التجارب الفنية في الحراك الفني للتشكيل العراقي والذي بدأ مشواره الثقافي الاكاديمي في بحث مفهوم الفراغ في الاعمال الفنية واشتغالاته على منظومة الجمال بمنهجية التعبيرية الخيالية، وجعل لوحته تخلو من الوجوه والمحاكاة المباشرة لمرموزاته التي دوماً يحاول بعثرتها في آفاق متعددة من تكويناته البصرية في فضاء اللوحة، ومستخدماً رابط الخيال والعاطفة اللونية بالوانه الغرائبية وغياب مفهوم اللوحة، وترك التأول للمتلقي، والغور في سبر تكويناته الشكلية وشخوصه المتمايعة بانسيابية، وكأنها تسبح في فضاء، لا تحده حدود التكنولوجيا المعاصرة او قيود العولمة فقد كان يبغض الكتابات النقدية للأعمال الفنية، والتي تحمل بثناياها كلمات منمقة. لقد عرف عنه جديته واخلاصه لعمله ولفنه، تلك اللوحات التي انتجها في مشغله، وقد حرص على ان يختم الوانه الشفافة التي لا تخلو من لونه المحبب (الازرق الشذري) يختتمها بخطوط سوداء رشيقة بقلم الفحم، ومن ثم يثبتها على قماش الكانفاس ليتركها تجف، لتشكل ذاكرة بصرية مستدامة تؤكد على حب منتجها للألوان والحياة ومحاولة فك طلاسم تجارب الوجود.

كانت اول بصمة له حينما اسس دار ايكال للطباعة والنشر مع مجموعة من الفنانين. وبعدها تعددت نشاطاته ومشاركاته الفنية داخل وخارج العراق. ولمدينة (بغداد)، كان الاهتمام الاوفر، حينما صمم لها الشعار الخاص بمهرجان (بغداد عاصمة للثقافة العربية)، عام (2012)، هذا اللوغو الذي اعتمدته وزارة الثقافة والسياحة والاثار وتم اعمامه في مختلف المناطق والساحات العامة لمدينة بغداد. وكان لي الشرف ان يفوز ايضاً تصميمي للاستاند الذي حمل الشعار وهو مكمل لألوان اللوغو في حينها. بلاسم محمد عرف تدريسياً لمادة الكرافيك وله بصمة مميزة في هذا المضمار، فلقد صمم العديد من الشعارات واللوغوات لمختلف

المؤسسات الرسمية والمصارف والبنوك والعلامات التجارية بطريقته الكرافيكية التي تميز بها بالبساطة والتنفيذ وسهولة تلقيها لدى الجمهور المشاهد لتصاميمه.

إذ يعد الفكر الذي أتى به يؤثث لتنمية الذائقة الفنية الجمالية، والخطاب النقدي التنظيري للحراك الفني للتشكيل العراقي، والذي لم يخل من دوره كفنان له منجزه الفني المنتج من مشغله على وفق اسلوبيته الفنية واشتغالاته الحداثوية التي بُنيت على التعبيرية الخيالية، معتمداً على الاحساس اللوني في بناء العمل الفني المرتكز على ثالوث (الفكرة، البنية، التقنية) مُشيداً بها اعماله الفنية وبتقنيات وسائل الاظهار التي تميزت بها لوحاته. فقد امتلك الخيال والاحساس المتوج لرسوماته الفنية والتي باتت معروفة بأسلوبيته المتميزة لدى المُتلقي، فهو يؤكد على الظواهر في الحياة ومحاولة التعرف اليها بوعي، معتمداً في خارطة قراءاتها، على المناهج الحديثة ومنها البنيوية والسيميولوجيا. فالبنيوية تقرأ الكليات بمركزها المحرك لها، ومنها البنية الاجتماعية والبنية السياسية والبنية الثقافية وهكذا، ومنها بنى رئيسية وبنى فرعية وبين الحين والاخر تظهر مناهج في الفن، ونوع من الخطابات، فالبنيوية هي تحليل لظاهرة الخطاب. والتعرف الى العلاقات الرابطة لها مركزها، وهي تتحول بعيداً عن التطور وهناك بنية اخرى ثابتة. فالبنية في الفن الإسلامي على سبيل المثال تتكون من قواعد وعناصر ترتكز على الخط العربي والرسم والآيات القرآنية والزخرفة. لقد كان استاذ مادة السيميائية وفن الكرافك في كلية الفنون الجميلة. وقد امتلك وقدم اسهاماته الفكرية، التي شكلت اسهامات كبيرة، مهدت لظهور دراسة اكاديمية تعنى بدراسة العلامة اللغوية، ومفرقاً بين اللغة والكلام، والعمل على ثنائية العلامة. اذ وصف الكلمة مثل ورقة الشجر فكل جهة منها لها لونها ودلالاتها؛ فالأشجار تُعرف من ثمارها. فلقد عرفنا بأفكار سوسير وتأثيرها على مختلف العلوم الانسانية من انثروبولوجيا وأدب وعلم النفس. وهذه الدراسة التي تعنى بالبنيوية تلقفناها من استاذنا في السنة التحضيرية لدراسة لدكتوراه، خاصة من الفنان بلاسم محمد، المُفكر الذي عمل على منظومة التأثيث لثقافة فنية بآفاق واسعة، فهو يرى في المحور الاول محور المعاصرة والحداثوية في الجانب الفكري التعليمي والذي يعبر عن العلاقات القائمة بين الاشياء. اي اعتماده على الاشياء ومتغيرها المكاني. وكان دوما يشير ويضرب لنا مثلاً بالقلم.. إذا وضع في جيب الشخص فأنه يدل بطريقة دلالية على ان هذا الشخص متعلم. أي يقرأ ويكتب، ونفس القلم إذا وضع على آذان الشخص يرسل دلالات واشارة واضحة على أنه يمتهن مهنة النجارة. أما إذا وضع القلم نفسه على كتف احد الاشخاص فهذا مؤشر على انه رجل امن وهكذا. فالعلامات السيميائية تقوم على العلاقات بين الاشياء، وعلى اساس المتغير المكاني؛ فالقلم هو نفسه لكن المتغير هو المكان والمجموع الذي ينتج عن ارتباط الدال والمدلول. هكذا كان ا.د. (بلاسم محمد) يضع الامور في نصابها بشكل متوافق بالتمام والكمال، ولا يكترث

الى ما هو غير مُجد او غير موضوعي، أو الحديث عن المجايلات. لقد اكد ان أهم ما في الحياة هو (الاطار النظري) الذي يعنى بالاشتغال الخاص بالفن وتقنياته ومدى تأثيره في الحياة اليومية للمجتمع. كما كان لا يمتلك الوقت للحوارات المجانية والجلسات غير المُجدية، وكان جل اهتمامه بالفضاء الحضري وكيفية تطوير المشاهد وطرائق العرض، والعمل على اعادة فن العمارة لمدينة بغداد وحيوية المدينة العتيقة وتجميلها التي تحولت بطريقة غير مدروسة الى اشكال هجينة ودخيلة، ومن دون استشارة اصحاب الاختصاص والعمل على المزاوجة بين المعماريين من اصحاب الكفاءة والفنانين التشكيليين. لقد كان يؤكد على ان العالم اليوم هو عالم بصري وهو المحرك الرئيس فيه، ودور الادارة بإعادة انتاج كل ما هو موجود، وله علاقة بالتركيب المرتكز على بنية وعلامات تحيل او تؤشر مفاهيم الوصف العام بإيقاعات متنوعة تُضفي شيئا على مفهوم القيم الجمالية التي تعتمد على رؤى الفنان وفق إيقاع تكراري أو ايقاع هندسي أو ايقاع علامي، ببنى مختلفة على تحمل الاستعارات، (المرجعيات) التي تهيمن على الاعمال الفنية بوصفها توضع تحت اطار البنية المعرفية والفكرية للمجتمع، التي تكون بما يسمى الخطاب الفني البصري، ثقافة الفنان وايقاعية احساسه التكويني واللّوني، لتشكيل علامة داخل المُحيط، والتي تتكون من عدة عناصر ومنها (أيقوني، مؤشري، رمزي)، بعيداً عن فن الخطاب الاعلاني، والمواضيع المغلقة بتركيبية ما وراء الظاهرة والاستناد على الوحدة الكلية للعمل والعلامات الكبرى المهيمنة للسيميولوجيا للفنان نفسه في داخل العمل الفني. فهي الكيفية الفعالة التي تتشابك مع كل العناصر التي تؤسس النسق. أي أن العلاقات السياقية التي تتمسك بالنسق تربط الاجزاء ببعضها على وفق فكرة ما. هذا الفكر المعرفي الذي سعى (د. بلاسم محمد) عبر الى الكونتراس، أي المضادات اللونية، وكما في الحياة المعيشة المليئة بالمفارقات، فحينما نردد تسمية الصندوق الاسود في الطائرات نعلم ان الصندوق لونه برتقالي، وكذلك الذهب الاسود يطلق على النفط، وكما هي تسمية البطريق بطائر البطريق، وهو لا يستطيع الطيران. هذه المفارقات الحياتية التي تلقي بظلالها علينا، حينما نتلقى ونتعلم من هذا الفنان المثابر والمحب للحياة والطامع كثيرا بالمستقبل، نجده يستسلم للموت بعد فراق زوجته وحبيبته ليترك ذكرى مؤلمة في قلوب طلبته ومحبيه، وتاركاً إرثاً كبيراً مستداماً سيعمر أطول من عدد سنوات عمره. فقد كان فناناً مميزاً وناقداً تشكيلياً وكان منظراً ومؤثثاً لثقافة فنية وطنية بحرص واخلاص كبيرين.

قد رحل د. بلاسم بتاريخ (9/ 4/ 2021) وقد كان سباقاً بكل شيء.. حتى في رحيله.

افتراض المكان في أعمال بلاسم محمد

كريم سعدون

لم يأت الفنان بلاسم محمد الى الرسم الا من منظومة العمل الجاد والمستمر والتي قضاها كفنان ودارس للفن وباحث في التشكيل، فقد امتلك القدرة على قراءة العمل الفني واستقراء التجربة الفنية ودراستها بشكل علمي، وهذا هو الذي دفع باتجاه اعلان تواجده رساماً بعد قطيعة طويلة قضاها في التصميم الجرافيكي، وعرف فيها بوصفه من ألمع المشتغلين في هذا المجال، والاعمال التي عرضها ازالت الحاجز الذي وضعه بينه وبين المتلقي المعتاد على مشاهدة الاعمال الفنية، معلقة على جدران القاعات وبمواصفات تعني متابعتها، فشكلت اعماله حضورا لافتا ومفاجئا.

أعمال الفنان هذه، استعير لها تسمية الاعمال التمهيدية ودواعي هذه الاستعارة استخدامها هنا هي:

1- انها سحبت الفنان من منطقة تعبيرية، عدها لفترة طويلة اداة رئيسية في الاحتجاج ومواجهة التخريب المتعمد للذائقة، وبعد ان اصبحت هذه الاداة شبه معطلة ازاء مستجدات الواقع الراهن الذي فرض استحقاقاته القسرية والسريعة والمباغتة التي اربكت كل الحسابات المألوفة، الامر الذي تطلب الالتجاء الى وسائل تعبيرية ذات جدوى كممارسة انسانية فاعلة، ولم تكن عند الفنان سوى العودة لخياره الاول وهو الرسم وأداته القادرة على قول ما يريده، علما أن بلاسم كان يترك تخطيطاته في اماكن تواجده من دون ان يلتفت لها.

-2 قدمت مجموعة العرض، بلاسم محمد رساماً واثقاً ومستقرئاً لمحيطه الفني وواعيا للتجربة الفنية التشكيلية ومساراتها، مبتعدا عن السائد من الكم الهائل الذي تغص به صالات العرض والذي يستعصي على المرء فرزه في احيان كثيرة، خصوصا وان البيئة التي عرض فيها الفنان تتحكم فيها قوى السوق الفنية التي تمتلك القوة في فرض خيارات التلقي وتوجيه طاقات العرض اليها.

ان ما عرضه الفنان من اعمال أشرت معرفته الكافية بمسارات العرض تلك، ورغبته في الوقت نفسه في السير باتجاه العروض الحرة التي تحاول تقديم نفسها لمتلق يبحث عنها، ومحاولة لتحييد الدفع بالاتجاه الاخر،

ويكون بذلك قد ابتعد بشكل كامل عن متطلباته وشروطه واستطاع ان يملي شروط عمله الفني، فجذب اليه المتلقي واثار الوسط الثقافي.

لقد عمل على الاختزال الشديد في مفرداته الموزعة على المساحات التي اشتغل عليها وتراوحت في الاستخدام الشفاف للون واطلاق طاقة الخط ليلعب بحرية غير محدودة في تشكيل كتله، وهو هنا لم ينس استخدام ريشته الكرافيكية في الفترة الطويلة التي قضاها مبتعدا عن قماشة الرسم، بل اتى بها هنا محملة بكل الطاقة التعبيرية التي يمكن ان تمنحها لاشكاله وتكويناته الكلية، ما دعا الى الاعتقاد ولو للوهلة الاولى بان الرسام تعمد ان تكون هي الهدف وهي الموضوعة الرئيسية في العمل، وهي التي تمنحه تأثيره، وتبدو محاولة في استثمار طاقة الخط على التعبير وتوزعه الحر على مساحة العمل وتشكيله للكتل الموجودة، هو كل ماسعى اليه في الوقت الذي لم يعد للمتلقي رغبة في تقويل عناصر اللوحة الاخرى، ولا مبرر لتقويلها، ولكن المتأمل لاعمال بلاسم يجدها تفيض باستذكار شفاف، لاماكن يستعيد الفنان تشكيلها ويترك

للخط حرية تحديدها. اماكن تعيش في حلم يتنامى باستمرار، ويحرص على نسخه كل يوم، ويعيد تركيبه ليعطيه بناءً متجددا في محاولة دؤوبة للقبض عليه بشكل دائم حتى في حالات يقظته، ويشكل منه مادته للسرد، ويتبادل فيها الادوار مرة كخالق، ومرة كمتلق، وليشكل بذلك معادلا موضوعيا للواقع المفترض، فإن تتلبس حلما بمكان يستحوذ على مفردات اليوم، يستدعي اداة مناسبة لتمثيله، وتتساوى في الاهمية التي تتطلبها بيئة العرض ومناخاته ومقدار تحديها، والاداة التي حرص على استدعائها هي استخدامه الحر للخط الذي اعطى تمثيلا كافيا تكون فيه استمرارية وتواصل امدته بقيمة فعلية ومقتدرة على استعادة الحلم وتمثيله.

اعتمد الفنان في اعماله على استعارة تركيبية تكشف عن علاقات الحضور والغياب، مثلها في تشغيل الثنائيات المتمثلة في تضادات قيمية، عمادها العتمة والضوء والكتلة والفراغ والداخل والخارج، وفي استخدامه تضادات القيم اللونية المختلفة والتي حرص على انتقائها واختزالها بشدة حيث كان قاموسه اللوني مركزا على مفردات لونية معينة، خدمت الى حد كبير هدف الفنان الرئيس، اذ كانت تتحرك باتجاه العمل على استعادة توقه الى تشكيل المكان المفتقد، البيت، المدينة، الوطن، والتي تشكل حفرا في ذاكرة الفنان والمتلقي على حد سواء.

يحضر الحدث بشكل لافت بتأثير عمل الثنائيات والتي احدثها كأثر اجرائي متمثلة في حركة الكتل التي تحدثها الحرية اللامحدودة لحركة الخط ويستحيل المشهد الكلي الى افتراض وجودي ومكنته من طرح اسئلته بحرية من دون انتظار للاجابة.

ان الفنان باستحضاره الحدث يثير في المتلقي احساسا بحضور مكاني يشكله قاموس يضع للمفردات مسمياتها مع بقاء الحضور الافتراضي في ظل غياب حقيقي للمكان.

يتحرك اللون في اعماله تبعا لحركة الخط في ذات الوقت الذي يمنحه الحرية في التشكل والانتشار ويستفيد الفنان من هذه التقنية في احداث التضادات المطلوبة ايضا وفي تركيز الاحساس بالكتل وانسجامها على سطح العمل الفني وتحييد وجودها. ولعل الاعمال الجديدة له تحمل معها الحضور الواثق لفنان وناقد، طالما اثار جدل الاختلاف.

مرآتانِ لكوكبٍ لا يَرى

خالد الحلّي
ملبورن – استراليا / خاص

– 1 –

فوقَ مرآتِكَ كوكبْ
يرتدي خارطةً مُرتبِكةْ
يختفي ثم يعودْ
بعيونٍ باكياتْ
أو عيونٍ ضاحكاتْ
دون أن تدري لماذا
عندما تذهبُ للنومِ
تراهْ
هربتْ منه المياهْ
ناسَهُ دون شِفاهْ
نائماً فوقَ حقولٍ شائكةْ
فتغطيكَ رؤاهُ الحالكةْ
وتنامْ

– 2 –

حينما استيقظتَ ما كانتْ على الحائطِ
مرآتُكَ
بل كانتْ هناكْ
فوقَ أوراقِكَ مرآةٌ تراها
لا تراكْ
لا يرى الكوكبُ
ما أنتَ تراهْ
يلعنُ الظلمةَ، يبكي وينامْ
وبمرآتكِ كانتْ مُسرِعةْ
مدنٌ تَهرُبُ من خارطةٍ صارتْ تضيقْ
سفنٌ تغرقُ في بحرٍ عميقْ
وسنينٌ ضائعةْ

نصوص

كولالة نوري*

1- كسورُ الروحِ العُشرية

إلى أصدقائي المغادرين

«أنتِ، لا تموتين عليّ»
لو بدأتُ بالموت عليكَ
سأنخلع منك بلطف الثلج
حين يتعانق مع المطر في مساره
ستظهر بأسماء عدّة...
لكن ما تغتاله من روحي يعرفكَ من
صوت أصابعكَ وهي تتكتك على
النافذة
أن أموت حبّاً، فكرة مغرية!
أمام الموت بطلقةِ كُرهٍ أو – قصداً –
بـ(نيران صديقة).
لا أستطيع الموت عليك،
الكسور العشريّة تقسّم روحي، توقّف
الموت دفعةً واحدة!
لقائمة تطول:
لِضفافٍ تتحوّل لأضرحة مجهولين.
وعشرٌ لروحي التي تدق باب السماء
قد تُفتَح هوة للعراق
وتبعث ببعض البرد
أو بعض الوقت لتغيير كسوة الحداد
كسوة الصباح والمساء!
كسوة الصيف والشتاء للعقود الثلاثة.
لن أموت عليكَ
سأضحي بعُشرك حيّاً
خوفا على نوعنا العراقي من الانقراض
الأطياف التي تكره الألوان،
تغتصب الشوارع لتخلّف الأموات.
ولأنني حبلى بمقابر لن أجد لحدا ليحبل
بي!

فأين ستضع وردةً؟ دع عُشرك حيّاً
متى ستقرأ الشاهدة
إذا تقاطع وقتك مع شظية.

2- حين تودعنا المراكب
الميتون وحدهم المرحون
اكتمل حزنهم منذ حين.
أما نحن ولفرط الملل والوحل
والاغتراب
نستظل في صحاري بعضنا ....
نستجدي رقصة حميمة
نحلم بالقبلات البلّورية
عندما تودّعنا المراكب
نبكي على المفترق حتى آخر دمعة
نسمع الأغاني الحزينة
وحين نستهلك الأدوات ندّعي النسيان،
لكنّنا نكون قد انتهينا.

3- في هذا البلد الأسمر
في هذا البلد الأسمر
ورثنا ثيابا سود
وأفكارا سود
ومطرا اسود
وشاهدنا إعدام النخيل
وقتل الأنهر
في هذا البلد الأسمر
حين تحب امرأة
تتمسك بقوس قزح
الى أن تخونها الشمس
وتبقى وحيدة تحت المطر.

4- كلازمة كورال
ألا توجد في هذا البلد أغنية
أغنية طويلة من باب الصباح حتى عيون
الليل
أغنية كشجرة معمّرة تورق كل ألحان
العالم
تردّد اسمك بين دقيقة وأخرى ك«لازمة
كورال»؟
اسمك هذا السرّ الأبيض، الواحد
الأحد،
أردّد كوجع في الرأس حروفه
وألوكه كنهم لا أفقده
اسمك الحرّ المقيّد بقلبي ليس لي.
ألا يوجد في هذا البلد ما يكفي من
أزرار محكمة

وما يكفي من ضوء لأجد يديك أمامي،
بين حشد من قمصاني المقدودة من دبر،
وما يكفي من خصوبة التمائم
لأصدم بك كأفرع الصفصاف على الأرصفة؟
ألا يوجد في هذا البلد ما يكفي من ندم
لتركع قناديلي على ترابك
تكفيرا لتهذيبي ولإسكات جيش النساء فيّ؟
ألم تعد عندي حماقات مناسبة
لأستبسل بغير الدمع أمام هذه المسافات
مثلا أن أسكب في الأفق صوتي،
وأزيل الغبار عن أسرار الورد،
وعن فارسة معطلة عن تلاوتك في كرنفال؟

5- صوتك الذي يضيق
يا روحي العزيزة
ارتدِ القمر
واشربي الضوء
فالفضاء مزور
والعطش حدود اطرافكِ
الثقوب الموزعة على هذا الحب
معابر للريح والأصوات المشحوذة
كسكينة خبيثة تنتظر ضحكة لتقطّعها،
وتترك دِلال البكاء لي.
يا مائي الحزين يا بلادا من النساء
الحرب مستمرة وهو دائرة مشفرة،
رجلُ نهايات جاهزة، وعشبهُ تحت صوّان
يا روحي العزيزة انتظاركِ يحترق
والمكان يتسكّع مطرودا من الجنة
الضباب مستمر في التشعب مثل الطيش،
والثقل الطويل أصبح فارغا من المعنى،
القسوة بدورها تتقاطر
كما الجنود الزاحفين نحو نهاياتهم.
لو كنتُ دميةً
لابتهجت في هذا التيه
ولنحتُّ من وعدك قلبا من بلاستك
ولأقنعتُه بالضلالة
كي لا يصاب بحقيقتك.
لكن وجعك مثل الظلمات حين تسطو
على المحيطات
مثل الفجر الفاتح للأسرار

والقش الذي يكسر ظهر الفرح.
ما أكثر التورّم في ذاكرتي
ها أنك تحجز شطرا لك، تقصّر الكلمات
وتسمَم طفولتي بأحجارك غير الكريمة.
ها أنت مُتعَبٌ ومُتعِب
تبعثرُ أصابعي الممتدة على الأرقام،
لأكون أكثر بعدا،
وأنت أكثر قربا لضيقي.
صوتك الذي يغيب
جزيرةٌ مقلوبةٌ
وعطرٌ أخرس
وسكة فارغة طرشاء.

*** شاعرة كردية تقيم حالياً في امريكا**

ما معنى ان تكون عراقيا؟

احمد المشتت

ان تولد جائعا
محروما وممنوعا
يقولون عنك سومري ويسلخون جلدك الاسمر
ان تلعب كرة القدم باقدام حافية
تسجل عشرات الاهداف دون مصفقين
ان تركض في شوارع
اسفلتها يحرق جسدك النحيل
ان تكون ظامئا دوما
وانت ابن الرافدين
ان تفتش في حبات التمر عن نخيل ضائع
ان يصفعك مدير المدرسة لانك لم تحتفل بعيد الطالب كما يجب
ويستجوبك زميلك الذي كان يلعب معك صباحا ويهددك بالفناء ان لم تنتمِ
وتردد شعار الخوف
ان تطفئ النجمات وانت غافٍ على سطوح الدور الحكومية نجمةً نجمةً حتى
تستيقظ شمس البلاد الذهبية
ان تأتي عماتك كل ليلة خميس ليفرشن دار السجين السياسي، ابيك، بالمحبة
والفقدان
ان يكون السجان جارك الرفيق
ان لا تخلد للنوم بصفة حالم
وتوزع الكوابيس معنى حياتك الاول على دقائق نومك

ان تكون شحاذا في وطن لا يصغي الى هتافات جوعك الازلي
ان تتيه في دروب تعرفها من كلية الطب الى الميدان وشارع الرشيد حتى السعدون المختنق بالشعارات
ان تكون ورقة بيضاء مليئةً بالأختام
ختم الولادة
وختم الاعتراف بك عراقيا
«ختم ال» جندي مكلف
ختم الحرب
وختم الحرب ايضا
والحرب الاخرى
وتلك التي ستلي
والحرب التي نسيت
ختم يسلمك الى ملف الدولة – السطوة
متهم انت بالصمت
واستدعاء اصدقائك الميتين لحفلة التفريط بأمن الوطن والهروب من الشظايا التائهة في نهر جاسم
بحاركَ غير زرقاء
ونساء عشقكَ وهم
تولد برداء حرب رث ووجه ملائكي يرصده حراس مهترئة اعمارهم
معنى ان تكون عراقيا؟
ان تموت في ساحة الطيران قبل ان تولد
وكيف تولد؟
وانت معنى الموت
وعنوانه الاوحد

حلمِي وحلمك

الى الشاعر الرحالة: بدل رفو

د. ميسر الخشاب

حلّق حرّاً في أجنحتكْ
تنزل في وادٍ مشمس،
أو وادٍ معتم،
او تنزل شوقاً في حقل أخضر
كيف لا ؟
منزلُك الباقي- أعجبُ- لا تنساه
كمْ يا طيرُ حمَلنا أضلعَه
في دمِنا وقصيدتِنا
يا طيرُ يليقُ بكَ السفرُ الشعريُّ
من الموصل الى كردستان،
ومن كردستانَ الى ضفةِ الدنيا ..
لم تسقط يارفو في بئر الخوفِ،
وطابورِ الشكوى..
حلّق للأعلى
بأغانيك موحدةً
بشوارع أهلك نحو الأعلى..

×

حين رأيتك أوّل مرّةْ
في الصفِّ الأولِ كنتَ،
وفي الثاني سرتَ، وما زلت..
فمشيتُ اليكَ مَعكْ
ومشيتَ الّيَّ معي
يا لك من أجنحةٍ تحمل عشقاً لا يهدأ..!
اشرب، تجد 'الفاروقَ، النجفيْ
مثلَ الشيخانِ' × تردّدُ اسمكْ..!

* أسماء شوارع وأماكن في الموصل القديمة ونينوى.

الكليجة

محمود سعيد*
شيكاغو - خاص

كانت فرحتي لا توصف حينما قرّرت أمي أن أذهب إلى ابن عمي في كركوك، لأحصل على ثمن بضعة خرفان، يبيعها لنا بين مدة وأخرى هناك، تعيننا على الحياة، كان ابن العم طه، يأتي بها بنفسه، فيسلمها لأمي، وهو واقف، لا يجلس، متجاهلاً دعواتنا جميعاً، أمي وإخواتي وأنا، ثم يختفي حالاً، حتى أنّه لا يحتسي الشّاي، وقبل أيام وصلت رسالة منه سُلمّت إلى زوج أختي البزاز، في سوق (العتمه ي)، فجاء بها مساءً، بعد أن أغلق محلّه. كان متضايقاً، منفوخ الوداج، وكأنه أرغم على الالتحاق بجيش كلّف بتحرير جناق قلعة، فقد سار نحو مئة خطوة مرغماً إلى بيتنا، ليلتقيني في رأس "العَوْجي" وضع الرّسالة في يدي، ثمّ شدّ أصابعي عليها، غمغم: "دير بالك" لا تضيّعها. لم يقل ممن. وعندما قرأتها في البيت، بصوت عالٍ، هزتني الفرحة، فركضت حافياً إلى صديقي غانم أخبره بالنبأ المفرح، وأمي تصرخ بي أن أنتعل شيئاً، فالطّرق موحلة، مليئة بالمسامير وشظايا الزّجاج، لكنّي لم آبه لها. ضحك غانم من كلّ قلبه، قال لي إنّني أحلم برؤية كركوك أو السّليمانيّة لأشتري سنجاباً أو عندليباً مغرّداً، يجيئون به

من الجبال، أو "دبس" عصير الرّمان المركّز "هه نار" الذي يلذع اللسان، ويجعلنا نقفز كالقرود. ثم تنهّد: لكن من أين نأتي بالفلوس؟ حدّق بعينيّ، سألني باهتمام: هل تستطيع أن تشتري واحداً؟

كنت أرى الباصات الخشب، المصنّعة محليّاً، التي تذهب يوميّاً إلى أربيل وكركوك، واقفة قرب المكتبة العامة، في ساحة البلديّة التي تنتهي بجسر حديد عليه صورة الملك غازي الأول، ورقعة حديد مقحلة، أصغر من الصورة مكتوب عليها اسمه، وسنة افتتاح الجسر، ولذلك لم احتج إلى أحد يرافقني إلى هناك صباحاً، كان الشّيء الوحيد الذي أوصتني به أمي، أن أحرص على الفلوس عندما اتسلمها، وأضعها في جيب سريّ خاطته تحت جيب دشداشتي، وأعطتني مصرف

الطريق فضلاً عن "كروة" الباص.

السّائق شاب متوسط القامة، أزرق العينين، يرتدي قميصاً من الخاكي المستعمل "لنكة". فتح الباب الأخير للباص. أشار إلى المقعد الخلفيّ، حيث تجلس امرأتان، الأولى عجوز قرب الشّباك الأيسر، والثّانية تغطي وجهها بـ (البوشي)، ومعها طفل بين الثّالثة والرّابعة، وآخر رضيع على صدرها. أشار السّائق إلى الفراغ على المقعد الذي يتسع لاثنين آخرين، ولم يتكلّم. أخبرته أنني سأختار الشّباك، فهز رأسه موافقاً، هه، ها أنذا جاء دوري لأركب الباص الذي رأيته كثيراً، كنت أغبط من يستقله.

بعد نحو دقيقة واحدة لا أكثر، جاءت امرأة تستر وجهها بـ (البوشي) أيضاً، ومعها طفل في مثل عمري "الثانية عشرة"، يرتدي دشداشة دكناء مخطّطة من الكتّان الثّخين، وينتعل مثلي أيضاً "كلاش"، لكنّه أنظف من "كلاشي" المترب، المقحل، ويتدلى من كتفه سير قهوائيّ من الجلد، جراب أنيق من الجابان "الخام الأسمر" المنقوش. ومن ميلان كتفه القليل، قدّرت أن فيه شيئا يزن نحو ثلاثة كيلوات، لا أكثر. توسلّت المرأة بالسّائق أن ينزل حازم، قرب جامع الشّيخ، في بداية كركوك. فهزّ السّائق رأسه، تمتم: على عيني. سنبدأ بالسّير الآن ما إن يصعد، نحن ننتظره، هو الأخير. ثم تقدمّت إليّ، وربتت على رأسي "قصير الشعر": "حازم أخوك، ألله يخليك، ليساعد أحدكما الآخر. وبلهجة لطيفة سلّمت على المرأة التي سيجلس حازم بيني وبينها، وأوصتها به أيضاً. كلّ هذا وحازم ممتقع الوجه باحمرار يكاد يذوب من الخجل، لتصرف أمّه، لكنّه لم ينطق أيّ كلمة. فردّدتْ أم الطّفلين: إن شاء الله، إن شاء الله، ثم انتزعت أمّه كيس الجابان، من على كتفه، ولفّته بسيره، ودحسته تحت مقعده. قالت له: ارتح منه، لا تضعه على ركبتيك، يتعبك، الطّريق طويل، لكن لا تنسه. تمتم: لا.

قبل أن تنهي كلامها سمعت صوتاً عالياً "هييي". التفتت إلى اليمين. انتصب صديقاي غانم وصبحي، وهما يضحكان، قال صبحي وهو يشدّ على ساعدي جئنا راكضين لنراك، أكمل غانم: أنت محظوظ تجلس قرب الشّباك، سترى كلّ شيء من هنا إلى كركوك، قهقهتُ: "نعم". آنذاك سمعنا صوت تشغيل السّيّارة، فتصافحنا سريعاً، مرة ثانية. أفكر رغماً عني بفرحتهما البالغة آنذاك، كما يفاجأ احدنا الآن بأنه ذاهب إلى نيويورك، لندن، باريس، بطائرة نفاثة لا بباص خشب، وأسأل نفسي إلى ذلك الحدّ كنا معزولين! بحيث تثير الرّحلة إلى كركوك أو أربيل مثل تلك المفاجأة أو الفرحة؟ بعد ذلك شددت الرّحال إلى دول عديدة وأمكنة مهمّة في العالم، فلم أجد في نفسي توقاً يماثلها! كأنّها امتصت كلّ التلهف وتوقّعات الدّهشة، والمغامرة عندي.

أخذ الباص يبتعد وصديقاي يلوّحان لي. وأنا في منتهى سعادتي. ثم أصبحا وراء الباص حينما اتجهنا نحو الجسر الحديد، فلم أعد أراهما، بدل ذلك تعلقتْ

عيناي بالنوارس البيض الكثيرة وهي تتصاعد في السّماء ثم تهوي بسرعة إلى سطح الماء، لتعاود الصّعود.

كنت أرى هذه المنطقة، أعرفها شبراً شبراً، وأعرف من يشغل دكاكينها، وأوصافهم، وما المهن التي يزاولونها، وأحب نتاجها المنوع، لأني أمرّ عليهم كلّ يوم في العطلة الصّيفية، إلى دكان أبي. كنت عبرت الجسر الحديد، كذا مرّة، لكن لعبوري هذه المرة بالباص الخشب، وأنا قرب الشّباك طعم فريد يتميز بنكهة لا مثيل لها، لكوني سأسافر إلى كركوك. تلك النّكهة مازالت بعد أكثر من ستة عقود على طرف لساني.

إلى يميني قهوة الثّوب، بأدوارها الثّلاث، وتلك منارة جامع الأغوات القزمة، التي صعدت وسامي اليهودي، إلى حوضها المدور، وأخذنا نؤذن في غير وقت الصّلاة، فتداعى النّاس غاضبين يكادون يجنون، ولو أمسكوا بنا لقتلونا، وهذا هو دجلة الشّيخ المتعجرف، لا يني يسير منذ فجر التّاريخ. المياه تندفع فيه متبخترة، ينعكس عليها ضوء نهار باكر، فيسكب عليها ذهباً صافياً، لتبدو أشبه بصفحة زجاج يتموج بين الأصفر ولون الفضة العاكسة للّون، وهذه زوارق الصيّادين تعانده بفضاضة وقحة، تكسر زجاجه في غير مكان، وهذه غاسلات الصوف، يخطرنه، باستمرار ليخلصنه من الشّوائب، غير مكترت ببرد الماء أو زمهريره، مشمرات عن أثوابهن إلى وسطهن، عارضات أفخاذ بضة بيضاء شهيّة، وويل لمن يقف على الجسر فوقهن، وينظر إليهن من الأعلى، ليفاجأ بحصاة تفجّ رأسه، فبقربهن حصىً، وفيهن مهدّفات لا يخطئن قطّ، يفجُجن رؤوس "الشّلاتيّة، السّرسريّة، ولا من محاسب".

بانتهاء الجسر تنتهي المناظر الجميلة في يمين الطّريق، وتتركّز الحدائق والبنايات والجمال كلّه في اليسار، حتى تبدأ أرض قفر من نهاية الفيصليّة إلى المدن الأخرى. لم أستطع تمييز أيّ حيوان، أو شجرة، في الطّريق الطّويل، اللهم إلّا بعض الماشية والحمير وفلاحين قلائل عندما اقتربنا من الحمدانية وتلكيف، وبعض النّواحي والقرى البعيدة جداً، فتملكني السّأم، وأظنني غفوت غير مرّة، وأفقت مرغماً لحركة الباص، في ارتفاعاته وانخفاضاته المفاجئة، والتي تتوالى باستمرار مزعج. كان يتقلقل دائماً، لتآكل القير في بقع كثيرة. فهو يفاجئنا بنزلة لا نتوقعها، ثم يرتفع حالاً، وأحيانا تكون الحفرة أعمق من أن نتحمّل تأثيرها، فنصعد نحو نصف قدم في الهواء ثم ننزل، مائلين على بعضنا، ونقع على قفانا، ولا شكّ أن رؤوس طوال القامة تعاني من آلام نطح سقف الباص الخشب، الوطيء، لكن ذلك لا يشملني وحازم لقصر قامتينا، ولما كان المقعد منجّداً بطبقة رقيقة من الأسفنج والجلد، فقد بات بمرور الأيام أشبه بقطعة من الخشب لصلابته، تؤذي الفخذ وتبري العظم.

أفقت بعد حين على صوت وقوف السّيّارة، والسّائق ينبهنا بنبرة عالية: الخازر. إذن هذا هو نهر الخازر الذي يصبّ في دجلة، كنت قرأت عنه في درس

الجغرافية، أقصر أنهار العراق، وروافده إلى دجلة، نزلتُ، رجليّ مخدّرتان لا تحملانني، كدت أقع، لكني تشبثت بالباب، عظامي تكاد تتقصف، حركت يديّ وملت إلى اليمين واليسار بتلقائيّة، لأختبر مرونة ظهري المتيبس. نظرت حوالي، كانت هناك دكّة من الطّين تحت مرتفع لا يعلو أكثر من بضعة أمتار، يجلس عليها بضعة أشخاص، فيهم اثنان بزي كرديّ، وعربيّ وابنه الذي، ربما يكبرني بعام أو عامين، لكن الجميع كانوا يجلسون فرادى، ويتمتّعون بمنظر الجسر والتلال البعيدة، وارتفاعات متتالية من الحصى، وبمياه الخازر الصافية الزّرقاء المنسابة أمامهم بهدوء، بينما توزّع الركاب الآخرون في البريّة، لقضاء الحاجة، وابتعدت أنا أيضاً لأريح مثانتي، وإذ انتهيت التقيت حازماً راجعاً أيضاً، فأخذنا نتحدّث، ونحن نتمشى على الجسر الحديد الذي لا يزيد طوله على عشرين متراً. أراد حازم أن يعرف إن كانت رحلتي هي الأولى إلى كركوك مثله؟ فأيدت بهزة رأس.

لم يكن الجسر مرتفعاً عن الماء كثيراً كجسر الموصل، ربما ستة أقدام فقط، بينما عرض نهر الخازر لا يعدو على ثلاثة أمتار، ولم يكن عميقاً أيضاً، إذ يبدو قعره واضحاً لأعيننا، ومع ذلك بدت بعض الأسماك بطول نصف ذراع، ربما أكثر تتحرك بهدوء تحت الجسر، وبوضوح شديد. مياه زرقاء تضرب الى الخضرة، فوق قاع رمادي مكمود، حصى متفاوت الحجم، بينما كانت أسماك صغيرة أخرى كثيرة، تتجمع عند الحافة ثم تتفرق بين حين وآخر فزعة مرعوبة، لسبب لم أتبينه. عندما علم حازم أنّني سأرجع غداً صباحاً، تأسّف وتعكّرت ملامحه، ثم قال: ظننت أنّك ستبقى مثلي أسبوعاً، قلت لنفسي ربما ندور في المدينة معاً، لأنّي لا أعرف سوى جار لي انتقل أبوه من عين زالة إلى نفط كركوك.

"وماذا عن الناس الذين ستذهب إليهم؟".

"أختي فقط، تزوّجت قبل شهرين. زوجها عسكري. لا أعرف كيف سأقضي وقتي وحيداً".

وماذا عن الجار؟

أشك بأني سأذهب إليه، يقولون المكان بعيد.

ثم سمعنا صوت تشغيل السّيّارة، فأسرعنا، لتبدأ البرية تُطوى تحت عجلاتها، حتى رأينا بعد أقل من ساعة قلعة دائرية جميلة مزخرفة عالية، على مرتفع من الأرض، قالوا إنّها قلعة أربيل الشّهيرة. لكن الباص استمر بالسّير رغم أنّني كنت أود أن يتمهل أو يتوقّف لأدقق بالقلعة الشّهيرة العالية، المحكمة، التي لم تصمد أمام جيش نادر شاه سوى أربع ساعات، ولأرى آثار دماء المقاومين، الذين ذّبحوا جميعاً على بوابتها. نظرت من الشّباك الخلفي الصّغير جداً إليها وهي تتكمش وتتضاءل حتى تلاشت بسبب البعد ثم اختفت، بينما كان السّؤال يحوم في ذهني باستمرار "هل سيقدّر لي أن أراها عن قرب؟".

ثم أغمضت عيني، بتأثير حركة الباص، لم أدرِ كم غفوت! لكني فوجئت

بوقوف الباص، وصوت السّائق، يلعلع: أنزلوا، هذا الزّاب. عندكم ربع ساعة فقط.

جسر حديد صغير أيضاً، لكنه أكبر من جسر الخازر ببضعة أمتر، قرأت عن الزّاب بالجغرافيّة كذلك، السّاعة الثّانية عشرة، نزل الرّجال كلّهم، لم يبق سوى المرأتين. انحدر قسم منهم للوضوء بالماء الصّافي، الرّقراق. كان أغزر من ماء الخازر، ينساب أسرع منه ومن دجلة، يغري على العوم، وكان أيضاً أعمق من سابقه، وأسماكه أكبر، رأيت سمكة بطول ذراع أو أطول، تنساب برشاقة، وخيلاء كملكة جليلة، تعتزّ بشخصيّتها، كانت أضخم سمكة حيّة رأيتها حتى ذلك الوقت.

رغم الظّهيرة والشّمس تترع الكون بأشعتها الدّافئة كان النّسيم بارداً، وأظنني شممت رائحة شيء طيّب، فشعرت بالجوع حالاً، تلفتت حولي فرأيت مقهى صغيراً فيه ثلاث مساطب بدائيّة، مصنوعة بشكل فجّ، غير مصبوغة، عليها بعض الرّواد عرباً وكرداً، يجلس على أقرب واحد منها شاب، حليق شعر الرّأس، أمامه قدر متوسط الحجم فوق صندوق فاكهة فارغ قديم، وقربه إلى اليمين زنبيل قديم متّسخ دائريّ كبير، تشدّه قطع من الخام الأسمر، خيّطت في حافته الدّائريّة، كي لا ينشقّ فيهدر ما فيه. ولا بدّ أنّه يحوي أشياء مهمّة، لأنّها مغطاة بقطعة قماش أبيض مخطّطة بالأزرق. سبقنا أحد الرّكاب، وتكلّم معه بضع كلمات. تناول الشاب من تحت غطاء الزّنبيل حبّة طماطة أكبر قليلاً من الجوزة، وقطعها أربع قطع، في صحن صغير من الفافون، ثم قطّع كذلك رأس بصل صغير بحجمها، لم يقشره، وبعد ذلك فتح القدر، وأخرج حزمة من اللوبيا المسلوقة الخضراء، فانطلقت مع البخار رائحتها قويّة مخدّشة للمعدة، ووضع فوق الكل قرص خبز استله من الزّنبيل من تحت الرقعة المخطّطة. أخذ الرجل يأكل بنهم أشعل شهيتي، يمضغ بفم مملوء وهو يمشي قبل أن يجلس على الدّكة، فتقدمت والرّغبة تكاد تعميني، وأخذت التّشكيلة المغرية نفسها. ودفعت ثمنها عشرة فلوس، وفعل مثلي حازم، وبعض الرّجال الذين كانوا في الباص. كان للوبيا في تلك اللحظة لذّة هائلة ما زالت تحت لساني، وحين نزلت إلى النهر لأغسل يديّ، سمعت صوت السائق يهيب بنا أن نسرع، فهرولت. رأيت حازم يقف بالباب ينتظرني. تحرّك الباص حالاً. ثم بدأت عيناي تطفو على البريّة اليابسة الصّفراء، الخالية من أيّ نبات أخضر، سوى بقايا زرع محصود، أحرقته الشّمس، وبعض أوراق الأعشاب البريّة السّفلى من ورد الشّوك، البنفسجيّ، ذي الحجم الكبير الضّخم الفاتن أيام الرّبيع، الذي ينتشر في تلك البراري من الموصل إلى ما لا نهاية. لم أتوقّع أن تكون تلك الوجبة الصّغيرة طيّبة، وأخاله أنّها أعجبت حازماً أيضاً لكنّي لم أسأله، غلبني النّعاس لحركة الباص المتعبة، وأنا أنظر إلى الأرض الصّفراء تطوى تحتنا بسرعة، وجسدي يهتز على الرّغم منه حتى فززت على صوت هائل، أخافني كثيراً، كان أضخم

صوت أسمعه في حياتي، جمدت دمائي، ارتجفت هلعاً، مرعوباً. اهتزّ الباص، وكاد ينقلب. ثم توقّف. ما هذا الصّوت؟ ولماذا اهتزّ الباص؟ لكنّي اطمأننت بعد أن سمعت أنه كان انفجار إطار السّيّارة. إثر ذلك الصّوت المدويّ وأنا أفتح عيني رأيت بضعة عصافير وهداهد صفر، كانت جاثمة بين بقايا النباتات الصفراء اليابسة، لاحظتها تطير حالاً، ورأيت أيضاً بضعة أرانب صغيرة تجري مرعوبة بسرعة شديدة، في غير اتجاه، لم أر طول الطريق عصفورا، هدهدا، أرنباً قطّ، ظننت أن لا حياة في تلك الأرض الجافّة، أكانت نائمة ففززها الانفجار كما فزّزني وكشفها لعيني؟ لا مناص من هروب نظراتي من داخل الباص، حيث لا أرى إلّا كوفيّات الرّجال الذين يجلسون أمامي، وبضعة عمائم كرديّة، لهذا كنت التفت إلى اليمين رغماً عني، حيث البرية واسعة، فهي على الرغم من كونها قاحلة، إلّا أنّها غير محدودة أولاً، ومتغيّرة تجلب النّظر ثانياً، هذه هي فوائد الشّباك، يسمح لي أن أتجول في أرض الله الواسعة، مختلفة التّضاريس، وأنا جالس في مكاني.

سمعت الرّجال حين صعدت الباص يتوقّعون وصوله قبل الغروب بنحو ساعة، لذا بتّ مطمئناً إلى أني سأصل كركوك بوقت يسمح لي بالذّهاب إلى ابن عمي، وجلب ثمن خرفاننا التي باعها هناك، والبقاء معه حتى أرجع في اليوم الثّاني في أول باص إلى الموصل.

عندما انفجر الإطار صاح أحد الرّجال داخل الباص، انبعج التّاير، فقالت إحدى النّسوة بصوت عالٍ: يا ربي حفظك، بينما اكتفت الثانية بالبسملة، قال أحد الكرد سنتأخر في الأقل ساعة، وقال الثاني: ربما ساعة ونصف. فانقبض قلبي، أيقدر لي ألّا أرى ابن عمي؟ أين سأقضي الليل؟ أظلمت الدّنيا في داخلي. قالت أمي دكانه في الشّورجة هذا يعني إن تأخّرنا فسيضطر لغلق الدّكان مع الآخرين، فمن غير المعقول أن يبقى وحده في ظلام السّوق. هو لا يدري أنني قادم، لم نرسل له رسالة نعلمه بقدومي لينتظرني، يأخذ البريد يومين أو ثلاثة. كانت بنا حاجة ماسة إلى الفلوس، سينتهي السّكّر والطّحين بعد الغد، ما العمل؟ نزلتُ والتّشاؤم يكاد يعميني، بينما بقيت المرأتان وحازم في الباص، وأظنّه لم ينزل لأنّي رأيته شبه مخدّر، لعله فضّل أن ينام.

لا أدري بأيّ سرعة هائلة جلب السّائق الاطار الاحتياط والجاك "الرّافعة"، ومفكّ فتح براغي الإطار، والمنفاخ، ثم بدأ بتثبيت المفكّ على البرغي الأوّل لفتحه، لكنّي أدركت أنّه انجز كلّ ذلك لوجود ثلاثة شباب نشيطين، هُرعوا لمساعدته حال نزوله، فاستوت السيارة على إطارات أربعة، في وقت قياسيّ، ربما لا يزيد على ربع ساعة. ذلك مستحيل لو عمل وحده، لذلك فرح الرّجال، صفقوا، صرخ فجأة إثنان منهم بصوت عالٍ: الله أكبر، وهما ينظران إلى الشّباب، والله نشامى! بارك الله فيكم، سباع، الخ، بينما تردّد في جوّ الباص كلمات: فرحان، شداد، جبّوري، فعرفت أنّها أسماء الشّباب .

اندفع الباص على الطّريق يقفز كالأرنب، فنندفع إلى الأعلى معه، ثم نهبط في مكاننا، فتندق عظامنا، بحركة متتالية، حتى كادت الحركة تخدّرنا في أمكنتنا، لنفز جميعاً، على صراخ الطّفل الذي يجلس قرب حازم، هاتفاً بصوت عالٍ: جوعان. ضحك بعض الركاب، وأخذت المرأة، تربت على شعره: وتهمس محرجة: وصلنا، لم يبقَ شيء، سنجد الطعام أمامنا.

هتف بصوت عالٍ: أريد كليجة.

أخذت أمه تقبله، وهي تربت على رأسه، وبصوت خافت أشبه بالهمس، حرصتْ على ألا يسمعه غيره: ليس عندنا "كليجة"، سنصل البيت بعد دقائق فقط، نأكل كليجة، وفاصوليا ورز. أنت يعجبك الرز.

"لا، أريد كليجة، قلت لكِ جوعان". أخذ يضربها بقبضة يده الصغيرة على كتفها، وصدرها. كان بين الثالثة والرابعة، ومن صوت المرأة أحسست بأنها محرجة للغاية، لم ترد أن يسمع الركاب صوتها، النساء آنذاك يعتبرن ظهور الصوت أمام الغرباء حرام، لأنه عورة. بينما كان هو يصرخ بأعلى صوته: جوعان، كليجة، قلت لك جوعان. همستْ أمه ثانية: ليس عندنا كليجة.

"بلى هنا كليجة في الكيس" وانحنى ليخرج الكيس من تحت المقعد، فدفع حازم يده إلى الأعلى برفق. لست أدري كيف عرف الطّفل ما هو موجود في الكيس، بينما لم استطع أنا أن أحدس. غبطته على قوّة شمّه الهائلة، التي قادته ليفرز الرّائحة، ويشخص الموجود بدقّة، لأنّ خجل حازم، واحمرار وجهه، أكدّ مزاعمه. فاعتذر بصوت شديد الخفوت، وهو يقرّب فمه من اذن المرأة، هو والله أمانة أوصلها، لو كان لي لأعطيته. همست المرأة بأذن طفلها، "لا تفضحنا بين النّاس، سأخبر أباك"، لكنّ الطّفل لم يأبه بها، صرخ بصوت عالٍ مرّة أخرى: "أنا جوعان.". ثم علا بكاؤه، فملأ جوّ الباص بصراخ عالٍ، لم أتوقّع صدور مثله من طفل. تذكرّت مؤذن جامع باب جديد، الذي يوقظني فجراً في الصّيف، فألفّ اللحاف على رأسي.

"كليجة، قلت لكِ كليجة". همستْ أمّه محرجة: "واللهِ، ما عندنا كليجة"، ثم حضنته، أخذت تقبّله تحت "البوشي"، لكنه لم يأبه، انفلت من يديها، وأخذ يصرخ: كليجة، كليجة هنا تحت المقعد. شوفي! شمّي. مرّة أخرى عجبتُ كيف يتمتع هذا الطفل بمثل حاسة الشمّ الفريدة هذه! وبقوّة صوت عالية! ولو لم أقرأ رواية "العطر"، لأيقنت أن هذا الطفل هو الفريد بين البشر على الأرض قديما وحديثاً في دقة الشمّ. فجأة رفع فرحان جذعه، التفت إلينا، ونظر إلى أمّ الطفل، قال: إذا كان كيس الكليجة لك فلماذا لا توزعين علينا؟ كلّنا جوعى ليس طفلك وحده. علت همهمات صديقيه مؤيدين: نعم، نعم وزعي علينا الكليجة. آنذاك تكهرب الجوّ، التفتتُ إلى اليسار، كان وجه حازم كركمي اللون، إن قدّر لهم أن يحصلوا على الكليجة، فماذا يبقى في الكيس ليؤدّيه لصاحب الأمانة؟ هل سيقتنع إن قال له اقتسم الرّكاب الكليجة؟ ثم خطا فرحان خطوة أخرى، تجاوز

مقعده إلى الخلف، دخل إلى الصف الثالث، لم يكن هناك فسحة للجلوس، وضع ركبته على المقعد بين رجلين من الكرد، فبات يواجهني وحازم مع المرأة، قال: بصوت آمر: هيّا اعطنا كليجة، الطّفل جوعان. لم يرد حازم عليه. بل نكس رأسه، كأنه لم يسمع، وملامحه شديدة الاضطراب، هتفتِ المرأة بقوّة: لا عليك منا، نحن لا نريد كليجة، دع الولد. عندما كانت تتكلّم، كانت نقرة من البوشي الأسود تدخل فمها وتخرج بفعل الهواء. اتركه، أمّه أوصتنا به، هو والكليجة أمانة. ضحك الشاب ساخراً: نريد أن نطعم ابنك وأنت لا تريدين!

فهتفت غاضبة: "ما عليك بابني، ثم بلهجة ساخرة: بحجة "بيبي تاكل ماما!".

ضحك بعض الركاب، لكنّ البعض الآخر وبخاصة شداد وجبّوري، هتفوا: نعم نريد كليجة، لم ناكل في الطّريق.

أصبح الجوّ معادياً لحازم. كنت معه قلباً وقالباً، لا أدري ما السبب! وكان احتدامي الدّاخلي يكاد يجعل دمائي تلتهب، فهتفتُ من دون شعور: لا أحد يلمس الكليجة، هي أمانة.

نظر إلي فرحان ساخراً وباستصغار، ثم أمسك بشيء من شعر رأسي القصير، وأخذ يحرّك رأسي يميناً وشمالاً، ورأسي يهتز مع حركة يده، وألم جلدة الرأس يشتدّ، ودماغي يضطرب، والدوخة تقلقله. قال باستصغار: ومن يمنعني؟ أنت؟ هتف حازم وهو يدفع يده عن رأسي: أنا أمنعك، أنا صاحب حقّ.

كنت أخشى أن يضربني على أنفي، أنفي يرعف لأيّ ضربة أو حتى مسَّة خفيفة، إن بدأ الرّعاف فلا ينتهي، إلّا بتلويث دشداشتي، ويديّ، ويجعلني فرجة للأنام. وضعت كفيّ كقبّة على وجهي، لأغطي أنفي. ولمت نفسي لأني تدخّلت، على الرّغم من أنّ تدخلي لا مهرب منه، ولو كنت على الأرض لهربت. لكن هذا باص ضيّق، لا مناص ولا مهرب.

فجأة جاء صوت السائق قوياً مرعداً، حاسماً: فرحان كفى، إرجع إلى مكانك. لا تستطيع أن تجبر أيّاً كان على أخذ شيء دون رغبته، دع الأولاد، إرجع.

"من أنت لتأمرني؟" صرخ فرحان، ثم أبعد يده عن رأسي، التفتَ إلى السائق، كرّر: "من أنت؟ لولانا لما غادرت مكان انبعاج الإطار".

جاء صوت صديقه بلكنة ساخرة، مصحوبة بضحكة: يظن نفسه عنتر بن شداد هه هه هه. أتجرأ على رفع صوتك علينا؟ نحن ثلاثة.

التفت فرحان إلينا، أمسك بتلابيب حازم بيمناه، جذبه إليه، ثم أرسله بقوة فاصطدم رأسه بظهر السّيّارة على حافة الشّباك الصّغير الخلفي ، ولا شكّ أن الصدمة كانت مؤلمة لأن صوت الارتطام كان قويّاً. لكن حازم ما أظهر ألمه. لم أتمالك نفسي، اندفعت قائلاً: أنت كبير ونحن أولاد، لا تتمرجل علينا. فرفع يده ليوجه لي صفعة أو كفاً، لكني أحنيت رأسي، لأخفي أنفي بشكل تلقائي، فوقعت الصفعة على نافوخي، دخت، كدت أفقد وعيي. صرخت المرأة بفرحان وبصوت متشنّج: لا تضربه، كفى، انت لا تخاف الله! أنت جبان، لو كانت الكليجة لرجل

لما استطعت النّطق بكلمة واحدة.

"اخرسي أنت".

رفعت رأسي، هتفت ثانية من دون وعي وألم الضّربة مازال في يافوخي: أنت إخرس.

ثم أنزلت رأسي بسرعة، إلى ما بين رجلي، فتشجع حازم وصرخ: نعم أنت إخرس، أنت حرامي. فلم يمهله فرحان أيّ لحظة، بل صفعه على خده الأيسر، صفعة وسطاً غير قويّة، لكن صوتها واضح جداً، بحيث قال أحد الرّجال الموجودين: لا حول ولا قوة إلا بالله.

وردّد آخر: هذا ظلم.

فجأة توقف الباص، على الحافة اليمنى من الشّارع البالي، نزل السّائق مسرعاً، ثم سحب من تحت مقعده شومة ثخينة، برأسها كرة قير سوداء، ووقف في وسط الشّارع، وأخذ يشير إلى سيارة سوداء، بدت في آخر الأفق بحجم شخّاطة "علبة ثقاب" قادمة بسرعة نحونا، على بعد كبير.

أنا خائف، مرعوب، قلبي يدقّ بشدّة، أتساءل مع نفسي المحتدمة، لماذا يشير إلى السّيّارة؟ وماذا يستطيع سائقها أن يفعل إن وقف فعلاً؟ وأهمّ من كل هذا من يتجرأ ويقف في هذا الطّريق الموحش؟ وإن وقف فهل سيتمكّن من مساعدة السّائق فينقذنا؟ لكنّ السّيّارة الصّغيرة توقّفت فبددت شكّي، ثم نزل رجل ثلاثيني، بقيافة عسكريّة، وبضعة نجوم صفر على كتفه، ويده اليمنى إلى جانبه، فوق مسدس يستقرّ في حزامه. آنذاك اقترب منه السّائق وتكلّم معه بضع كلمات، وهو يؤشّر إلى الباص. شرعت عينا الضّابط تتوهّجان. فاقترب من الباص، وقال للسّائق بصوت مسموع منا: أنزلهم الآن.

ثم سحب مسدسه، ووجهه نحو الباص.

فهتف السّائق بالثّلاثة: ياللا فرحان، أنت وجماعتك أنزلوا.

هتف أحدهم: ماذا فعلنا؟ طلبنا كليجة. إذا ما يريد يعطينا هو حرّ، لا أحد يجبره.

"ياللا بلا لغوى، أسرعوا، وحين نزلوا، مدّ الضابط يده نحو البريّة في الجهة اليمنى من الشّارع: أركضوا بأقصى ما تستطيعون، حتى تصلوا جبل حمرين، وإن توقّفتم لحظة أرميكم، ياللا.

كنت لحظت وأنا بالسّيارة الجبل متواضع العلو، الأجرد، ذا اللون الذي يميل إلى الاحمرار، وتوقّعت أنّه جبل حمرين، لكنّي لم أكن متأكّداً. فنظر الثّلاثة ساخرين إلى السّائق، ثم أخذوا يسيرون ببطء، ويتلفتون نحونا. عندئذ وجّه الضّابط مسدسه إلى الأعلى، قال بصوت حاسم: الأولى في الجوّ، والثّانية في واحد منكم، إن لم تركضوا.

ثم أطلق رصاصة واحدة. لأوّل مرّة أسمع صوت رصاصة، الصّوت رهيب مدوّ، مخيف، يشلّ الأعضاء. رجفت، اضطربنا جمعياً، صاحت العجوز: بسم الله الرحمن الرحيم، يا ربي سترك، وعافيتك.

وفي بضع ثوان كاد الثّلاثة يختفون في الأفق البعيد، وهم يركضون في أقصى سرعة يقدرون عليها. بينما ساد في الباص

فرحة عميقة، وضجة ضحك، وتعليقات شامتة، ساخرة، وبعد أن استأنف الباص قفزاته الأرنبيّة المخدّرة، توقّعت أن يعود الطّفل ليصرخ "كليجة". لكنّه لم يفعل، خنس خائفاً كخنفسانة مريضة بضع دقائق فقط، ثم رفع صوته ثانية، لكنّه هذه المرّة، بدأ يصوّت بسعادة ومرح. أخذ يقلد صوت الرّصاصة، بووم بووم، ماما ماما " سمعتِ بووم بووم؟ يقولها مرّة بعد مرّة، من دون كلل أو ملل، فانفجرنا جميعاً ضاحكين وردّد بعض الرّجال بووم بووم. وما إن خفت صوت الضّحك حتى علا ثانية إثر سؤال أحدهم: عجباً هل وصل الشّباب جبل حمرين؟ فارتفعت الضّحكات ثانية ليتشجّع أحد الرّجال ويسأل السّائق: "لكن كيف عرفت أن السّيّارة القادمة لضابط؟"

قال السّائق دون أن يلتفت: عدد السّيارات في الموصل كلِّها إحدى وأربعون سيّارة فقط، أعرفها، وأعرف نوعها، أرقامها، أصحابها، ليس هي فقط بل سيارات أربيل وكركوك أيضاً"، هي هوايتي.

تلك السّفرة كانت سنة 1951، الأولى لي خارج مدينتي، سفرة قصيرة، بوسيلة بدائية، لكنّها أغنى سفرة في حياتي، فلقد رأيت أشياء كثيرة قرأت وسمعت عنها من قبل: الحمدانية، تلكيف، أربيل، كركوك، الخازر، الزّاب الأعلى، جبل حمرين، الأرض المتموجة، النار الدائمة الخالدة في بابا كركر، وفي هذه الرحلة عرفتها، كما سمعت لاول مرة في حياتي صوت طلقة مسدس عن قرب، رأيت الجسور الصّغيرة، طرق خارجية محفّرة، ذات تبليط يدوي، أكلت لأول مرة في حياتي اللوبيا الخضراء مع الطماطة والبصل والخبز، رأيت لأول مرة الأسماك تعوم تحت الجسور، وأشياء كثيرة نسيتها، بينما لم أرَ في أيّ رحلة أخرى سوى بضعة أشياء مهمّة.

*** روائي عراقي يقيم في شيكاغو/ امريكا**

اللغة، ومسرح غرفة الذات

د. جبار صبري

اللغة

- إنني أصرخ، أصرخ كثيرا لكن لا أحد يسمع صراخي الا نفسي.

ان عبارة: لغتي تشبه عقلي، لم تعد توفر مناخا مطابقا بين نظام العقل وبين نظام اللغة، كما عهدنا ذلك في مذاهب فلسفية او مسرحية سابقة. ذلك على فرض ان اللغة وعقل الانسان على مسافة واحدة من التناظر والتدليل في تمثيل الذات. لكن اعادة انتاج العبارة على نحو: ان لغتي تشبه نفسي، تمنحنا حياة جديدة ومدخلا مغايرا يمكن ان يكون لنا فيه التأصيل المناسب مع اطروحة مسرح غرفة الذات.

ابتداءً انني اتكلم كثيرا واقترب بحواري مع نفسي او غيري من نفسي او ابتعد كثيرا كلما تكلمت. لكن كلامي ذلك هو ذاته مصدر ألمي مثلما هو مصدر بوحي ومكاشفاتي. وكلامي ذلك هو صوتي: صوت الذات بكل ما فيها من اجزاء متنافرة. صوتي المخنوق بي، ولكنه الذي يحمل صليب عذاباتي كلها. هو بالأخير صوت حياتي..

انني أعي نفسي وهي تتكلم. أعي لغتي. أعي ان حياتي في ذاتي هي لغتي. أعي ذلك كله ولكن لا يمنحني ذلك الوعي ادنى امكان لتغيير حياتي او تغيير لغتي وكأنما ان لا ارادة لقمع او اسكات صوتي. بل لأي صوت من اصواتي. انني اخنع وذاتي بالنتيجة الى كل صراخ داخلي. الى هوسي بالكلام. الى حياتي الجديدة التي اذا تكلمت كثيرا انما ازدادت طاقة مضاعفة على الكلام مثلما ازدادت انفصاما وتفككا.

تبدأ لغتي: لغة نفسي من خلال معرفتي بـ:

- انتهاء عصر الذات التي تتوجه بالكلام موضوعا الى خارج الذات.
- بدء ولادات اصواتي من حيث بدء صحواتي في نفسي مما ترتكبه وتكبته، خطأً، نفسي.
- ان يقظتي في نفسي ويقظة اجزاء ذاتي هي اشارة اندلاع لساني والسنة اجزائي.

- لما تماهى عقلي في نفسي لم يعد يُذكر بشيء. هو الآن بلا وجود فاعل له. وصارت نفسي بذلك كل عقلي. وصارت لغتي في نفسي دماغي الذي افكر فيه واتواصل به.

- سيكون عالمي وكل العوالم التي تحيط بي خاضعين لخطاب لغتي. ستكون نفسي، حاملة لغتي، اصل انتاج ذلك الخطاب مثلما هي اصل تداوله. ان لغة نفسي هي الخطاب.

- تفرض اللغة وهي ترتدي ثوب الحوار والمجادلة بحجج منطقية لحظة التداول والمواجهة، وهذا جزء من متطلبات تشخيص المرض وتأكيد أحجية المواقف، الا انها بالعموم تفرض منطق النفس. انها تتمركز قوة وحضورا في طبيعة النفس. وما تلك الظواهر بالتعابير المنطقية الا مطية تركبها في هضبات مواجهة قاتلة لا اكثر.

اولا: لغة الغرفة (بيئة لغة)

تبدو اللغة في مسرح غرفة الذات بيت الذات اولا: ذلك البيت الذي يجمع عائلة النفس على مائدة الحوار الذي مرده الاساس النفس الواحدة. ذلك البيت الذي يصرح بكل شيء عن اجزاء النفس وبذات الوقت هو لا يمثل نفسه بل يمثل اصوات النفس المخنوقة بالتعبير عن غضبها وانفلاتها وعزلتها المؤلمة. وبالوقت الذي تسكن فيه اللغة بين تلك الانفس المهشمة/ اجزاء الذات بالوقت ذاته نلحظ ان تلك الاجزاء هي من تسكن بيت اللغة.

انني لا اتميز بين وجودي وبين لغتي. كلاهما أنا ومع ذلك انني ولفرط اغترابي ووهمي في ذاتي بوصفي جزءا مهمشا ومنبوذا ومعزولا ارى ان لغتي هي عنوان وجودي وهي بيتي الذي اكشف فيه عن نفسي وموقفي.

تحلم اللغة ان تكون منقذي، تحلم ان تكون طائري الذي يخرج عن اراضين الذات نحو سماء مجهولة اخرى لا لشيء الا للتخلص من عتبات التشرذم وضواغط حربي مع نفسي وبقية الاجزاء منها. تحلم ان تطير مثلي لكن ذلك الحلم قد وئد في حفرة نفسي مسبقا مثلما وئدت لغتي في فمي.

في الغرفة تتخذ اللغة جدرانا خاصة:

جدار 1: كل جزء من اجزاء النفس يسكن ويتحصن بلغته الخاصة.

جدار 2: تتساوق لغة كل جزء مع موقفه وبما لا يجعلها متشابهة مع بقية لغات اجزاء الذات الاخرى.

جدار 3: تتناسب اللغة وعمر جزء من الذات في مرحلة ما ولا تتناسب وعمر جزء اخر في مرحلة اخرى. اي ان لغتي في سن المراهقة مثلا لا تشبه لغتي في سن الشيخوخة او لغتي في موقف قبول زواجي من امرأة ما لا تشبه لغة رفضي وهكذا..

جدار 4: تفرض اللغة على كل جزء موجهات معنوية ارتبطت ذات يوم

بواقع معيشي للذات قبل الانفصام وهي تمثل خزين الذات في وقت ما ازاء ظرف ما او موقف ما..

جدار 5: لغتي تسكن رغبتي، ورغبتي مؤجلة في آمالها. وهذا التأجيل يجعل بيتي ولغتي على مركب ريح لا قرار له.

غالبا ما تكون عليه لغتنا في تلك الغرفة: غرفة المكاشفة والمواجهة لغة تأثيث لنفسي وبيتي. هي تعمل على تأثيث نفسي وافكاري ومواقفي بما يلائم طبيعة جدرانها. بما يلائم شدة بنيان الموقف والانفصام والعزلة وممكنات الصمود والآمال في مواجهة خصومي: خصوم كل جزء من اجزاء الذات لحظة نشوب المعركة الداخلية. هذا التأثيث يمتلك صفة تحنيط كل جزء بموجهات لغوية تصير مرتكزا فوقيا لكل جزء من اجل قيادته سلوكا وحوارا وموقفا..

ثانيا: ترجيع لغوي

بما انني اعيش في طورين مختلفين او في وسطين مختلفين:

1 - وسط الذات في وحدتها الاولى قبل التفكك والانفصام.

2 - لغة الذات في تفككها بعد انفصامها وتهشم مرآتها واجزاء نفسها.

لذلك أنا كل ذلك الماضي الضاغط حد اللعنة وانا لست منه بشيء. ولغتي تضغط عليّ مرة بوصفها لغة الانفصام، وتضغط عليّ بوصفها لغة مرجعيات.. أنا اعيش مزدوجة الضاغط اللغوي المقلوب: إن لغتي الحاضرة تعكس لغتي السابقة، وهي اداة تعبير من قاع الذات العميق والمظلم، والذي تتناثر شهبه كلما تتناثر منه سقطات لغوية عابرة تكشف وتعري جزءا مني وتخاصم اجزائي الاخرى.

هنا تكون اللغة وتاريخ الذات في سباق محموم: فريسة اجزاء الذات تطارد شبكة الذات. اجزائي في انفصامي تطارد ذاتي في وحدتها وتماسكها. حاضر تلك الاجزاء المنفلتة يطارد ماضي الذات المتحد، ويكون الترجيع معكوسا: يبدأ من تاريخ الانفصام ويمضي حتى تاريخ الوحدة على الرغم من ان التراتب البنائي الطبيعي، يؤكد ان الذات في وحدتها اولا، وان انفصام الذات في تفككها ثانيا.

هذا التاريخ المقلوب يعيد ترتيب المعادلة في البنية مثلما يعيدها في التعبير: تاريخ الانفصام يعبر ويدون تاريخ الوحدة من جديد: اللاحق يكتب السابق وليس العكس. وفي هذا الانقلاب تبعات لغوية في اداء كل جزء من اجزاء الذات مثل:

- هامش اللغة ترجيع لمركزها.
- اثبات حجة كل جزء هو اثبات لغوي لا صوت له ولا اثر له الا اثر انهيار الذات..
- حياة اللغة في الانفصام تعيد موات اللغة قبل الانفصام..
- ماضي كل جزء من اجزاء الذات

هو حاضره لذلك تكون لغة الحاضر ترجيع للغة الماضي.

ثالثا: لغة ذاتية صرفة

في انموذج البناء على وفق الخطاب التقليدي تكون اللغة في تداولها على نحو:

دال (ذاتي - موضوعي) يتواصل مع دال (ذاتي - موضوعي لتبيان مدلول ما

أي:

مادة/ معنى تتواصل مع مادة/ معنى لإنتاج معنى مشترك

بمعنى:

خارجي/ داخلي يتواصل مع خارجي/ داخلي لإنتاج معنى (داخلي) اخر..

هكذا يمكننا القول ان الخطاب رهان العلاقة الآتية:

موضوع + موضوع = معنى (خطاب)

لكن معادلات انموذج البناء اللغوي على وفق خطاب مسرح غرفة الذات لأجل التواصل سيكون على نحو:

مدلول (ذاتي - ذاتي) يتواصل مع مدلول (ذاتي - ذاتي) لتبيان مدلول.

أي:

معنى/ معنى يتواصل مع معنى/ معنى لإنتاج معنى يقبل الاستخدام والتداول.

بمعنى:

داخلي/ داخلي يتواصل مع داخلي/ داخلي لإنتاج معنى داخلي.

هكذا نلحظ ان التداول اللغوي هو تداول ذاتي بحت. أي يفقد خواص:

- الموضوعية
- الخارجية

هكذا يحقق تواجد وفعل لغوي داخلي لا يمكن البوح به وتمثله الا من خلال بوح وتمثل النفس بما تحمله من خطاب داخلي يعمل باستمرار على تحصيل التداول اللغوي من خلال تخصيب التداول الانفصامي.. بالنتيجة هي تدوير خطاب، اذ ان ما يحدث من تباري لغوي ووجودي يحدث بدواعي ان حراك ما يحدث لا يخرج عن سياق دواخل الذات. بل هو قار فيه الى حد التماهي المفرط..

اذن، هذه اللغة هي نفسي. هي مني والي في آن واحد. هي كأسي وعطشي ايضا. هي بيتي ومنفاي. هي حكمي وخصمي.. هي انا وهذه الانا تحمل كل تلك الفوضى وتلك المعارك ولا شاهد لها الا شاهد تلك اللغة التي تبوح بها وبصوت اخرس..

رابعا: انعكاس لغوي في مرآة الذات

تجد الذات نفسها في كل وقت اسيرة لمفهوم مرآة الذات. هذا المفهوم الذي يحدد موقع وحدود وماهية الذات في كل وقت. وهو المفهوم الذي يخبرنا عن تصورنا ايضا على ما تريد او تكون عليه الذات وجودا واعتبارا.

ومفهوم المرآة الذي تعتمده الذات في فهم وجودها واعتبارها يمتلك

منظورا تقليديا ومنظورا متجاوزا. ويمكننا وضع خطاطة المنظورين على افتراض ما يلي:

* المنظور التقليدي، فيه:

- الأنا (دال/ مدلول) تعكس الآخر (دال/ مدلول)
- الآخر يعكس الأنا
- الأنا تعكس الأنا
- الآخر يعكس الآخر
- الداخل يعكس الخارج
- الخارج يعكس الداخل
- الذات تعكس الموضوع
- الموضوع يعكس الذات
- الذات تعكس الذات
- الموضوع يعكس الموضوع

هذا يعني بكل الاحوال وجود ذاتين منفصلتين او موضوعين منفصلين يتواصلان على وفق معيار يعمل على استقلال ووحدة كل ذات او موضوع ضمن سياق لوجود طبيعي لا استثناء منه. انني انا والاخر وجودان، سواء تقابلنا او تقاطعنا، مختلفان ومتوازيان في الفعل والوجهة، ونؤدي دورنا في التواصل بما يضمن ابقاء كل طرف على نحو مستقل عن الطرف الاخر. وجود فيه الكثير من حرية وارادة: القبول والرفض والتوافق والتنافر والهروب والبقاء.. ثمة قدرة على ممارسة حق الاختيار: اختيار البقاء او الرحيل. اختيار الحرب او السلام. اختيار التواصل او الانقطاع..

* المنظور المتجاوز:

- الأنا (مدلول) تعكس الآخر/ آخر الأنا (مدلول)
- الداخل يعكس الداخل
- الذات تعكس الذات

هذا يدل على ان:

1- كل حراك او فعل تقوم به الذات انما هو حراك او فعل لوجود في الذات وعلى الذات حصرا.

2- ذلك الوجود كله افتراض وجود لأسباب فنية وعلاجية نوعا ما، اذ ان ما نلحظه من وجود هو الوجود المعنوي. وجود المدلول كفاعل شمولي في المكاشفة والحدث والصراع..

3- موضوع ذلك المدلول هو عبرتنا مما نفترضه على المسرح بوصف ذلك الافتراض حيوات درامية تتجنس تحت مسمى مسرح غرفة الذات وهي حيوات الذات في انفصامها.

4- الانعكاس اللغوي هو تدوير انعكاس لأجزاء الذات.

خامسا: حوار الذات المفتوح

لم تعد الذات مرهونة بتلك التسمية التي تنغلق عليها الذات بدرجة انغلاق كاملة بمسمى: الذات. بل هي الان اجزاء ذات. وان كل جزء يمتلك لغته كما امتلك موقفه وخصوصيته عمرا وشعورا ورغبة.. الذات هي:

- جزء 1
- جزء 2
- جزء 3
- .....

وان تفكك الذات وتحولها الى تلك الاجزاء يدفع ايضا كل تلك الاجزاء الى:

- تبني لغة معينة.
- تبني لقاء معين وان كان ذلك اللقاء مؤديا الى حرب ضروس بين تلك الاجزاء.
- تبني الحوار المشترك.

ولما تعتقد كل ذات بعد تشرذم انها تعاني مرض انفصامها وتفككها وانها اليوم تبحث عن نقطة علاج لتخرج من تلك الحالة المرضية ابتدعت المكاشفة والتعرية والبوح بل ابتدعت ذلك المختبر الداخلي لها الذي يضعها في مجهر دقيق لمعرفة اسباب تفشي ذلك المرض فيها وتفشي التشرذم.. ومن اولى مهام ووظائف ذلك المختبر: الحوار.

وفي ذلك الحوار نلحظ حركة ارادة كل جزء من اجزاء على نحو:

- التعرية والمكاشفة
- الدفاع عن الموقف
- المواجهة
- المحاكمة
- اعادة تكرير المرض من خلال اندفاع الجزء بمزيد من العلاج..

ولأن كل جزء يقبل التحرك في محاور مفتوحة اذ هو:

- متحرك بلا قيود في الزمان. يرجع الى الماضي، يذهب الى المستقبل.. حراك حر في الزمان..
- متحرك تبعا لاختيار موقف ما في ظرف ما من ظروف معاش الذات وفي مرحلة عمرية كانت..
- متحرك لان ما يحدث انما يحدث بدواعي ذاتية صرفة، اذ لا وجود لموضوع خارجي مقيد له.

اذن، يجر هذا الانفتاح الى تفتتح في الحوار ايضا ذلك لأجل المزيد من التعرية والمكاشفة ولوجود قابلية مفتوحة لحركة كل جزء من اجزاء بالتعبير عن نفسه وللتدليل على موقفه ورغبته منه في تحقيق علاجه المؤدي له الى تعظيم مرضه.. وكما الذات تمضي في كل الاتجاهات يمضي حوارها ايضا بكل الاتجاهات، وكما هي بلا حدود وجدران تحدها كذلك حوار البوح والمكاشفة..

سادسا: صراخ أخرس

بمعرفة ان ما يضايقني في هذا العالم وفي نفسي هي نفسي اكون قد عرفت عمق مصيبتي وخطر مرضي. اكون قد توجهت الي، ولكن للتعرية والمحاكمة والقصاص من نفسي. وان اولى خطوات ذلك التوجه واشدها تواصلا هو حواري في نفسي مع نفسي او ضد نفسي في آن واحد.

وكلما انفصمت او تفككت نفسي كلما زاد كلامي فيها وكلما اشتعلت نيران كلامي في نفسي اكثر كلما زاد مرضي واشتدت مصيبتي اكثر. انني اذ أتكلم

كثيرا فيها ذلك يعني انني أتألم وأتشرذم اكثر فيها.

ولكن بسؤالي عن موضع هذا الكلام وعن كيفيات حواري اكون قد ادركت انني اخرس. ذلك ان كلامي لا صوت له فينطلق الى خارج نفسي، بل هو مخنوق فيها. انه مكبوت تحت طبقات غليظة متشددة في الطمر والكبت داخل نفسي. اريد هواء صوتي لكنني غاطس في اعماق بحار ظلماء من نفسي. ولهذا احسب حواري فيها حوار انقاذ منها، لذلك توجب علي ان اصرخ كثيرا. اصرخ داخل نفسي وعلمي ان صراخي هذا اخرس تماما.

ان لساني وعيني واذني ويدي هما نفسي. لذلك اني إذ اتكلم او اسمع او أرى او اضرب انما افعل كل ذلك في نفسي. اني انا الصراع وحلبة الصراع وكل جمهوري في صراع نفسي مثلما انا كل حواسي واعضائي.. وانا بمثل ما اقرأ نفسي بمثل ما اكتبها واكتب عنها واكتب فيها، ولكن ذلك كله يحدث داخل سجلاتها ودفاترها.

ازاء ذلك لا يتوقف غضبي من نفسي. لا يتوقف طالما ثمة انشقاق متكاثر. طالما ثمة اغتراب. ثمة قطيعة وتنافر بين اجزاء مهشمة. طالما نفسي قد فقدت وحدتها وهويتها.. هكذا أنا غاضب جدا وتعبيري عن غضبي المسه في كثير من المرات انتقاما مني. من ذلك الحطام والتفكك. اصرخ علي بكل ما استطيع من قوة، ولكن صراخي مخنوق بي. صراخي بلا صوت. هو اخرس. وذلك يعذبني ويغضبني اكثر.

الزّمكانية في مجموعة "السنونو" للقاص حنون مجيد

د. مسلك ميمون/ المغرب - خاص

لا شكّ في أنّ البنيوية كانت حدثا لافتا في مجال النّقد، والتفّ حولها نقاد عالميون.. إلا أنّ ما بعد البنيوية، أحدث تغييرا جوهريا في المفاهيم والرّؤى، كان أشبه بزلزال ابستملوجي.. ضرب عميقا في أرضية المسلمات السّابقة، والمعارف المتوارثة، والأنساق الكلاسيكية.

ومن ذلك دور الزّمكانية في العمل السّردي، وبخاصّة الرّواية والقصّة. فالزّمن لم يعد تراتبياً منتظما محدّداً كالسّابق، أو على الأصح، لم يحافظ على هذه النّسقية باستمرار.. بل تحوّر، وامتلك حركية ذاتية، تمكنه من التّوقف/ مثلما هو في الوصف، أو ضغطه فيما يشبه اختزالاً، وقفزاً قصدياً عن لحظات زمنية، رغبة في تحقيق الزّمن الرّئيس المتضمّن فنّيا كلّ تلك اللّحظات، وقد يتقهقر الزّمن من اللّحظة الآنية إلى ماض بعيد، ليستعيده لحظة أو لحظات ارتبطت عضوياً بحدث أو أحداث، الفلاش باك (Flashback) أو عكس ذلك الزّمن الاستباقي. كما أنّ الزّمن يتّخذ صورا وظيفية أخرى، وتقنيات مختلفة (1) لا تحاكي تراتبية الواقع، وزمنه الفيزيائي، وبذلك يصبح الزّمن زمناً سردياً وظيفياً، كما هو الشّأن في هذه الدّراسة.

ونفس الشّيء بالنّسبة للمكان، لم يعد مسرح الحدث فقط، بل تعدّى هذا الدّور الأساسيّ إلى أدوار وظيفية، فسحت المجال رحبا للدّراسات التّأويلية/ السّيميائية. "إنَّ بناء الزّمن في القصّة القصيرة ليس مجرّد إجراء تنظيمي وتركيبي، بل يعدُّ فعلاً إبداعياً وبناءً جمالياً. إنّ هذا، يمنح الزّمن القصصيّ طابعاً مميّزاً ونوعياً، لأنَّهُ يَغدُو عُنصراً بنائياً للنَّص القَصصي، فيصير ممثلاً، في ذاته، غايةً دلاليةً وجماليةً، وليست

مجردَ وسيلة للتّعبير والإسهام في عملية البناء السّردي والفنّي والجمالي للقصة" (2).

فقد يكون من الطّبيعي القول، ألا حدث خارج المكان والزّمان. فالمسألة من باب تحصيل الحاصل.. ولكن مع ظهور الق ق ج ظهرت نصوص ليس فيها إلا الزّمن الصّرفي، النّاجم عن صياغة الأفعال الموظفة. وغيّبَ فيها الزّمن الفزيائي، كما غيّبَ الفضاء المكاني، وجاءت النّصوص وكأنّها جُرّدت من الزّمكانية ((Spacetime 3) .(البعض يرجع ذلك لرغبة في الإيجاز، والتّكثيف. والبعض الآخر يرى ذلك من دواعي الحداثة، وكلا الرّأيين لا يستندان لحتمية فنّية. لأنّ الزّمان والمكان في النّصوص السّردية، والقصصية منها بخاصّة، يشكلان بنية فنّية أساسية لا يقوم الحدث إلا عليهما. وعلى خلاف ذلك، يبقى قاصون آخرون، يراعون ما للزّمكانية من دور ومكانة، في بناء النّص القصصي. ومنهم القاص حنون مجيد. ففي مجموعته الأخيرة "السنونو" (4) يلاحظ المتلقي مدى اهتمام القاص بأنواع الزّمان واختلاف المكان.. ومدى توظيفهما فنّيا في إطار عمل قصصي..

1 ـ الزّمان والمكان من خلال عناوين نصوص مجموعة: "السنونو"

1/1 الزمان في العناوين: ذلك اليوم/ ص15، زمن العجوز/ ص17،6/6/2016/ ص19 مشكلتهما آخر العمر/ ص19، في لحظة واحدة/ ص19، ما يحصل الآن/ ص21، لحظة حب/ ص32.

1/2 المكان في عناوين النصوص: من نظام الغاب/ ص6، شهادة شارع/ ص7، أمريكا/ ص11، في القطار الصّاعد/ ص20، لاحقل/ ص27، المكان/ ص27، دمشق/ ص27، في طريق بغداد/ ص54.

2 ـ المكان/ التّفضئ (Spatialisation)

المكان هو مسرح الحدث، ولا يمكن تصور حدث ما خارج المكان. وقد عرف مصطلح المكان جدلا بين النقاد، فمن يراه "فضاء" كالناقد حميد لحميداني (5) والبعض يستكثر ذلك، لأنّ الفضاء أشمل وأكبر.. وهناك من يراه محدّدا فيقلّصه إلى حيز " Espace " كما فعل الناقد عبد المالك مرتاض (6). ولقد ظلّت الدّراسات النّقدية قليلة العناية بالمكان رغم أنّه مكوّن هام في العملية السّردية، ولعلّ أهمّ التفاتة نقدية كانت للفيلسوف النّاقد غاستون باشلار حين قدّم شعرية الأمكنة والقيم الرّمزية المرتبطة بها عبر مجموعة من الثنائيات. وعنده أنّ المكان لا يتحدّد بأبعاده الهندسية، وموقعه الجغرافي وإنّما بسكانه (7).

2/1 المكان في نصوص مجموعة "السنونو":

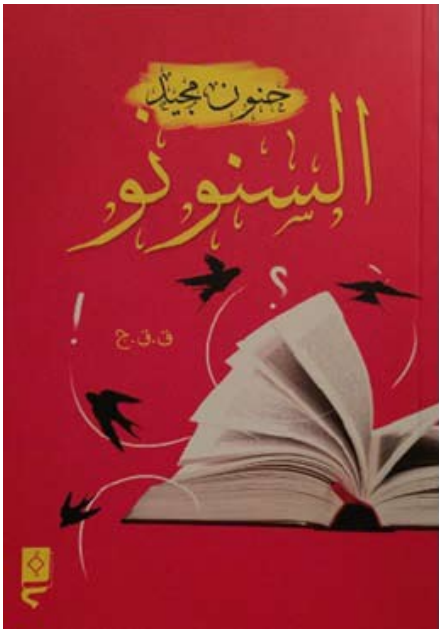

عملا بأنّ المكان للحدث، والحدث للمكان، ولا انفصام بينهما. درج القاص حنون مجيد على توظيف المكان عمليا. ولم يكتف بالإشارة فقط، كالذي نجده في نص "وردة لسلام آفل" ص/8 "انتشرت المتاريس والحفر وأكياس الرّمل في شوارع بغداد، وتحوّلت بعض البنايات الحكومية إلى ثكنات حرب... ينسل طفل يزرع وردة في كومة من تراب". في نص قصير جدا، ذكرت خمسة أمكنة بصلاحيتها الوظيفية الواقعية/ القصصية، أو بسماتها الرّمزية الدّلالية.. [الحفر، شوارع بغداد، البنايات الحكومية، ثكنات، كومة من تراب].

2/2 ـ المكان كرمز: القاص حنون مجيد، تجاوز، دور المكان كمسرح للحدث، ليتّخذ منه رمزا لفكرة ما، تتضح عند الوقوف على مكانية الحدث، ودلالتها في السّياق، إذ يتّضح أنّ المكان لم يعد وعاء، وإطارا لمجريات الحدث، بل أصبحت له دلالة ومَغزى، ووظيفة إيحائية، في إطار نسقية سردية تخيلية (Fictionality) كالذي نجده في نص: "الصّبر" ص/5 "سأل رجل رجلا متخذا طريقه إلى الصّحراء، يستعطفه قليلا من الصّبر، ردّ عليه، لو كنت أملك شيئا من هذا بعد، لما وجدتني متخذًا هذا الطّريق".

لا شكّ في أنّ الفكرة هي (عدم امتلاك

الصّبر)، ذاك الصّبر الذي ـ من خلال النّص ـ يفتقده السّائل والمَسؤول. ولا شك في أنّ مَن اتّخذ طريق الصّحراء، اتّخذ الطريق الصَّعب والشّاق اضطرارا، لا اختيارا.. قصد تحقيق رغبته وهدفه، ولم يركن إلى الانتظار والصّبر ولربّما التّواكل.. وحتّى إن فكّر أن يفعل، فلا يملك قدرة الفعل. فكان لا بدّ مما ليس منه بدّ. فأصبح (طريق الصّحراء) ـ فضلا عن وظيفته المعتادة كطريق غير آمن، تحفّه الأخطارُ من كلِّ جانب ـ ملتقى للرجلين وتحاورهما .أصبح رمزا لركوب الصّعب، ومواجهة التّحدي بإصرار وعزيمة. ويتكرّر هذا في نصوص أخرى مثل نص ''لأنّني'' ص/9، و نص ''عالم مغلق'' ص/24.

2/3 المكان/ السّبب: ترسَّخ في الأذهان أنّ المكان مسرحا للحدث، ولكن قد يكون سببا مباشرا لنَسجه، وتبلوره، كالذي نجده في نص ''غضب'' ص/5 إذ عاب الزّوج عن زوجته اهمال فراشه، والفراش مؤشر عن مكان النّوم، فما دامت الزّوجة عن قصد أو عن غير قصد أهملت ترتيب الفراش فوق السّرير.. فقد تسبب ذلك، في غضب، وانفعال بين الزّوجين. وبخاصّة حين علّق الزّوج عن غضب زوجته، التي لم ترض بعتابه قائلا: ''ما أقسى المرء حينما لا يجد تبريرا لغضب الآخرين.'' الشيء الذي زاد من غضبِ الزّوجة من تهمة كهذه.. فكان الفراش كمكان للنّوم سببا في بناء الحدث.

2/4 المكانُ المُضمر: كما اعتنى القاص حنون مجيد، بذكر المكان ذكرا، تحاشى ذلك في نصوص أخرى واكتفى بالإشارة، أو ما يوحي بالمكان. كالذي نجده في نص ''سؤال عن العمل'' ص/6. ألف السّارد أن يأتي لجارته الصّغيرة بنسخة من مجلة الأطفال، وحدث أن انقطع عن ذلك، فسألته عن السّبب. فقال: ''لقد تقلّص الطّبع'' المضمر: في المطبعة.

ثمّ واصل: ''ما عادت المجلات تصدر كلّ شهر''. المضمر: في المطبعة.

تغيّرت سحنة الطفلة وسألت: ''فماذا إذًا يفعلون هناك؟'' إشارة للمضمر: في المطبعة.

ونجد هذا في نص ''من نظام الغاب'' ص/6 ونص ''ثقافة بائع الغاز'' ص/16، و''فرصته اللّغوية'' ص28...

2/5 المكانُ التّخييلي: نقصد به المكان الذي يُترك لمخيلة المتلقي، وهو نوع من تقنية تنشيط خيال الآخر لينتقي المكان الذي يرتئيه، انطلاقا من فكرة النّص، وسياقه، ونوعية شخصياته.. فنص ''افتراق'' ص/8 حوار بين الجبن والشّجاعة، بدايةً، يتضح أنّ الحوار خيالي، ولا صلة له بالواقع، إنّما الغرض منه الفائدة والنّتيجة، لأنّها مكمن المعنى، ومنطلق الفهم والتّأويل: ''سأل الجبن من لا يعرف اسما له، أتعرف الجبن؟ قالت الشّجاعة لمن لا تعرف له اسما كذلك: كلا. وأنت أتعرف

الشّجاعة؟ ردّ الجبن: كلا. قالت وهي تنهض: إذا لنفترق. قال وهو يغادر: هو ذا الرّأي الحكيم".

لا ذكر للمكان لا صراحة، ولا إشارة، وإنّما ترك لمخيلة المتلقي، الذي يؤمن هو نفسه ألا حدث بدون مكان. ويتكرّر هذا أيضا في نص "البهائم" ص/8 ونص "الغزال" ص/13

وكذلك في نص "حوار الأمانة والغش" ص/14.

2/6 المكان كمظهر للإستبداد: المكان مسرح كلّ الأحداث، لكنّه أحيانا يتّخذ خصوصية، لما يُمارس فيه من ظلم، وقمع، واستبداد.. كما هو الشّأن في سجن السّياسيين، وذوي الرّأي الحر، كالذي نجده في نص "محنة" ص/9 ".. يوم دخل السّجن أوّل مرّة.. يوم حلقوا شعر رأسه، وجرّدوه من ملابسه الأنيقة، وألبسوه ملابس السّجن العتيقة، يوم منعوه من رؤية شارعه، ومقهاه وحبيبته.. يكيلون.. أقذع الشتائم.."، فالسّجن لم يعد اصلاحية، ولم يعد يراعي نوعية المساجين، ويميز بين سجين الرّأي، وسجين الاجرام.. بل أصبح مظهرا من مظاهر القمع والاستبداد ومثل ذلك نص "أمريكا" ص11.

2/7 المكان وأثر التّحول: لقد كان المكان دائما لافتا للانتباه. إذ يجده الغائب عنه لمدّة طويلة كما تركه مع بعض الاهمال. وإمّا يجده قد تغيّر، نتيجة الاكتظاظ البَشري، والتّجديد أو المزيد العمراني.. وقد يكون المكان تعرض لطارئ طبيعي كالزلزال، أو الأعاصير، والفياضانات .. فتتلف معالمه الأولى. أو يكون المكان مسرح أحداث واضطرابات عسكرية..

فيكون ذلك أثرا بيّناً كالدّمار والخراب، وأثر الرصاص على الجدران وسواد الحرائق.. ما يشكّل تحولا مريعا في المكان، ويؤثر تأثيرا مباشرا في نفسية الرّائي/ الزّائر الذي غاب عن المكان لمدّة ما. وعاد إليه ليجده دمارا وخرابا ينسي كلّ الذّكريات الجميلة..

أو الزّائر الذي حلّ بالمكان أوّل مرّة فهاله ما رأى.. كالذي نلمسه من إشارات قصصية في نص "دمشق" ص/27.

إذ زار السّارد دمشق في 30 تموز سنة 1976 أي قبل حركة الرّبيع العربي. ومن هناك كتب، لأعز من يملك: كانت (دمشق جميلة، شوارعها نظيفة، حدائقها غناء، وأسواقها عامرة، سأعود لك منها بشيء يفرحك).

ولكن بعد أربعة عقود من ذلك العهد، وفي خضم أحداث الرّبيع العربي، ومن بغداد كتب السّارد لأعز من يملك: (كيف هي دمشق، ناسها، شوارعها، أسواقها، أيمكن أن تعودي لي بشيء مفرح منها الآن؟)، المتلقي يعلم أن المكان لم يعد المكان، وأنّ الحرب الأهلية فعلت فعلتها، وأنّ العائد من دمشق لن يعود بشيء مفرح

***

3/1 ـ الزّمان ـ التّزمين (Tem-poralisation):

الزّمن ظلّ ولوقت طويل مثار جدل، بحكم سرابيته بين الوضوح والغموض.. فتجاذبته المفاهيم الفلسفية، والرياضية، والأدبية، والنّحوية، والفنّية.. وظلّ كالماء يتسرب بين أصابع الكفّ التي تحاول القبض عليه، حتّى قال باسكال: "إنّ الزّمن من هذه الأشياء التي يستحيل تعريفها، فإن لم يكن ذلك مستحيلا نظريا، فإنّه غير مجد عَمليا" (8). لكن رغم ذلك هناك من لامس حقيقة الزّمن كالالتفاتة التي أتى بها غاستون بشلار في قوله: "إنّ الزّمان حي والحياة زمانية" (9).

وما دمنا بصدد الحديث عن الزّمان والمكان في قصص مجيد حنون، نشير إلى أنَّ مِمن أشاروا إلى الزّمان بطريقة منهجية وموضوعية في الأعمال السّردية هم الشَّكلانيون الرّوس.

إذ ميَّز "توماشوفسكي" To-achevski بين المتن الحكائي، والمبنى الحكائي "فالأوّل لا بدّ له من زمن ومنطق ينظم الأحداث التي يتضمّنها. أما الثاني فلا يأبه لتلك القرائن الزّمنية والمنطقية قدر اهتمامه بكيفية عرض الأحداث وتقديمها للقارئ تبعا للنّظام الذي ظهرت به في العمل (10). أمّا تودوروف فقد حدّد الزّمن في السّرد في ثلاثة: "زمن القصّة، وزمن الكتابة، وزمن القراءة" (11) ويعتبرها أزمنة داخلية، لأنّ حسب رأيه هناك أزمنة خارجية: "زمن الكاتب أي المرحلة الثقافية، والأنظمة التمثيلية ينتمي إليها المؤلف، وزمن القارئ وهو المسؤول عن التّفسـ ات الجديدة، وأخيرا الزّمن التّاريخي ويظهر في علاقة التّخيل بالواقع [ثمَّ عاد وحدّد الزّمن في السّرد في صورتين فقط]:

"زمن القصّة وزمن الخطاب" (12)، واقترح بوتور ثلاثة أزمنة: زمن المغامرة، وزمن الكتابة، وزمن القراءة (13).

3/2 الزمن في نصوص مجموعة "السنونو":

3/3 الزّمن والذكرى: لا شك في أنّ الزّمن وعاء يحوي كلّ الذكريات: حلوها ومرّها، منها ما يتلاشى، فيلفه النّسيان، ومنها ما يبقى حيا في الذّاكرة، لا يبليه ولا ينسيه التقادم، ولا تمحوه الأحداث، وإن توالت، وتعاظمت، وتكاثرت.. وبخاصّة الذّكريات الحزينة، كالذي نجده في نص: "الشق" ص/7 جاء سعيد صديق السارد يوم العيد ليريه ثوبه الجديد، أراد السارد أن يجرب متانته، فتمزق الثوب من حافته السّفلى.. فمنذ ذلك الوقت، "والشّق يتّسع والنّفس تضيق" والزّمن لا يرحم السّارد فكلّ عيد يُذكّره بالواقعة: "منذ ستين عاما وأنا معلَّق بذنب".

3/4 الزّمن/ ماض في حاضر. إنّ الماضي وإن ولّى، وتنسى بعضه، إلا أنّه في معظمه باق يزاحم الحاضر ويعايشه.

في شكل ذكريات، واسترجاعات، وتهيؤات.. ففي نص: "العجوز" ص/7 يصبح الماضي في الحاضر كالقدر لا مفر منه: ماتت الزّوجة، ولم تمت ذكرياتها: "يتأمّل السّرير الفارغ إلى جوار سريره، يرهف السّمع لصوتها ويشحذ نظره لرؤيتها.." تداخل مزجي بين الآن والأمس البعيد، بين حاضر الذّكرى، وذكرى ما كان.

بل إنّ الحاضر يتلاشى، حين يصبح حلما بماض لا يُنسى: "متقاعسا يعود إلى سريره، يعاود نومه، لعلّ حلما يأتيه بها أو آخر يأخذه إليها!".

3/5 الزّمن/ الرّمز: قد يتحوّل الزّمن، في توقيت محدّد معلوم إلى رمز، يحدّد معالم ذكرى. والذكريات على اختلافها منوطة بالزّمن. كالذي نجده في نص "ذلك اليوم" ص/15:

"في يوم محدّد من كلّ عام يصوم عن امرأته وطعامه وشرابه... في مثل هذا اليوم من سنة كبيسة قبل أكثر من خمسين عاما، قتل قابيل هابيل ومنذ ذلك اليوم عمّ الفساد البلاد".

الزّمن هنا ليس زمن قابيل وهابيل، وإنّما هو رمز زمن قريب "قبل أكثر من خمسين عاما" فهو زمن رمزي يحدّد بداية الاقتتال بين الأشقاء (قابيل/ هابيل) وبداية تعميم الفساد الذي تغرق فيه البلاد على جميع الأصعدة.

3/6 الزّمن وجدلية التّكرار: عرف منذ القديم أن التاريخ يعيد نفسه، وهي مقولة قديمة جدا تعود لفلاسفة اليونان، وقد كرّر ذلك بعض مفكري ومؤرخي أوروبا الحديثة. والمراد في ذلك أنّ نفس الأسباب، والظروف تؤدي لنفس النتائج. وما دام التّاريخ أزمنة وأمكنة وأحداث، ركّز القاص على الزّمن كما في نص "6 /6 /2016" ص/19: "تكرّر في ذهنه الرّقم (6) ثلاث مرّات هذا اليوم، من هذا الشهر، ومن هذا العام...فاته أن يتذكر أنّ في كلّ عام يتكرّر رقم ما ثلاث مرّات، وقد تتكرّر الأحداث نفسها في عالم لا يتغيّر".

إدراكا من القاص حنون مجيد لخصوصية هذا الجنس، الذي قوامه الايجاز، والتّكثيف اللّغوي، والميل إلى الاشارة والتّلميح، والرّمز والأسْطرة .. واعتماده الأثير على مبدأ التّجريب الفنّي.. فقد تعامل مع خاصيتي الزّمن والمكان، تعاملا خارج النّسقية الواقعية المألوفة. إذ أصبحَ المكان والزّمان: قرائن ومؤشرات دالة، في خدمة فكرة النّص. ما حقّق البنية العميقة (Unde-lying structure)، وارتقى بمستوى التّلقي إلى القدرة التّوليدية، والتّأويلية، والتّأمّلية.. في إطار فنّي أساسه تقويض المألوف، من أجل تجربة جمالية، مُتعدّدة الأبعاد والجوانب..

الهوامش:

1- يقول ميشال بوتور: "بيتور وجود نوعين من الزمن، زمن يمضي بنا خطيا إلى الأمام، ويتمثل في الحاضر والمستقبل، وزمن يعود بنا إلى الوراء، وهو زمن الذاكرة. كما يصرح أن بين هذين النوعين مستويات أربع للزمن: مستوى زمن استعادة الذكريات بطريقة خطية "التسلسل الزمني". ـ مستوى زمن استرجاع الذكريات بطريقة عكسية. ـ مستوى زمن الأحداث الآتية في إطارها الزمني الخطي. ـ مستوى إعادة الذكريات بطريقة منتظمة".
Nicol Bothorel, Francine Dugast ;Jean Thoraval/ Les nouveaux Romanciers, Bordas;Paris 1976,p.22,23).
أما العالم الألسني "تودوروف" فيميز بين القصة والخطاب ويعد زمن الخطاب، زمنا خطيا "lineaire"، أما زمن القصة فعنده متعدد الأبعاد، "Pluridimensionnel"، ذلك أن العديد من الأحداث تجري في وقت واحد، في حين نلفيها في الخطاب تأتي متوالية، المرة تلو المرة، بسبب الانحرافات الزمنية المتعددة التي تمدنا بها العديد من الخطابات على المستوى الزمني.
Tzveetan Todorov/ Catégories du récit Littéraire , In Communication / n 81966 . 138,139

2- د عبد الرحمن تمارة/ موقع "مغرس" https://www.maghress.com/alittihad/2103447

3- الزمكان : هو دمج لمفهومي الزمان والمكان، الفضاء بأبعاده الأربعة، الطول والعرض والارتفاع، فضلا عن الزمن كبعد رابع، كل حدث يخضع لها، هذا المصطلح حديث نسبيا في الفيزياء منحوت من كلمتي الزمان والمكان يُطلق على أي نموذج رياضي يدمج الأبعاد الثلاثة للمكان مع بعد واحد للزمن.

4- مجموعة من الحجم المتوسط، تضم 148 قصة قصيرة جداً، أعد الغلاف عمرو الحو، وصدرت عن دار غراب للنشر والتوزيع/القاهرة، طبعة 1438هـ /2017م

5- حميد لحميداني، بنية النص السردي، ص 63.

6- عبد المالك مرتاض، نظرية الرواية، ص 141.

7- جيار جنيت، كولد نستين، وآخرون، الفضاء الروائي، ترجمة عبد الرحيم حزل، منشورات إفريقيا الشرق، بيوت دط، 2002، ص 06.

8- عبدالمالك مرتاض، ألف ليلة وليلة، تحليل سيميائي تفكيكي لحكاية جمال بغداد ص 157.

9- غاستون باشلار، جدلية الزمن، ترجمة خليل أحمد خليل، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر د ط، د ت، ص: 15.

10- Formalistes russe : théorie de la littérature Ed seuil 1965, p 267-268

11- سعيد يقطن، انفتاح النص الروائي النص والسياق، المركز الثقافي العربي المغرب، ط2001 ،2،ص 42.

12- حسن بحراوي، بنية الشكل الروائي (الفضاء، الزمن، الشخصية)، المركز الثقافي العربي، بيوت، ص 114 و 115.

13- ميشال بوتور، بحوث في الرواية الجديدة، ترجمة فريد أنطونيوس، منشورات عويدات بيروت، ط1 101 ص، 1985.

الفنان جعفر حسن.. الفرادة والتميَّز

حبيب ظاهر عباس*

الفنان جعفر حسن، هذا الاسم الذي لمع في نهاية عقد الستينيات من القرن الماضي، ولد عام 1944 ونشأ في بيت ذي ثراء وخير أوفر، ينتمي إلى أسرة يتصل عمود نسبها بالقومية الكردية، ولد وأبوه في مدينة خانقين وسكن وعائلته فيها. كان منذ صغره ميالاً للموسيقى، مما كان مدعاة لدهشة الاهل والأصدقاء، إذ بدأ محاولاً العزف على آلة الناي لبعض من الأغاني السائدة آنذاك.

وفي مطلع الستينيات انتقل وعائلته إلى بغداد، ليلتحق بدراسة الموسيقى والغناء في معهد الفنون الجميلة عام 1962 وتخرج فيه عام 1967 بعد أن درس آلة الكمان على يد الفنان الأستاذ "جورج مان"، مثلما زادت تجربته على آلة العود على يد الفنان الاستاذ "جميل سليم" الذي لحن له أجمل الأغنيات. كما انه استظل بخيمة أستاذه الفنان "روحي الخماش" ونهل منها الموشحات والابتهالات والأناشيد الوطنية، وظل يطوف في رياضها ويقتطف من أزهارها وفي سعة من الذوق وكفاية من التمثيل، واظب عليها وسعى نحوها بجهود مضنية وبذوق وفهم وتدبير عز نظيره، وهو بذلك مؤمن بأنها الوسيلة المثلى التي تعبر عن هوية الموسيقى العربية بسلالمها الموسيقية المتعددة وإيقاعاتها المتنوعة. وهي بهذا تعد العصب والقلب النابض والعمود الصلب الذي تشيد عليه الألحان العربية، وتبعاً لذلك أثقل بها كاهل ألحانه، بعد ان مضى بخطاب لحني رسم مساراته بحرفيةِ عالية، يرافقها عمق التصور ودقة التدبير وجزالة التعبير وبأسلوب يعلن في إحدى أهم وظائفه عن ولائه للأغنية العراقية.

وللوقوف عند شخصية الفنان جعفر حسن، الذي عرف عنه حسن السجايا مليح الثنايا، كنت قد التقيته عام 1964 في معهد الفنون الجميلة، يوم كنا طلبة في قسم الموسيقى، وبلا مغالاة كان الود والاحترام بيني وبينه أمثله، وعلى وفق هذا بذل من العناية بتعليمي وتدريبي كونه طالبا في المراحل المتقدمة، وتلك فرصة ملأتني يومذاك نشوة، فأيقظت في ذهني الحرص والمتابعة ودفعت بي للحضور في الوقت المحدد للدربة على انجاز دروسي، واستمرت مودة بيننا وامتنان مني لم ينقطع على مر السنين. وبقيت علاقتنا على عمقها حتى

بعد تخرجنا من المعهد وتعيينه مشرفاً فنياً في تربية الرصافة، مثلما تم تعييني مشرقاً فنياً في تربية الكرخ.

ولا سبيل أمام من يريد الخوض في فضاءات الأغنية العراقية، بالتغاضي عن دور الفنان جعفر حسن فيها، بدلالات متعددة وتحولات متنوعة ومنجزات متلاحقة، عرفتها المسارح العربية والعالمية، وان كل أثر من آثاره في مستهل حياته الفنية، يعطينا خيطاً من خيوط شخصيته بكثافة اكبر وحساسية أعمق، وفيها نلمس بتمعن وموضوعية التحولات التي مر بها والتي تنطوي على قدرٍ عالٍ من الانجازات عن طريق تاريخه الطويل الذي امتد قرابة خمسة عقود ونصف.

ومن فضائل الفنان جعفر حسن، انه أسهم بنشر الأغنية السياسية في الوطن العربي والعالم، وذلك بعد أن لمع نجمه وذاع صيته في أغلب أرجاء العالم، وأني لأميل مع الذين ذهبوا وأشادوا بالدور المهم الذي قدمه في هذا الميدان، كونه أعطى للأغنية السياسية وأضاف للموسيقى العربية غير قليل من الألحان والنتاجات الفنية الزاخرة بالجودة والأبداع، تلك الألحان التي نلمس فيها

نهجاً مغايراً في اختيار كلمات نصوصها التي نسجت بإيحاءات ودلالات تومئ بالتماعات تعكس مشهد الهجرة ولوعة الغربة وهموم الوطن، واوجاع الفقراء، ومعاناة المستضعفين. ولم يكن هذا الامر بميسور على سواه، والشواهد على ذلك أكثر من أن تحصى. ولعلنا نذكر منها "لا تسألني عن عنواني، يابو علي، عمي يابو جاكوج، للمرأة غنوتنه، عمال نطلع الصبح، قبليني للمرة الأخيرة"، وغيرها الكثير.

غادر العراق في نهاية السبعينات إلى جمهورية اليمن الديمقراطية (عدن)، وشارك في العديد من المهرجانات العربية والدولية، كمغن وملحن وموزع وعازف لعدة آلات موسيقية ومهندس صوت. كما عمل أيضا أُستاذاً للموسيقى والغناء والموشحات في معهد الفنون الجميلة الذي أسهم في تأسيسه مع الفنان جميل غانم.

تجدر الاشارة هنا إلى أن هذا الفنان لم ينل من الشهرة التي تناسب ما قدمه من الحان ومنجزات فنية، لسبب انه ظهر في حقبة السبعينات التي اختنقت فيها الأغنية البغدادية بعد ان قضت عليها الأغنية الجنوبية وفرسانها، واقتحمت فضاءاتها بالحان محمومة بالعاطفة ناطقة بالشجن، والتي اختزنتها ذاكرة المتلقي، فرددتها الألسن وشاع انتشارها وكثر تداولها بين الناس.

هذه إضاءة عجلى في حياة الفنان جعفر حسن وفنه. نرجو أن تكون فاتحة لدراسة مفصلة تفصح عن روح وإبداع هذا الفنان، بعد ان عانت الكثير من الجفاء. توفيَّ في 19 نيسان 2021، في أحد مستشفيات أربيل في إقليم كردستان العراق عن عمر" ناهز 77 عاماً" متأثراً بمضاعفات إصابته بفايروس كورونا.

---

* باحث موسيقي عراقي متخصص

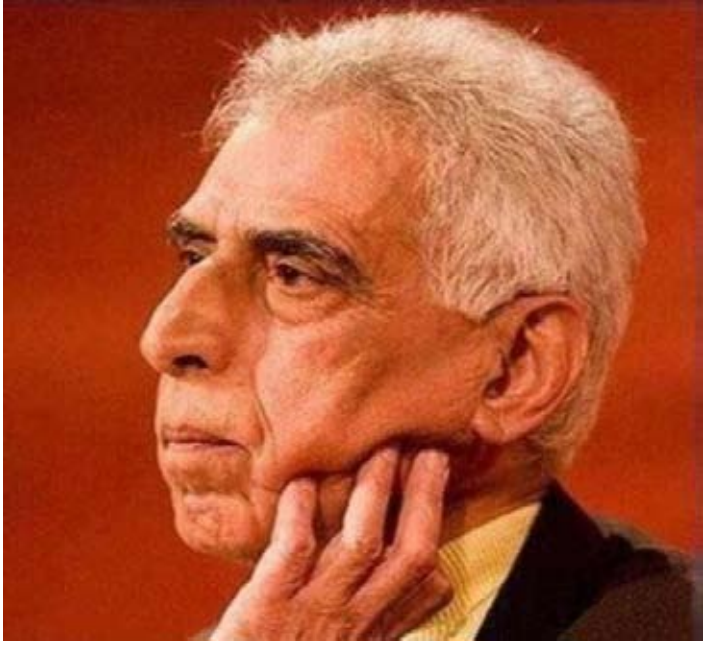

والمجلة قيد الطبع

سعدي يوسف .. الاخضر شعرا .. وداعا !

بحزن وألم عميقين تلقت (الثقافة الجديدة)، نبأ رحيل القامة الادبية المرموقة والشاعر الكبير سعدي يوسف في لندن بتاريخ 13 /6 /2021.

ومن جذره البصري، كان سعدي يوسف يقطر شعرا كما تقطر عيون محبيه وهم يودعونه، بوصفه جزءا أصيلا من جذرهم الثقافي والإبداعي، ووشمه الخالد الذي تركه في حياتهم وعطائهم .

نعم، كان هذا (الاخضر بن يوسف) يقدم خضرة عقله وروحه وهواجسه ويطبعها على مخيلة وفاعلية أجيال من الشعراء والمثقفين، الذين واكبوه شاعرا مرموقا ومترجما وقاصا وصحفيا بارعا وجزءا نابضا من مجلس تحرير مجلتنا (الثقافة الجديدة) لسنوات عدة، مثلما كان الامتداد الفاعل والمؤثر والمتواصل مع شغيلة الفكر والإبداع في العالمين العربي والدولي .

كان حضوره نجما ساطعا في تاريخ الحركة الثقافية العراقية والعربية، ومنجزه ثر وغني ومتنوع.

الى جانب ذلك، كان سعدي يوسف مناضلا تقدميا عرف بتضحياته، وما كابده من سجون وعذابات ومناف...

إنه الجمرة التي ستظل حية في النفوس ... وحتى لو تقاطعت الطرق واختلفت مع سعدي فإنه يبقى ذلك القامة الشعرية العالية وصاحب المنجز الابداعي المتجدد.

لروحه السلام ولإرثه الخلود .

سعدي يوسف... نم مغردا في مملكة الشعر !

(الثقافة الجديدة)

2021/ 06/ 13